

الرُّبْعُ الرَّابِعُ رُبْعُ الْمُنْجِيَّاتِ

كتاب التوبة وذكر شروطها واركائها وما يتعلق بذلك

اعلم: أن الذنوب حجاب عن المحبوب ، والانصراف عما يبعد عن المحبوب واجب . وإنما يتم ذلك بالعلم والندم والعزم ، فإنه متى لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب ، لم يندم على الذنوب ، ولم يتوجع بسبب سلوكه طريق البعد ، وإذا لم يتوجع لم يرجع . وقد أمر الله — تعالى — بالتوبة فقال : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(١) . وقال — سبحانه — : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً ﴾ ^(٢) الآية . وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ^(٣) . وقال النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ تَوْبُوا إِلَى رَبِّكُمْ ، فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ » ^(٤) .

وفي « الصحيحين » من حديث ابن مسعود — رضى الله عنه — ، أن رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « الله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دَوِّيَّة ^(٥) مهلكة ، معه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فنام فاستيقظ وقد ذهبت ، فطلبها حتى أدركه العطش ، ثم قال : أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه ، فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده يموت ، فاستيقظ وعنده راحلته ، عليها زاده وطعامه وشرابه ، فالتفت أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته » ^(٥) . والأحاديث في هذا كثيرة ، والإجماع منعقد على وجوب التوبة ، لأن الذنوب مهلكات مبعديات عن الله — تعالى — ، فيجب الهرب منها على الفور . والتوبة واجبة على الدوام ، فإن الإنسان لا يخلو عن معصية ، لو خلا عن معصية بالجوارح لم يخل عن الهم بالذنوب بقلبه ، وإن خلا عن ذلك ، لم يخل عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله — تعالى — ، لو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور في العلم بالله — تعالى —

(١) النور : ٣٩ . (٢) التحريم : ٨ . (٣) البقرة : ٢٢٢ .

(٤) رواه أبو داود بنحوه في كتاب « الوتر » ، باب « الاستغفار » ، رقم [١٥١٥] ، والإمام أحمد في مسنده [٤٥٠/٢] عن أبي هريرة — رضى الله عنه — . (*) الدَّائِيَّةُ ، والدَّائِيَّةُ : الفلاة (الصحراء) .

(٥) رواه الإمام مسلم في كتاب « التوبة » ، رقم [٣] ، والإمام أحمد في مسنده [٢٧٣/٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٣] — ورواه الترمذی في كتاب « صفة القيامة » ، باب [٤٩] وقال : هذا حديث حسن صحيح [٣٠٧/٩ — ٣٠٨] .

وصفاته وأفعاله ، وكل ذلك نقص ، ولا يسلم أحد من هذا النقص ، وإنما الخلق يتفاوتون في المقادير ، وأما أصل ذلك ، فلا بد منه .

ولهذا قال النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — : « إنه ليغان على قلبي ، فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة »^(١) . ولذلك أكرمهم الله — تعالى — بقوله : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾^(٢) . فأما غيره فكيف يكون حاله ؟ ومتى اجتمعت شروط التوبة كانت صحيحة مقبولة ، قال الله — تعالى — : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾^(٣) . وفي الحديث أن رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »^(٤) . والأحاديث في ذلك كثيرة .

● فصل في بيان اقسام الذنوب

واعلم : أن للإنسان أخلاقاً وأوصافاً كثيرة ، لكن تنحصر مثرات الذنوب في أربع صفات : أحدها : صفات ربوية ، ومنها يحدث الكبر والفخر ، وحب المدح والثناء ، والعز وطلب الاستعلاء ، ونحو ذلك ، وهذه ذنوب مهلكات ، وبعض الناس يغفل عنها ، فلا يعدها ذنباً . الثانية : صفات شيطانية ، ومنها يتشعب الحسد ، والبغى والحيل والخداع والمكر ، والغش والنفاق والأمر بالفساد ونحو ذلك . الثالثة : الصفات البهيمية ، ومنها يتشعب الشر والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ، فيتشعب من ذلك الزنى واللواط والسرقة ، وأخذ الحطام لأجل الشهوات . الرابعة : الصفات السبعية ، ومنها يتشعب الغضب والحقد ، والتهجم على الناس بالقتل والضرب ، وأخذ الأموال ، وهذه الصفات لها تدرج في الفطرة . فالصفة البهيمية هي التي تغلب أولاً ، ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً ، فإذا اجتمعت هاتان ، استعملتا العقل في الصفات الشيطانية ، من المكر والخداع والحيل ، ثم تغلب الصفات الربوية .

فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ، ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع إلى الجوارح ، فبعضها في القلب ، كالفكر ، والبدعة ، والنفاق ، وإضرار السوء ، وبعضها في العين ، وبعضها في السمع ، وبعضها في اللسان ، وبعضها في البطن والفرج ، وبعضها في اليدين والرجلين ، وبعضها على جميع البدن ، ولا حاجة إلى تفاصيل ذلك ، فإنه واضح . ثم الذنوب تنقسم

(١) رواه أبو داود في كتاب الصلاة باب الاستغفار رقم [١٥١٥] لكن فيه : « استغفر الله مائة مرة » ، ورواه الإمام أحمد في المسند [٢٨٢/٢ ، ٣٤١] ، والبخاري في الدعوات باب استغفار النبي رقم [٦٣٠٧] بلفظ : « والله إلى لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » .

(٢) الفتح : ٢ . (٣) الشورى : ٢٥ .

(٤) رواه الترمذي في صحيحه [٥٨/١٣] وقال : هذا حديث حسن غريب ، والإمام أحمد في مسنده =

إلى ما يتعلق بحقوق الآدميين ، وإلى ما بين العبد وبين ربه . فما يتعلق بحقوق العباد ، فالأمر فيه أغلظ ، والذي بين العبد وبين ربه ، فالعفو فيه أرجى وأقرب ، إلا أن يكون شركاً والعياذ بالله ، فذلك الذى لا يغفر . وقد روى عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « الدواوين عند الله — عز وجل — ثلاثة : ديوان لا يعبأ الله به ، وديوان لا يترك الله منه شيئاً ، وديوان لا يغفره الله . فأما الديوان الذى لا يغفره الله — تعالى — ، فالشرك . قال الله — تعالى — : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾ ^(١) . وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئاً ، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله — عز وجل — ، يغفر ذلك ، ويتجاوزون إن شاء . وأما الديوان الذى لا يترك منه شيئاً ، فظلم العباد بعضهم بعضاً ، فالقصاص لا محالة » ^(٢) .

قسمة أخرى — اعلم : أن الذنوب تنقسم إلى صفائر وكبائر ، وقد كثر الاختلاف فيها ، واختلفت الأحاديث في عدد الكبائر . والأحاديث الصحاح في ذكرها خمسة . الأول : حديث أبى هريرة — رضى الله عنه — ، أن النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله : وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الفافلات » ^(٣) . الثانى : حديث ابن مسعود — رضى الله عنه — ، أن النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — ، سئل أى الذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قال : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قال : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك » ^(٤) . الثالث : حديث عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — ، أن النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « الكبائر : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين » ^(٥) .

= [١٣٢/٢ ، ١٥٣] — [٤٢٥/٣] . (١) المائدة : ٧٢ .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده [٢٤٠/٦] ، والحاكم في مستدركه [٥٧٥/٤] عن عائشة أم المؤمنين وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وتعبه الذهبى فقال : ضعيف ، لأن فيه صدقة بن موسى (ضعفه) ، وي زيد بن بايوس (فيه جهالة) .

(٣) رواه البخارى في كتاب الوصايا ، باب [٢٣] رقم [٢٧٦٦] ، ومسلم في كتاب الإيمان ، رقم [١٤٤] .

(٤) رواه البخارى في صحيحه كتاب الديات باب ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم ﴾ رقم [٦٨٦١] ، مسلم في كتاب الإيمان رقم [١٤٢] .

(٥) الحديث رواه البخارى في صحيحه كتاب الأدب باب عقوق الوالدين من الكبائر ، رقم [٥٩٧٦] ، والإمام أحمد في مسنده [٢٠١/٢ ، ٢١٤] — [٤٩٥/٣] عن ابن مسعود ، الترمذى في صحيحه كتاب التفسير ، — تفسير سورة النساء — عن أنس [١٤٩/١١ — ١٥٠] وقال : حديث حسن غريب صحيح .

الرابع : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : قول الزور — أو قال — شهادة الزور »^(١) .
الخامس : حديث أبي بكرة أن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — ذكرت عنده الكبائر
قال : « الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس ، فقال : ألا وقول الزور ،
وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت . وقد اختلفت العلماء فيها على أقوال
كثيرة ، والأحاديث في الكبائر لا تدل على حصرها فيها ، ولعل الشارع قصد الإبهام ليكون
الناس على وجل من الذنوب ، لكن يعرف من الأحاديث أجناس الكبائر ، ويعرف أيضاً
أكبر الكبائر . فأما أصغر الصغائر ، فلا سبيل إلى معرفته ، وقد تكلم العلماء في عدد الكبائر ،
فروى عن ابن مسعود — رضى الله عنه — أنه قال : هي أربع . وروى عن ابن عمر
— رضى الله عنهما — أنه قال : هي سبع . وكان ابن عباس — رضى الله عنهما — إذا بلغه
قول ابن عمر : إنها سبع ، قال : هي إلى سبعين أقرب منها إلى سبع . وقال أبو صالح عن
ابن عباس : هي ما أوجب الحد في الدنيا .

وعن ابن مسعود أن الكبائر من فاتحة النساء^(*) إلى قوله : ﴿ إِنْ تَجْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾^(٢) . وقال سعيد بن جبير وغيره : هي كل ذنب أوعده الله عليه النار . وقال أبو
طالب المكي : الكبائر سبع عشرة جمعتهما من جملة الأخبار . أربعة في القلب : الشرك ،
والإصرار على المعصية ، والقنوط من — رحمة الله — ، والأمن من مكر الله — تعالى — .
وأربعة في اللسان : شهادة الزور ، وقذف المحصنات ، واليمين الغموس ، والسحر . وثلاثة
في البطن : شرب الخمر ، وأكل مال اليتيم ظلماً ، وأكل الربا . واثنان في الفرج : الزنا
واللواط . واثنان في اليدين : القتل والسرقة . وواحدة في الرجلين : الفرار من الزحف .
واحدة في جميع البدن : وهي عقوق الوالدين . وهذا يمكن أن يزداد عليه ، وينقص منه ،
فإن ضرب اليتيم وتعذيبه أكبر من أكل ماله ، والله أعلم .

● فصل في كيفية توزع الدرجات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا

اعلم : أن الناس يتفاوتون في الآخرة ، كما يتفاوتون في الدنيا ، وينقسمون إلى أربعة
أقسام : هالكين ، ومعذبين ، وناجين ، وفائزين . ومثال ذلك أن يستولى ملك من الملوك
على إقليم ، فيقتل بعض أهله ، ويعذب بعضهم ولا يقتلهم ، ويخلى بعضهم ، فهم الناجون ،
ويخلع على بعضهم وهم الفائزون . وإذا كان الملك عادلاً ، فلا يقسمهم كذلك إلا

(١) رواه الترمذى في صحيحه كتاب التفسير [١٥٠/١١ — ١٥١] عن أبي بكرة وقال : هذا حديث حسن
غريب صحيح ، والبخارى في كتاب الأدب ، باب عقوق الوالدين ، رقم [٥٩٧٦] ، مسلم في الإيمان
رقم [١٤٣ ، ١٤٤] ، المسند [١٣١/٣] — [٣٨ ، ٣٦/٥] .
(*) يعنى من أول سورة النساء . (٢) النساء : ٣١ .

باستحقاق ، ولا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك ، معانداً له في أصل الولاية ، ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف له بالملك ، ولا يخلى إلا معترفاً له بالملك ، ولم يقصر ، ولا يخلع إلا على من أبلى عمره في الخدمة والنصرة ، وكل واحد من هذه الأقسام يتفاوتون في النعيم والتعذيب على حسب أحوالهم ، ويشهد لذلك ما ورد في الحديث أن من الناس من يمر على الصراط كالبرق الخاطف ، ومنهم من يبقى في النار سبعة آلاف سنة ، وبين اللحظة وسبعة آلاف سنة تفاوت كثير .

وأما اختلاف العذاب بالشدة ، فلا نهاية لأعلاه ، وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب ، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ، ثم يعفو ، وقد يضرب بالسياط أو يعذب بغيرها من أنواع العذاب . وتفاوت منازل أهل السعادة على نحو ذلك في النعيم ، فهذه الأمور الكلية معلومة بالنقل ونور المعرفة . فأما من جهة التفصيل ، فنقول : كل من أحكم أصل الإيمان ، واجتنب جميع الكبائر ، وأحسن جميع الفرائض ، ولم يكن منه إلا صفائر متفرقة لا يصير عليها ، فيشبه أن يعفى عنه ، فقد نص القرآن على أن اجتناب الكبائر مكفر للصغائر . وهذا إما أن يلتحق بالمقربين ، أو بأصحاب اليمين ، وذلك بحسب إيمانه وبقينه ، فإن قل أو ضعف ، دنت منزلته ، وإن كثر وقوى ، علت منزلته . ثم إن المقربين يتفاوتون بحسب تفاوت معرفتهم بالله — تعالى — ، ودرجات العارفين في المعرفة لا تنحصر ، لأن بحر المعرفة لا ساحل له ، وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم ، فأعلى درجات أصحاب اليمين ، أدنى درجات المقربين ، هذا حال من اجتنب الكبائر وأدى الفرائض .

فأما من ارتكب كبيرة ، أو أهمل أركان الإسلام ، فإنه إن تاب توبة نصوحاً قبل قرب الأجل ، التحق بمن لم يرتكب ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والثوب المغسول كالذى لم يتسخ أصلاً . فأما إن مات قبل التوبة ، فأمره خطر ، إذ ربما يكون موته على الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه ، فيختم له بسوء الخاتمة ، لا سيما إذا كان إيمانه تقليداً فإنه قابل للانحلال بأذى شك وخيال ، والعارف الموقن أبعد من أن يخاف عليه سوء الخاتمة . ثم إن عذاب الميت عن غير توبة يكون بحسب قبح الكبائر ومدة الإصرار . ثم ينزل البله المقلدون الجنة ، وينزل العارفون المستبصرون أعلى عليين ، وما ذكرناه من مراتب العباد في المعاد حكم ظاهراً للأسباب ، يضاهي حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ، ولا يقبل إصلاح العلاج ، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف ، وعلاجه هيئ ، فإن ذلك ظن يصيب غالباً ، وقد تثوب إلى الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب ، وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه ، وذلك لأسرار الله — تعالى — الخفية ، وفي أرواح الأحياء غموض للأسباب التي رتبها المسبب ، وليس في قوة البشر الوقوف على كتبها ، وكذلك

الفوز والهلاك في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها ، وكذلك يجوز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته ، والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة ، فإن الاعتماد على التقوى ، والتقوى في القلب ، وأحوال القلب قد تخفى على صاحبه ، فكيف على غيره ؟ وأما الناجون ، ونعني بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز ، وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ، ولم يقصروا فيعذبوا ، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين ، وأولاد الكفار ، والذين لم تبلغهم الدعوة ، فلم يكن لهم معرفة ، ولا جحود ، ولا طاعة ، ولا معصية ، ويصلح أن يكونوا على الأعراف .

وأما الفائزون ، فهم العارفون ، وهم المقربون والسابقون ، وهؤلاء الذين لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ، وليس حرصهم على الجنة ، بل على لقاء الله — سبحانه وتعالى — والنظر إليه . ومثالهم مثال المحب ، فإنه في تلك الحال غافل عن نفسه ، لا يحس بما يصيبه في بدنه ، ولا هم له سوى محبوبه ، فهؤلاء الواصلون إلى قرة أعين ، ولا تخطر على قلب بشر ، فهذا القدر كاف في بيان توزيع الدرجات على الحسنات .

● فصل في بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم : أن الصغيرة تكبر بأسباب : منها الإصرار والمواظبة . وفي الحديث من رواية ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال : « لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع الاستغفار »^(١) .

واعلم : أن العفو عن كبيرة قد انقضت ولم يتبعها مثلها ، أرجى من العفو عن صغيرة يواظب عليها العبد . ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على حجر متواليات ، فإنها تؤثر فيه ، ولو جمعت تلك القطرات في مرة وصبت عليه لم تؤثر ، ولهذا قال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل »^(٢) .

ومن الأسباب التي تعظم بها الصغائر أن يستصغر الذنب ، فإن الذنب كلما استعظمه العبد ، صغر عند الله - تعالى - ، وكلما استصغره العبد ، كبر عند الله - تعالى - ، فإن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه وكراهيته له . قال ابن مسعود - رضي الله عنه - : إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه ، فقال به هكذا . أخرجاه في « الصحيحين »^(٣) . وإنما يعظم الذنب في قلب

(١) في جمع الجوامع [٩١٥/١] عزاه للديلمى عن أنس وابن عباس معاً .

(٢) رواه البخارى في صحيحه كتاب « الرقاق » ، باب « القصد والمداومة على العمل » ، رقم [٦٤٦٤] ، ومسلم في كتاب « المسافرين » ، رقم [٢١٦ ، ٢١٨] ، الإمام أحمد في المسند [٣٥٠/٢] - [٢١٩/٥] - [٤٠/٦] ، عن عائشة أم المؤمنين .

(٣) رواه البخارى في صحيحه كتاب « الدعوات » ، باب « التوبة » ، رقم [٦٣٠٨] ، الترمذى في صحيحه =

المؤمن لعلمه بجلال الله — تعالى — ، فإذا نظر إلى عظمة من عصى ، رأى الصغيرة كبيرة .
وفى البخارى من حديث أنس — رضى الله عنه — : « إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق
في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدّها على عهد رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم —
من الموبقات »^(١) . وقال بلال بن سعد — رحمه الله — : لا تنظر إلى صغر الخطيئة ، ولكن
انظر إلى عظمة من عصيت . ومن الأسباب أن يفرح بالصغيرة ويتمدح بها ، كما يقول :
أما رأيته كيف مرّقت عرض فلان . وذكرت مساويه حتى خجلته ، أو يقول التاجر :
أما رأيته كيف روجت عليه الزائف ، وكيف خدعته وغبته ، فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر .
ومنها أن يتهاون بستر الله — تعالى — وحلمه عنه وإمهاله إياه ولا يدرى أن ذلك قد يكون
مقتناً ليزداد بالإمهال إثماً .

ومنها أن يأتي بالذنب ثم يذكره بمحضر من غيره ، وفى « الصحيحين » من حديث أبى
هريرة — رضى الله عنه — ، أن النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « كل أمتى
معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل العمل بالليل ، ثم يصبح وقد ستره
الله عليه ، فيقول : يا فلان : عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره الله عليه ، ويصبح
يكشف ستر الله عنه »^(٢) . ومنها أن يكون المذنب عالماً يقتدى به ، فإذا علم منه الذنب ،
كبر ذنبه ، كلبسه الحرير ، ودخوله على الظلمة مع ترك الإنكار عليهم ، وإطلاق اللسان
في الأعراض ، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه ، كعلم الجدل ، فهذه ذنوب
يتبع العالم عليها ، فيموت ويبقى شره مستطيراً في العالم ، فطوبى لمن إذا مات ماتت معه
ذنوبه . وفى الحديث : « ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل
بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء »^(٣) . فعلى العالم وظيفتان :

إحدهما : ترك الذنب ، والثانية : إخفاؤه إذا أتاه . وكما تتضاعف أوزار العلماء إذا اتبعوا
على الذنوب ، كذلك تتضاعف حسناتهم إذا اتبعوا على الخير . وينبغى للعالم أن يتوسط في
ملبسه ونفقته ، وليكن إلى التقليل أميل ، فإن الناس ينظرون إليه . وينبغى له الاحتراز مما يقتدى
به فيه ، فإنه متى ترخص في الدخول على السلاطين وجمع الحطام ، فاقتدى به غيره ، كان
الإثم عليه ، وربما سلم هو في دخوله ، ولم يفهموا كيفية سلامته . وقد روينا أن ملكاً كان

= كتاب القيامة باب [٤٩] [٣٠٧/٩ — ٣٠٨] وقال : هذا حديث حسن صحيح ، والإمام أحمد في مسنده
[٣٨٣/١] .

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب « الرقاق » ، باب « ما ينهى من محقرات الذنوب » ، رقم [٦٤٩٢] ،
الإمام أحمد في مسنده [١٥٧/٣ ، ٤٧٠] — [٧٩/٥] .

(٢) رواه البخارى في صحيحه كتاب « الأدب » ، باب « ستر المؤمن على نفسه » ، برقم [٦٠٦٩] ، ومسلم
في صحيحه كتاب « الزهد » ، رقم [٥٢] .

(٣) رواه مسلم في كتاب « الزكاة » ، باب « الحث على الصدقة ولو بشق تمرة » ، رقم [٦٩] .

يُكْرِهُ الناس على أكل لحم الخنزير ، فجىء برجل عالم ، فقال له حاجب الملك : قد ذبحت لك جدياً فكل منه ، فلما دخل قرب إليه فلم يأكل ، فأمر بقتله ، فقال له الحاجب : ألم أقل لك إنه جدى ، فقال : ومن أين يعلم حالى من يقتدى بى .

● فصل [فى شروط التوبة]

واعلم : أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً ، وذلك الندم يورث العلم بأن تكون المعاصى حائلاً بين الإنسان وبين محبوه . والندم هو توجع القلب عند شعوره بفراق المحبوب ، وعلامته طول الحزن والبكاء ، فإن من استشعر عقوبة نازلة بولده أو من يعزُّ عليه ، طال بكاؤه ، واشتدت مصيبته ، وأتى عزيز أعزَّ عليه من نفسه ؟ وأى عقوبة أشد من النار ؟ وأى سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصى ؟ وأى مخبر أصدق من رسول الله - ﷺ - ؟ ولو أخبره طبيب أن ولده لا يبرأ من مرضه لاشتد في الحال حزنه ، وليس ولده بأعز من نفسه ، ولا الطبيب أعلم من الله ورسوله ، ولا الموت بأشد من النار ، ولا المرض أدل على الموت من المعاصى على سخط الله ، والتعرض بها للنار .

وينبغى للتائب أن يتفقد ما عليه من صلاة فائتة ، أو يغير شرطها ؟ مثل أن يكون صلاتها في ثوب نجس ، أو بنية غير صحيحة ، لجهله بذلك ، فيقضيها كلها . وكذلك إن كان عليه صوم ، أو زكاة ، أو حج ، أو غير ذلك من الواجبات ، يقضيها كلها ، ويفتش على ذلك ويتداركه . وأما المعاصى ، فينبغى أن يفتش من أول بلوغه عن معصية صدرت منه ، وينظر فيها ، فما كان من ذلك فيما بينه وبين الله - تعالى - ، فالتوبة منه الندم والاستغفار . ثم ينظر إلى مقادير ذنوبه ، فيطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها ، يأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات . قال الله - تعالى - : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ^(١) ، وقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : « أتبع السيئة الحسنة تمحها » .

مثال ما ذكرنا : أن يكفر سماع الملامى بسماع القرآن ومجالس الذكر ، ويكفر من المصحف بغير طهارة بإكرامه وكثرة القراءة فيه ، وإن أمكنه أن يكتب مصحفاً ويقفه فليفعل ، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بالشراب الحلال . وعلى هذا فاسلك سبيل المضادة ، فإن الأمراض إنما تعالج بضدها ، فهذا حكم ما بينه وبين الله - تعالى - . وأما مظالم العباد ، ففيها أيضاً معصية الله - تعالى - ، لأنه نهى عن ظلم العباد ، فالظالم لهم قد ارتكب نهيه - تعالى - ، فيتدارك ذلك بالندم والعزم على ترك مثل ذلك في المستقبل ، والإتيان بالحسنات المضادة لتلك المظالم كما تقدم في القسم الأول ، فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم ، ويكفر غصب الأموال بالتصدق بماله الحلال ، ويكفر تناول أعراضهم بالثناء على أهل الدين ، ويكفر قتل النفوس بالعتق . هذا فيما يتعلق بحق الله - تعالى - ، فإذا فعل ذلك ، لم يكفه

حتى يخرج من مظالم العباد . ومظالمهم إما في النفوس ، أو الأموال ، أو الأعراض ، أو إيذاء القلوب .

أما الأول : فإنه إذا قتل خطأً أو أوصل الدية إلى مستحقها ، إما منه أو من عاقلته ، وإن قتل عمداً ، وجب عليه القصاص بشروطه ، فعليه أن يذلل نفسه لولى الدم ، إن شاء قتله ، وإن شاء عفا عنه ، ولا يجوز له إخفاء أمره ، بخلاف ما لو زنا ، أو سرق ، أو شرب الخمر ، أو باشر ما يجب فيه حد لله — تعالى — ، فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ، بل عليه أن يستر نفسه ، فإن رفع أمره إلى الولي حتى أقام عليه الحد ، وقع ذلك موقعه وكانت توبته صحيحة مقبولة عند الله — تعالى — ، بدليل قصة معاذ والغامدية . وكذلك حد القذف ، لا بد فيه من تحكيم المستحق فيه .

الثاني : المظالم المتعلقة بالأموال ، نحو الغصب ، والخيانة ، والتلبيس في المعاملات ، فيجب عليه رد ذلك إلى أصحابه والخروج منه . وليكتب إلى أصحاب المظالم ، وليؤد إليهم حقوقهم ، ويستحلهم ، فإن كثر ظلمه بحيث لا يقدر على أدائه ، فليفعل ما يقدر عليه من ذلك ، ولم يبق له طريق إلا الاستكثار من الحسنات ، لتؤخذ منه في القصاص يوم القيامة فتوضع في موازين أرباب المظالم ، فإنها إن لم تف بذلك أخذ من سيئاتهم ، فتوضع فوق سيئاته . هذا حكم المظالم الثابتة في الذمة والأموال الحاضرة ، فإن كان عنده مال من شيء من ذلك لم يعرف مالكة ولا ورثته ، تصدق به عنه ، وإن اختلط الحلال بالحرام ، عرف قدر الحرام بالاجتهاد ، وتصدق بمقداره .

الثالث : الجناية على الأعراض ، وإيذاء القلوب ، فعليه أن يطلب كل واحد منهم ، وليستحله ، وليعرفه قدر الجناية ، فإن الاستحلال المبيح لا يكفي ، وربما لو عرف ذلك لم تطب نفسه بالإحلال ، إلا أن تكون تلك الجناية إذا ذكرت كثر الأذى ، كنسبته إلى عيب من خفايا عيوبه ، أو كزنى بجاريته ، فليجتهد في اللطف به والإحسان إليه ، ثم ليستحله مبهماً ، ولا بد أن يبقى في مثل ذلك مظلمة تجبر بالحسنات يوم القيامة ، وكذلك من مات من هؤلاء فإنه يفوت أمره ، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات ، لتؤخذ منه عوضاً يوم القيامة ، ولا خلاص إلا برجحان الحسنات .

● فصل في شروط التوبة

ومن شروط التوبة الصحيحة العزم على أن لا يعود في المستقبل إلى تلك الذنوب ، ولا إلى أمثالها ، ويعزم على ذلك عزمًا مؤكدًا . مثال ذلك المريض الذي يعلم أن الفاكهة تضر في مرضه ، فيعزم عزمًا جازمًا أن لا يتناول شيئاً من الفاكهة مادام في مرضه ذلك ، فإن هذا العزم يتأكد في الحال ، وإن كان يتصور أن تغلب الشهوة في ثاني الحال ، ولكن لا يكون تأثباً ما لم يتأكد عزمه في الحال ، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول أمره

إلا بالعزلة ، والصمت ، وقلة الأكل والنوم ، وإحراز قوتٍ حلالٍ ، ويترك الشهوات والشهوات من المأكولات والملبوسات . قال بعضهم : من صدق في ترك الشهوة ، وجاهد نفسه فيها سبع مرات ، لم يتل بها ، وقال : من تاب من ذنب واستقام سبع سنين ، لم يعد إليه أبداً .

● بيان أقسام العباد في دوام التوبة

الناس في التوبة أربع طبقات :

* **الطبقة الأولى :** تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره ، ويتدارك ما فرط من أمره ، ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه ، إلا الزلات التي لا ينفك عنها البشر في العادات ، فهذه هي الاستقامة في التوبة . وصاحبها هو السابق بالخيرات . وتسمى هذه التوبة : النصوح ، وتسمى هذه النفس : المطمئنة ! وهؤلاء يختلفون ، منهم من سكنت شهوته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ، ومنهم من تنازعه نفسه وهو ملء بمجاهدتها .

* **الطبقة الثانية :** تائب قد سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وكبائر الفواحش ، إلا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه ، لا عن عمد ، ولكنه يتلى بها في مجارى أحواله من غير أن يقدم عزمًا على الإقدام عليها ، وكلما أتى شيئاً منها لام نفسه ، وندم وعزم على الاحتراز من أسبابها ، فهذه هي النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة ، فهذه رتبة عالية أيضاً ، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى ، وهي أغلب أحوال التائبين ، لأن الشر معجون بطينة الآدمي ، فقلما ينفك عنه ، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره ، حتى يثقل ميزانه ، فترجع حسناته ، فأما أن تخلو كفة السيئات ، فبعيد . وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله — سبحانه — ، إذ قال : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَبُونَ كَبَائِرَ الْإِنَّمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾^(١) . وإلى هذه الرتبة الإشارة بقوله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « إن الله يحب المؤمن المُفْتَنَّ التَّوَّابَ »^(٢)

* **الطبقة الثالثة :** أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب ، فيقدم عليها لعجزه عن قهر الشهوة ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وترك جملة من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها ، وإنما قهرته شهوة واحدة أو شهوتان ، وهو يود لو أقدره الله على قمعها ، وكفاه شرها ، فإذا انتهت ندم ، لكنه يعد نفسه بالتوبة عن ذلك الذنب ، فهذه النفس تسمى المستولة ، وصاحبها من الذين قال الله — تعالى — فيهم : ﴿ وَآخَرُونَ اغْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾^(٣) فأمر هذا من حيث مواظبته على الطاعات وكراميته لما يتعاطاه مرجو لقوله — تعالى — : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾^(٤) . وعاقبته مخطرة من حيث تأخيرها وتسويغها ، فربما يختطف قبل التوبة ، فإن

(١) النجم : ٣٢ . (٢) رواه الإمام أحمد في مسنده [٨٠/١ ، ١٠٣] (٣) ، (٤) النوبة : ١٠٢ .

الأعمال بالخشواتيم ، فعلى هذا يكون الخوف من الخاتمة ، وكل نفس يمكن أن يتصل به الموت ، فتكون الخاتمة ، فليراقب الأنفاس ، وليحذر وقوع المحذور .

• **الطبقة الرابعة :** أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى الذنوب منهمكاً من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف على فعله ، فهذا من المصيرين ، وهذه النفس هى الأماراة بالسوء ، ويخاف على هذا سوء الخاتمة . فإن مات هذا على التوحيد ، فإنه يرجى له الخلاص من النار ، ولو بعد حين ، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا يطلع عليه ، إلا أن التعويل على هذا لا يصلح ، فإن من قال : إن الله — تعالى كريم — ، وخزائنه واسعة ، ومعصيتى لا تضره ، ثم تراه يركب البحار فى طلب الدينار . فلو قيل له : فإذا كان الحق كريماً ، فاجلس فى بيتك لعله يرزقك ، استجهل قائل هذا وقال : إنما الأرزاق بالكسب ، فيقال له : هكذا النجاة بالتقوى .

● فصل فيما ينبغي للتائب فعله

وقد ذكرنا أن التائب ينبغي له أن يأتى بحسنات تضاد ما عمل من السيئات ، لتمحوها وتكفرها ، والحسنات المكفرة تكون بالقلب واللسان والجوارح على حسب السيئات ، فما كان بالقلب ، فنحو التضرع والتذلل ، وأما اللسان ، الاعتراف بالظلم والاستغفار ، مثل أن يقول : رب ظلمت نفسى فاغفر لى . روى فى الحديث ، أن النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « ما من رجل يذنب ذنباً ، فيتوضأ ويحسن الوضوء ، ثم يصلى ركعتين ، ويستغفر الله — عز وجل — ، إلا غفر له »^(١) . وأما الجوارح فبالطاعات ، والصدقات ، وأنواع العبادات .

● فصل فى دواء التوبة وطريق علاج حل عقد الإصرار

اعلم : أنه لا يقف على الدواء من لا يقف على الداء ، إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء ، ولا يطل الشئ إلا بضده ، وسبب الإصرار الغفلة والشهوة ، ولا تضاد الغفلة إلا بالعلم ، ولا تضاد الشهوة إلا بالصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة . والغفلة رأس الخطايا ، فلا دواء إذاً للتوبة إلا بمعجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر ، كما يجمع فى السكنجيين حلاوة السكر وحموضة الخل ، فيحصل بمجموعهما قمع الصفراء .

ما سبب أن أمراض القلوب أكثر من أمراض الأبدان ؟

والأطباء لهذا المرض هم العلماء ، لأنه مرض القلوب ومرض القلوب أكثر من مرض الأبدان ، وإنما صار مرضها أكثر لأمر : أحدها : أن المريض لا يدرك أنه مريض . الثانى :

(١) رواه أبو داود فى سننه كتاب الصلاة ، باب الاستغفار ، برقم [١٥٢١] ، عن أبى بكر مرفوعاً .

أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم ، بخلاف مرض الأبدان ، فإن عاقبته موت مشاهد ينفر الطبع عنه ، وما بعد الموت غير مشاهد ، فقلَّتْ النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها ، فلذلك تراه يتكل على فضل الله في مرض القلب ، ويجتهد في علاج البدن من غير اتكال .

الأمر الثالث : وهو الداء العضال حيث فقد الطبيب ، فإن الأطباء هم العلماء ، وقد مرضوا في هذه الأعصار ، لأن الداء المهلك هو حب الدنيا ، وقد غلب هذا الداء على الأطباء ، فلم يقدروا على تحذير الخلق استنكافاً من أن يقال لهم : فما لكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم ؟ فهذا السبب عم الداء وانقطع الدواء . فإن قيل : فما الذي ينبغي للواعظ سلوكه من الخلق ؟ فالجواب : أن ذلك يطول ، لكننا نشير إلى الأعمال النافعة في ذلك ، وهي أربعة أنواع :

الأول : أن يُذكر ما في القرآن العزيز من الآيات المخوفة للمذنبين ، وما ورد في الأخبار والآثار من ذلك ، ويمرّج ذلك بمدح الثائنين .

النوع الثاني : حكايات الأنبياء — عليهم السلام — ، والسلف الصالح ، وما أصابهم من المصائب بسبب الذنوب ، كحال آدم — عليه السلام — وما لقي في عصيانه من الإخراج من الجنة ، وما جرى لداود وسليمان ويوسف — عليهم السلام — ، ولم يورد القرآن هذه الأشياء إلا للاعتبار . وكان من سعادتهم معالجتهم بذلك ، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً ، ولأن عذاب الآخرة أشد ، فينبغي أن يكثر من هذا على أسماع المصرين ، فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة .

النوع الثالث : أن يقرر عندهم ، أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع ، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب ، فهو سبب جنائياته ، فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة يخاف عقوبة الدنيا أكثر لفرط جهله . والذنوب قد يتعجل في الدنيا شؤمها ، كما قال النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — : « إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه »^(١) . وقال الفضيل بن عياض : إني لأعصي الله ، فأعرف ذلك في خلق حمارى وخادمى . وقال أبو سليمان الداراني : الاحتلام عقوبة ، ولا يفوت أحداً صلاة إلا بذنب يذنبه . وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « إن المؤمن إذا أذنب كان نكبة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر ، سكّبل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكر الله — عز وجل — في كتابه : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾

(١) رواه ابن حبان في صحيحه [١٠٩٠] ، والإمام أحمد في مسنده [٢٨٠/٥ ، ٢٨٢] واللفظ له ، ورواه الحاكم في المستدرک [٤٩٣/١] ولفظ الحاكم . لا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه ، قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢٠﴾ . قال الترمذى : حديث حسن صحيح^(١) . وقال الحسن - رحمه الله - : الحسنه نور فى القلب ، وقوة فى البدن ، والسيئة ظلمة فى القلب ، ووهن فى البدن .
النوع الرابع : ذكر ما ورد من العقوبات فى احاد الذنوب ، كشرب الخمر ، والزنى ، والقتل ، والكبر ، والحسد ، والغيبة . وينبغى أن يكون طبيباً يعلم الداء ، ويدرى كيف يصنع الدواء ، فإن رجلاً سأل النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال : أوصنى ، قال : « لا تغضب »^(٢) . وقال آخر : أوصنى ، فقال : « عليك باليأس مما فى أيدي الناس »^(٣) . فكانه تحايل فى الأول تحايل الغضب ، وفى الثانى تحايل الطمع .

وهذا الذى ذكرنا هو علاج الغفلة ، فيبقى علاج الشهوة ، وطريق علاجها يؤخذ مما ذكرنا فى كتاب « رياضة النفس » ولا بد من الصبر ، فإن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره ، وإنما يحمله على ذلك شدة شهوته ، أو غفلته عن مضرته ، فلا بد من مرارة الصبر ، وكذلك يعالج الشهوة فى المعاصى ، كالشباب مثلاً إذا غلبته الشهوة ، فصار لا يقدر على حفظ عينه وقلبه وجوارحه فى السعى وراء الشهوة ، فينبغى أن يستحضر المخوفات التى جاءت فى كتاب الله - تعالى - ، وسنة رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فإذا اشتد خوفه تباعد عن الأسباب المهيجة للشهوة . والذى يهيج الشهوة من خارج ، هو حضور المشتبه ، والنظر إليه ، وعلاجه : الجوع والصوم الدائم ، وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ، ولا يصبر إلا عن خوف ، ولا يخاف إلا عن علم ، ولا يعلم إلا عن بصيرة ، فأول الأمر حضور مجالس الذكر ، والاستماع بقلب مجرد عن الشواغل ، ثم التفكير فيما قيل ، فينبعث الخوف ، ويسهل الصبر ، وتيسر الدواعى لطلب العلاج ، وتوفيق الحق - سبحانه - من وراء ذلك كله . فإن قيل : ما بال الإنسان يقع فى الذنب مع علمه بقبح عواقبه ؟ فعن ذلك أجوبة . منها : أن العقاب الموعود ليس بمحاضر .

ومنها : أن المؤمن إذا أذنب لا بد أن يعزم على التوبة ، وقد وعد أن التوبة تجبر ما فعل ، وطول الأمل غالب على الطباع ، فلا يزال يسوف بالتوبة ، فلما رجا التوبة أقبل على الذنب . ومنها : أنه يرجو عفو الله عنه ، وعلاج هذه الأسباب أن يفكر فى نفسه أن كل ما هو آت قريب ، وأنه لا يأمن هجوم الموت ، ويعالج التسويف بالفكر فى أن أكثر صياح أهل النار من التسويف ، والمسوف يبنى الأمر على ما ليس إليه ، وهو البقاء ، فلعله لا يبقى ، وإن

(*) المطفلين : ١٤ (١) رواه الترمذى فى « التفسير » - سورة المطفلين - وقال : حديث حسن صحيح عن أبى هريرة انظر المسند [٢٩٧/٢] .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه كتاب « الأدب » ، باب الحذر من الغضب رقم [٦١١٦] عن أبى هريرة ، والإمام أحمد فى مسنده [١٧٥/٢ ، ٣٦٢ ، ٤٦٦] - [٤٨٤/٣] ، [٣٤/٥ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢] . [٣٧٣] .

(٣) رواه ابن ماجه فى « الزهد » ، باب « الحكمة » رقم [٤١٧١] - وهو جزء من حديث - عن أبى أيوب الأنصارى .

بقى فربما لم يقدر على الترك غداً كما يقدر عليه اليوم ، وهل عجز عن الحال إلا لغلبة الشهوة وهي غير مفارقة له غداً ؟ بل يتأكد بالاعتیاد ، ومن هذا هلاك المسوفون ، لأنهم يظنون الفرق بين المتأملين ، وما مثال المسوف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة ، فأها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة ، فقال : أؤخرها سنة ثم أعود إليها ، وهو لا يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها ، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه ، فالعجب من عجزه مع قوته عن مقاومتها في حال ضعفها ، كيف ينتظر الغلبة إذا ضعف وقويت ، وأما انتظار عفو الله — تعالى — ، فعفو الله — سبحانه — ممكن ، إلا أن الإنسان ينبغي له الأخذ بالخزم ، وما مثال ذلك إلا كمثّل رجل أنفق أمواله كلها ، وترك نفسه وعياله فقراء ينتظر من الله — تعالى — أن يرزقه العثور على كنز في حربة ، وهذا ممكن إلا أن صاحبه ملقب بالأحمق ، والله — سبحانه وتعالى — أعلم .

● كتاب الصبر والشكر

وهو شطران : الأول : فضل الصبر وحقيقته وأقسامه ونحو ذلك . وقد ذكر الله — تعالى — الصبر في القرآن في نحو من تسعين موضعاً ، وأضاف إليه أكثر الخيرات والدرجات وجعلها ثمرة له ، فقال — تعالى — : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾^(١) . وقال : ﴿ وَتَمَثَّلَ لَكُمْ رُبُّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾^(٢) . وقال : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٣) . وقال — تعالى — : ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(٤) . فما من قرينة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ، ولأجل كون الصوم من الصبر قال الله — تعالى — : « الصوم لي وأنا أجزي به »^(٥) . وقد وعد الله الصابرين بأنه معهم ، وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾^(٦) . والآيات في هذا كثيرة .

وأما الأحاديث ، ففي « الصحيحين » من حديث أبي سعيد — رضي الله عنه — ، عن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — أنه قال : « ما أعطى أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر »^(٧) وفي حديث آخر : « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد »^(٨) . وقال

(١) السجدة : ٢٤ . (٢) الأعراف : ١٣٧ . (٣) النحل : ٩٦ . (٤) الزمر : ١٠ .

(٥) حديث فليسي : رواه البخاري في « الصيام » ، باب « فضل الصيام » ، رقم [١٨٩٤] ، ومسلم في « الصيام » ، رقم [١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٤] ، والإمام أحمد في المسند [٤٤٦/١ — ٢٣٢/٢ — ٥/٣ ، ٤٠ ، ٣٤١] . (٦) البقرة : ١٥٧ .

(٧) رواه البخاري في صحيحه كتاب « الرقاق » ، باب « الصبر عن محارم الله » ، رقم [٦٤٧٠] ، رواه مسلم في « الزكاة » ، رقم [١٨] ، المسند [١٢/٣ ، ٤٧] .

(٨) الخبر في إحياء علوم الدين [٦١/٤] موقوفاً عن علي بن أبي طالب ، ووجدته موقوفاً في مسند الفردوس =

الحسن : الصبر كنز من كنوز الخير ، لا يعطيه الله — عز وجل — إلا لعبد كريم عنده ، وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة فيطالعها ، وفيها ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (١) .

واعلم : أن الصبر من خاصية الإنسان ، ولا يتصور في البهائم لنقصانها ، وغلبة الشهوات عليها من غير شيء يقابلها ، ولا يتصور الصبر أيضاً في الملائكة لكمالها ، فإن الملائكة جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية ، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصددها عن حضرة الجلال . وأما الإنسان فإنه يخلق في ابتداء الصبا ناقصاً مثل البهيمة ، لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ، ثم شهوة النكاح ، وليس له قوة الصبر ، فإذا تحرك العقل وقوى ، ظهرت مبادئ إشراق نور الهداية عند سن التمييز ، وينمو على التدرج إلى سن البلوغ ، كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس ، ولكنها هداية قاصرة لا مرشد لها إلى مصالح الآخرة ، فإذا عقد بمعرفة الشرع تلمح ما يتعلق بالآخرة وكثر سلاحه ، إلا أن الطبع يقتضى ما يحب ، وباعث الشرع والعقل يمنع ، والحرب بينهما قائمة ، ومعركة هذا القتال قلب العبد ، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوات ، فإن ثبت حتى قهر الشهوة التحق بالصابرين ، وإن ضعف حتى غلبت الشهوة ولم يصبر على دفعها ، التحق بأتباع الشياطين ، وإذا ثبت أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة الهوى ، فهذه المقاومة من خاصة الآدميين .

● فصل في أقسام الصبر

اعلم أن الصبر على ضربين :

• أحدهما : بدني ، كتحمل المشاق بالبدن ، وكتعاطي الأعمال الشاقة من العبادات أو من غيرها .

• الضرب الآخر : هو الصبر النفساني عن مشتبهات الطبع ومقتضيات الهوى ، وهذا الضرب إن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج ، سمى عفة ، وإن كان الصبر في قتال ، سمى شجاعة ، وإن كان في كظم غيظ ، سمى حلماء ، وإن كان في نائية مضجرة ، سمى سعة صدر ، وإن كان في إخفاء أمر ، سمى كتمان سر ، وإن كان في فضول عيش ، سمى زهداً ، وإن كان صبراً على قدر يسير من الحفظ ، سمى قناعة . وأما المصيبة ، فإنه يقتصر فيها على اسم الصبر ، فقد بان بما ذكرنا أن أكثر أخلاق الإيمان داخلة في الصبر ، وإن اختلفت الأسماء باختلاف المتعلقات . ثم اعلم أن العبد لا يستغنى عن الصبر في كل حال من الأحوال ، وذلك أن جميع ما يلقي العبد في الدنيا لا يخلو من نوعين :

للدبلي رقم [٣٨٤٠] [٤١٤/٢] ، لهي القدير [٥١٣٦] وهو حديث ضعيف .

(١) الطور : ٤٨ .

النوع الأول : ما يوافق هواه من الصحة ، والسلامة والمال ، والجاه ، وكثرة العشرة ، والأتباع ، وجميع ملاذ الدنيا ، فالعبد محتاج إلى الصبر في جميع هذه الأمور ، فلا يركن إليها ، ولا ينهمك في التلذذ بها ، ويراعى حق الله — تعالى — في ماله بالإففاق ، وفي بدنه بالمعونة للحق . ومتى لم يضبط نفسه عن الانهماك في الملاذ والركون إليها ، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان ، حتى قال بعض العارفين : المؤمن يصبر على البلاء ، ولا يصبر على العافية إلا صديق . وقال عبد الرحمن بن عوف — رضى الله عنه — : ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر .

ولذلك قال الله — تعالى — : ﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ^(١) .
وقال — تعالى — : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ^(٢) . ﴿ إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَذْوًا لَكُمْ فَآخِذُوا بِهِمْ ﴾ ^(٣)

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ، وهذا الصبر متصل بالشكر ، فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر ، وإنما كان الصبر على السراء شديداً ، لأنه مقرون بالقدره ، والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه عند حضور الطعام اللذيذ .

النوع الثاني : المخالف للهوى وهو ثلاثة أقسام : أحدها : الطاعات ، فيحتاج العبد إلى الصبر عليها ، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية . ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ، ومنها ما يكره بسبب البخل ، كالزكاة ، ومنها ما يكره بسببها جميعاً ، كالحج والجهاد . ويحتاج المريد إلى الصبر على طاعته في ثلاثة أحوال :
(أ) حال قبل العباداة ، وهى تصحيح النية ، والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء .
(ب) وحال في نفس العباداة ، وهى أن لا يغفل عن الله — تعالى — في أثناء العباداة ، ولا يتكاسل عن تحقيق الآداب والسنن ، فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ من العمل .

(ج) الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل : وهى الصبر عن إفشائه ، والتظاهر به لأجل الرياء والسمعة ، وعن كل ما يطل عمله ، فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى أبطلها .

القسم الثاني : الصبر عن المعاصى ، وما أحوج العبد إلى ذلك . ثم إن كان الفعل مما تيسر فعله ، كمعاصى اللسان من الغيبة ، والكذب والمراء ونحوه ، كان الصبر عليه أثقل . فترى الإنسان إذا لبس حريراً ، استنكر ذلك ، ويغتاب أكثر نهاره ، فلا يستنكر ذلك ، ومن لم يملك لسانه في المحاورات ، ولم يقدر على الصبر ، لم ينجه إلا العزلة .

القسم الثالث : مالا يدخل تحت الاختبار ، كالمصائب ، مثل موت الأحبة ، وهلاك

الأموال ، وعمى العين ، وزوال الصحة ، وسائر أنواع البلاء ، فالصبر على ذلك من أعلى المقامات ، لأن سنده اليقين . وقد قال — صلى الله عليه وآله وسلم — : « من يرد الله به خيراً يصب منه »^(١) . وقريب من هذا القسم ، الصبر على أذى الناس ، كالذى يؤذى بقول أو فعل أو جناية على نفسه ، أو ماله ، والصبر على ذلك يكون بترك المكافآت . والصبر على أذى الناس من أعلى المراتب ، قال الله — تعالى — : ﴿ وَإِنْ تُصَبِّرُوا وَتَثْقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾^(٢) . وقال : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾^(٣) . وقال : ﴿ وَلَكِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾^(٤) . وقد روى عن النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — أنه قال : « الصبر ثلاثة : صبر على المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية ، فمن صبر على المصيبة حتى يردّها بحسن عزائها ، كتب الله له ثلاثمائة درجة ، ما بين الدرجة إلى الأخرى كما بين السماء والأرض ، ومن صبر على الطاعة كتبت له ستائة درجة ، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش ، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش مرتين »^(٥) .

والأحاديث فى فضائل الصبر كثيرة، منها : ما أخرجاه فى « الصحيحين » عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله — عز وجل — بها عنه ، حتى الشوكة يشاكها »^(٦) . وفى حديث آخر : « ما يصيب المسلم من نصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله بها من خطاياها » . أخرجاه فى « الصحيحين »^(٧) . وفى حديث آخر : « لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة ، فى جسده وفى ماله وفى ولده ، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة »^(٨)

(١) رواه البخارى فى كتاب « المرض » ، باب « ما جاء فى كفارة المرض » ، رقم ٥٦٤٥ ، الإمام أحمد فى المسند [٢٣٧/٢] . (٢) آل عمران : ١٨٦ . (٣) الحجر : ٩٧ . (٤) النحل : ١٢٦ . (٥) فى جمع الجوامع [٤٢٣/١ ، ٤٢٤] عزاه السيوطى لأبى الشيخ والدبلى عن على . قلت : والحديث عند الدبلى فى مسند الفردوس برقم [٣٨٤٦] [٤١٦/٢] ورزى له المناوى بالضعف فى فيض القدير [٥١٣٧] ، وله رواية عند ابن أبى الدنيا فى كتاب الصبر وابن حبان فى الثواب عن على وهو موضوع [اللآلئ المصنوعة ٢/٢٠١] ، الدر المنثور [٦٦/١] .

(٦) رواه البخارى فى صحيحه كتاب « المرض » ، باب « ما جاء فى كفارة المرض » ، رقم [٥٦٤٥] ، مسلم فى « البر والصلة » ، رقم [٤٩] .

(٧) البخارى [٥٦٤١ ، ٥٦٤٢] ، مسلم فى « البر والصلة » ، رقم [٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨] .

(٨) رواه الإمام أحمد فى مسنده [٢٨٧/٢ ، ٤٥٠] ، والحاكم فى المستدرک [٣٤٦/١] وقال : حديث صحيح =

وفي حديث سعد بن أبي وقاص — رضى الله عنه — قال : قلت : يا رسول الله ، أى الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل من الناس ، يُبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة خفف عنه ، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة » قال الترمذى : حديث حسن صحيح^(١) .

وروينا عن النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — أنه قال : قال الله — تعالى — : « إذا وجهت إلى عبد من عبادى مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ، ثم استقبل ذلك بصبر جميل ، استحيت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً ، أو أنشر له ديواناً »^(٢) .

● فصل فى آداب الصبر

ومن آداب الصبر استعماله فى أول صدمة ، لقوله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى »^(٣) حديث صحيح . ومن الآداب الاسترجاع عند المصيبة ، لحديث أم سلمة — رضى الله عنها — وهو من رواية مسلم . ومن الآداب سكون الجوارح واللسان ، فأما البكاء فجائز . قال بعض الحكماء : الجزع لا يرد الفاتئ ، ولكن يسر الشامت . ومن حسن الصبر أن لا يظهر أثر المصيبة على المصاب ، كما فعلت أم سليم امرأة أبى طلحة لما مات ابنها ، وحديثها مشهور فى « صحيح مسلم »^(٤) .

وقال ثابت البنانى : مات عبد الله بن مطرف ، فخرج مطرف على قومه فى ثياب حسنة وقد ادهن ، فغضبوا ، وقالوا : يموت عبد الله ، ثم تخرج فى ثياب من هذه مدھناً ؟ قال : أفأستكين لها ، وعدنى ربي — تبارك وتعالى — ثلاث خصال ، كل خصلة منها أحب إلئى من الدنيا وما فيها . قال الله — تعالى — : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ . أولئك علىهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴿٥﴾ .

= على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(١) رواه الترمذى فى صحيحه كتاب [الزهد] باب « ما جاء فى الصبر على البلاء » ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) فى كنز العمال [٦٥٦١] عزاه للحكيم الترمذى عن أنس .

(٣) رواه البخارى فى كتاب [الجنائز] ، باب الصبر عند المصيبة الأولى رقم [١٣٠٢] ، ومسلم فى [الجنائز] ، رقم [١٤ ، ١٥] ، وأحمد فى المسند [١٣٠/٣ ، ١٤٣ ، ٢١٧] .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الجنائز باب من لم يظهر حزنه عند المصيبة رقم ١٣٠١ عن أنس .

(٥) البقرة : ١٥٦ — ١٥٧ .

وقال مطرف : ما شيء أعطى به في الآخرة قدر كوز من ماء ، إلا وددت أنه أخذ مني في الدنيا . وكان صلة بن أشيم في مغزى له ومعه ابنه ، فقال : أى بنى ! تقدم فقاتل حتى أحتسبك ، فحمل فقاتل حتى قتل ، ثم تقدم فقتل ، فاجتمع النساء عند أمه معاذة العدوية ، فقالت : مرحباً إن كنتن جثتن تهنتنى ، وإن كنتن جثتن لغير ذلك فارجعن . وإذا كانت المصيبة مما يمكن كتمانها ، فكتمانها من نعم الله — عز وجل — الخفية . وروى أبو هريرة — رضى الله عنه — عن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — أنه قال : « إذا مرض العبد بعث الله إليه ملكين ، فيقول : انظروا ما يقوله لعوداه ، فإن هو حمد الله — تعالى — إذا دخلوا عليه ، رفعوا ذلك إلى الله — تعالى — وهو أعلم . فيقول : لعبدي إن أنا توفيته أن أدخله الجنة ، وإن أنا شفيته أن أبدله لحماً خيراً من لحمه ، ودماً خيراً من دمه ، وأن أكفر عنه خطاياها » (١) .

وقال على — رضى الله عنه — : من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ، ولا تذكر مصيبتك . وقال الأحنف : لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة ، ما ذكرت لأحد . وقال رجل للإمام أحمد : كيف تجددك يا أبا عبدالله ؟ قال : بخير في عافية . فقال له : حممت البارحة ؟ قال : إذا قلت لك : أنا في عافية فحسبك ، لا تخرجني إلى ما أكره . وقال شقيق البلخي : من شكوا مصيبة به إلى غير الله ، لم يجد في قلبه لطاعة الله حلالة أبداً . وقال بعض الحكماء : من كنوز البر كتمان المصائب ، وقد كانوا يفرحون بالمصائب نظراً إلى ثوابها ، وحكاياتهم مشهورة في ذلك . منها : ما روى أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي — رضى الله عنه — لما مات دفنه عمر ، وسوى عليه ثم استوى قائماً ، فأحاط به الناس ، فقال : رحمك الله يا بنى ! قد كنت براً بأبيك ، والله ما زلت منذ وهبك الله لى مسروراً بك ، ولا والله ما كنت قط أشد بك سروراً ، ولا أرجى بحظي من الله — تعالى — فيك منذ وضعتك في هذا المنزل الذى صيرك الله إليه .

فإن قيل : إن كان المراد من الصبر عدم كراهية المصائب ، فلا قدرة للآدمي على ذلك ، وإن كان الفرح بوجودها كما حكيم ، فهو أبعد . والجواب أن الصبر لا يكون إلا عن محبوب أو على مكروه ، ولا ينهى عما لا يدخل تحت الكسب ، وهو انزعاج الباطن ، وإنما ينهى عن المكسب ، كشق الجيوب ، ولطم الخدود ، والقول باللسان ، فأما ما ذكرنا من فرح بعضهم ، فذلك فرح شرعى لا طبعي ، إذ الطبع لا بد له من كراهية المصائب . ومثال هذا مثال رجل مريض له شربة لمرضه ، فسمى في طلب حوائجها ، وأنفق عليها

(١) رواه مالك في الموطأ [٤٩٠/٢] باب ما جاء في أجر المريض رقم [٥] عن عطاء بن يسار مرسلاً ووصله ابن عبد البر من طريق عباد بن كثير المكي كتاب العين ، ولـ كنز العمال [٦٧٠٤] عزاه للدارقطني في الغرائب ، وابن صخر في عوالي مالك عن أبي هريرة .

مالاً ، فلما تمت ، فرح بتمامها وتناولها لما يرجو لها من العافية ، فأما طبعه ، فما زالت عنه كراهة تناول أصلاً . ولو أن ملكاً قال لرجل فقير : كلما ضربتك بهذا العود اللطيف ضربة أعطيتك ألف دينار ، لأحب كثرة الضرب ، لا لأنه لا يؤلم ، ولكن لما يرجو من عاقبته ، وإن أنكاه الضرب ، فكذلك السلف تلمحوا الثواب ، فهان عليهم البلاء .

● فصل فى بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلم : أن الذى أنزل الداء أنزل الدواء ووعد بالشفاء ، فالصبر وإن كان شاقاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل ؛ فمنهما تركيب الأدوية لأمراض القلوب كلها ، فيحتاج كل مرض إلى علم وعمل يليق به ، فإن العلل إذا اختلفت اختلف العلاج ، إذ معنى العلاج : مضادة العلة . ونضرب لك مثلاً ، فنقول : إذا افتقر الإنسان إلى الصبر عن شهوة الجماع ، وقد غلبت عليه بحيث لا يملك فرجه ولا عينه ولا قلبه ، فعلاج ذلك بثلاثة أشياء : أحدها : مواظبة الصوم ، والاقتصار عند الإفطار على قليل من الطعام .

الثانى : قطع أسبابه المهيجة ، فإنه إنما يهيج بالنظر ، والنظر بالقلب ، والقلب يحرك الشهوة ، ودواء هذا العزلة ، والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتبهة ، فإن النظر سهم مسموم من سهام إبليس ، ولا يمنع عنه إلا غمض الجفن أو الهرب . **الثالث :** تسلية النفس بالمباح من جنس المشتبه ، وذلك بالنكاح ، وكل ما يشبهه الطبع من الحرام ، ففي المباحات غنية عنه ، وهذا هو العلاج الأرفع فى حق أكثر الناس ، لأن قطع الغذاء يضعف ، ولا يقيم الشهوة بخلاف هذا . وينبغى للإنسان أن يعود نفسه انجاهدة ، فإن من عوّد نفسه مخالفة الهوى ، غلبها متى أراد .

© أشد أنواع الصبر :

واعلم : أن أشد أنواع الصبر وانجاهدة ، كف الباطن من حديث النفس ، وإنما يشتد ذلك على من تفرغ واعتزل ، فإن الوسوس لا تزال تجاذبه ، ولا علاج لهذا إلا قطع العلائق ، وجعل الهم هماً واحداً ، وصرف الفكر إلى ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله — تعالى — ، وجميع أبواب معرفة الله — تعالى — ، حتى إذا استولى ذلك على قلبه ، دفع اشتغاله بمجاذبة الشيطان ووسواسه ، وإن لم يكن له سير الباطن فلا ينجيهِ إلا الأوراد المتواصلة ، من القراءة ، والأذكار ، والصلوات ، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور ، فإن الفكر الباطن هو الذى يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة ، فهذا الذى يمكن أن ينال بالاكْتِسَاب والجهد .

فأما مقادير ما ينكشف ، ومبالغ ما يرد من لطف الله — تعالى — من الأحوال والأعمال ، فذلك يجرى مجرى الصيد ، وهو بحسب الرزق ، فقد يقل الجهد ، ويكثر الصيد ، وقد يطول

الجهد ويقل الصيد ، والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن — عز وجل — ، فإنها توازي أعمال الثقلين ، وليس ذلك إلى اختيار العبد ، بل اختياره أن يتعرض لتلك الجذبة ، بأن يقلع عن قلبه جواذب الدنيا ، فإن المجذوب إلى أسفل سافلين ، لا يجذب إلى أعلى علين ، وكل منهوم بالدنيا هو منجذب إليها ، فقطع العلائق الجاذبة ، هو المراد بقوله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « إن لربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فعرضوا لها »^(١) . فالذى علينا تفريغ المحل ، والانتظار لنزول الرحمة ، كالذى يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ، ويضع فيها البذر ، وكل ذلك لا ينفع إلا بمطر ، ولا يدرى متى يقدر الله أسباب المطر ، إلا أنه يثق بفضل الله — تعالى — أنه لا يخلى سنة عن مطر ، وكذلك قلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات .

فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب من حشيش الشهوات ، وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص ، وعرضه لمهاب ربح الرحمة ، وكما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع عند ظهور الغيم ، وكذلك انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة ، وعند اجتماع الهم ونشاط القلوب ، كيوم عرفة ، ويوم الجمعة ، وفي رمضان . والهمم والأنفاس أسباب لاستدرا — رحمة الله تعالى — بحكمته وتقديره .

الشرط الثاني من الكتاب :

● في الشكر وفضله ونكر النعم وأقسامها ونحو ذلك

قال الله — تعالى — : ﴿ وَسَجِّزِ الشَّاكِرِينَ ﴾^(٢) . وقال الله — تعالى — : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَائِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ﴾^(٣) . وقال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾^(٤) . وقطع بالمزيد مع الشكر فقال : ﴿ لئن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾^(٥) . مع كونه وقف أشياء كثيرة غيره على المشيئة كقوله : ﴿ فَسَوْفَ يُعْطِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ﴾^(٦) . وقوله : ﴿ فَيَكْشِفْ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ﴾^(٧) . وقوله : ﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ﴾^(٨) . ﴿ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾^(٩) ، ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾^(١٠) .

ولما عرف إبليس قدر الشكر قال في الطعن على بنى آدم : ﴿ وَلَا تَجِدْ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾^(١١) . وروى أن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — قام حتى تفتطرت قدماه ،

(١) ذكره السوطي في جامعه الكبير [٢٥٥/١] وعزاه للطبراني في الكبير وابن الجار ، عن محمد بن مسلمة وله من لا يعرف حاله ، انظر مجمع الزوائد [٢٣١/١٠] . (٢) آل عمران : ١٤٥ .

(٣) النساء : ١٤٧ . (٤) سبأ : ١٣ . (٥) إبراهيم : ٧ . (٦) التوبة : ٢٨ . (٧) الأنعام : ٤١ .

(٨) البقرة : ٢١٢ ، آل عمران : ٣٧ ، النور : ٣٨ ، الشورى : ١٩ .

(٩) النساء : ٤٨ . (١٠) التوبة : ١٥ . (١١) الأعراف : ١٧ .

فقلت له عائشة — رضى الله عنها —: أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبد شكورا»^(١). وعن معاذ — رضى الله عنه — قال: قال لى رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم —: «إلى أحبك فقل: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»^(٢).

● فصل فى كون الشكر بالقلب واللسان والجوارح

والشكر يكون بالقلب، واللسان، والجوارح. أما بالقلب، فهو أن يقصد الخير، ويضمره للخلق كافة. وأما باللسان، فهو إظهار الشكر لله بالتحميد. وأما بالجوارح، فهو استعمال نعم الله فى طاعته، والتوقى من الاستعانة بها على معصيته، فمن شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم، ومن شكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه، فهذا يدخل فى جملة شكر هذه الأعضاء. والشكر باللسان: إظهار الرضى عن الله — تعالى —، وهو مأمور به. قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم —: «التحدث بالنعم شكر، وتركها كفر»^(٣). وروى أن رجلين من الأنصار التقيا، فقال أحدهما لصاحبه: كيف أصبحت؟ فقال: الحمد لله. فقال النبى — صلى الله عليه وآله وسلم —: «قولوا هكذا»^(٤).

وروى أن رجلاً سلم على عمر بن الخطاب — رضى الله عنه —، فرد عليه، ثم قال له عمر: كيف أصبحت؟ قال: أحمد الله، فقال عمر: ذاك الذى أردت^(٥). وقد كان السلف يتساءلون، ومرادهم استخراج الشكر لله، فيكون الشاكر مطيعاً، والمستنطق مطيعاً. وقال أبو عبد الرحمن الحبل: إن الرجل إذا سلم على الرجل، وسأله كيف أصبحت؟ فقال له الآخر: أحمد الله إليك، قال: يقول الملك الذى عن يساره للذى عن يمينه: كيف تكتبها؟ قال: أكتبه من الحامدين. فكان أبو عبد الرحمن إذا سئل: كيف أصبحت؟ يقول: أحمد الله إليك وإلى جميع خلقه.

● فصل فى أن فعل الشكر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله

اعلم: أن فعل الشكر وترك الكفران، لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله — تعالى —، إذ معنى الشكر استعمال نعمه فى محابه، ومعنى الكفران نقيض ذلك، إما بترك الاستعمال، أو استعماله فيما يكرهه. وتتميز ما يحبه الله فيما يكرهه مدركان: أحدهما: السمع، ومستنده الآيات. والثانى: بصيرة القلب، وهو النظر بعين الاعتبار، وهذا الأخير عسير عزيز،

(١) رواه البخارى فى «التجديد» باب «قيام النبى — ﷺ — الليل» برقم [١١٣٠]، ومسلم فى «صفات

النافقين» رقم [٧٩ — ٨١]، الإمام أحمد فى المسند [٢٥١/٤ — ٢٥٥]، [١٥٥/٦].

(٢) المسند [٢٤٥/٥]، [٢٤٧]. (٣) المسند [٢٧٨/٤]، [٣٧٥].

(٤)، (٥) حديث: قال — ﷺ — لرجل كيف أصبحت؟ فقال: بخير، فأعاد السؤال حتى قال فى الثالثة: =

ولذلك أرسل الله — تعالى — الرسل ، وسهل بهم الطرق على الخلق ، ومعرفة ذلك تبنى على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد ، فمن لا يطلع على حكم الشرع في جميع أفعاله ، لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً . وأما الثاني : وهو النظر بعين الاعتبار ، فهو إدراك حكمة الله — تعالى في كل موجود خلقه : إذ ما خلق الله — تعالى — شيئاً في العالم إلا وفيه حكمة ، وتحت الحكمة مقصود ، وذلك المقصود هو المحبوب . وتلك الحكمة منقسمة إلى جليّة وخفيّة .

أما الجليّة ، فكالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل الليل والنهار ، فيكون النهار معاشاً ، والليل سباتاً ، فتيسر الحركة عند الإبصار ، والسكون عند الاستتار ، فهذا من جملة حكم الشمس ، لا كل الحكمة فيها ، وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار . وأما الحكمة في خلق الكواكب ، فخفية لا يطلع عليها كل الخلق ، وقد يطلعون على بعض ما فيها من الحكم ، نحو كونها زينة للسماء ، وجميع أجزاء العالم لا تخلو منه ذرة عن حكمة ، وكذلك أعضاء الحيوان ، منها ما تبين حكمته بياناً ظاهراً ، كالعلم بأن العين للإبصار ، واليد للبطش ، والرجل للمشي . فأما الأعضاء الباطنة ، كالمرارة ، والكلية والكبد ، وآحاد العروق ، والأعصاب وما فيها من التجاوب والفرقة والغلظة ، فلا يعرف الحكمة فيها كل الناس ، والذين يعرفونها إنما يعرفون منها قدرأ يسيراً بالنسبة إلى علم الله — تعالى — ، فكل من استعمل شيئاً في جهة غير الجهة التي خلق لها ذلك الشيء على غير الوجه الذي أريد به ، فقد كفر نعمة الله — تعالى — فيه ، فمن ضرب غيره بيده بغير حق ، فقد كفر نعمة الله — تعالى — في اليد ، لأنها خلقت ليدفع بها عن نفسه ما يؤذيها ، ويتناول ما ينفعه ، لا ليؤذي بها غيره ، وكذلك العين إذا نظر بها إلى محرم ، فقد كفر نعمتها ، ونعمة الشمس أيضاً ، إذ الإبصار يتم بها ، فالعين والشمس خلقتا ليصير بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ، ويتقى بهما ما يضره فيهما .

واعلم : أن المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها ، أن يستعين بها الخلق على الوصول إلى الله — تعالى — ، ولا وصول إليه إلا بمحبته ، والأنس به في الدنيا ، والتجافي عن غرور الدنيا ، ولا أنسر إلا بدوام الذكر ، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن ، ولا يبقى البدن إلا بالأرض والماء والهواء ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق جميع الأعضاء الباطنة والظاهرة ، وكل ذلك لأجل البدن ، والبدن مطية النفس ، والراجع إلى الله هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة ،

= بخير أحد الله وأفكره ، فقال : وهذا الذي أردت منك ، عزاه العراق للطبراني في الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعاً نحوه ، قال في الثالثة : أحد الله ، وإسناده معضل ، ورواه في المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمر وليس فيه تكرار السؤال ، وقال : أحد الله إليك ، وفيه راشد بن سعد [ضعه الجمهور لسوء حفظه] ، ورواه مالك في الموطأ موقوفاً على عمر : بسند صحيح [تخرج الإحياء ٨٢/٤] .

ولذلك قال الله — تعالى —: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١). فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله ، فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها ، لإقدامه على تلك المعصية .

ولنذكر مثلاً واحداً للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء ، حتى يعتبر بها ، ويعلم طريق الشكر والكفران على النعم ، فنقول : من نعم الله — تعالى — خلق الدراهم والدنانير اللذين بهما قوام الدنيا ، وهما حجران لا منفعة في أعينهما ، ولكن يضطر الخلق إليهما ، من حيث كل إنسان يحتاج إلى أعيان كثيرة ، في مطعمه ، ومشربه ، وملبسه ، ومركبه ، وسائر حاجاته ، وقد يعجز عما يحتاج إليه ، ويملك ما يستغنى عنه ، كمن يملك قدراً من الزعفران مثلاً وهو يحتاج إلى جمل يركبه ، وآخر يملك الجمل ، وربما استغنى عنه ، ويحتاج إلى الزعفران ، فلا بد بينهما من معاوضة ، ولا بد في مقدار العوض من تقدير ، إذ لا يبدل صاحب الجمل جملة بكل مقدار من الزعفران ، ولا مناسبة بين الزعفران والجمل ، حتى يعطى مثله في الوزن والصورة .

وكذا من يشتري داراً بشباب ، أو عبداً بخف ، أو دقيقاً بحمار ، فهذه الأشياء لا تناسب بينها ، فخلق الله — تعالى — الدراهم والدنانير ، حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال ، حتى تقدر بهما ، فيقال : هذا الجمل يساوى مائة ، وهذا القدر من الزعفران يساوى مائة ، فحصل التساوى بينهما حينئذ ، وإنما أمكن التعديل بينهما بالنقدين ، إذ لا غرض في أعيانهما ، فإنه لو كان في أعيانهما غرض لم ينتظم الأمر . فخلقهما الله لتداولهما الأيدي ، ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل ، وجعلهما عزيزين في أنفسهما ، ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة ، فمن ملكهما ، فكأنه ملك كل شيء . إذا عرفت حكمتها ، فكل من عمل فيها عملاً يخالف المقصود منها ، ولا يليق بحكمتها ، فقد كفر نعمة الله فيها ، فمن كنزهما فقد أبطلهما وأبطل الحكمة فيها ، وكان كمن حبس الحاكم بين المسلمين في سجن يمتنع من الحكم بسببه ، لأنه ضيعهما ومنع الأيدي من تداولهما . ولما كان كثير من الخلق عاجزين عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحات الموجودات بخط إلهي لا يدرك بعين البصر ، بل بعين البصيرة ، أخبرهم الله — تعالى — بكلام سمعوه بواسطة رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — ، فقال : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٢) .

وكل من اتخذ الدراهم والدنانير آتية ، فقد كفر نعمة الله فيها ، لأنه أسوأ حالاً ممن كنزهما . ومثال ذلك من استعمل حاكم البلد في الحياكة والكنس والأعمال التي يقوم بها أخس الناس ، وذلك أن الحديد والنحاس والخزف وغيرها يقوم مقام الذهب والفضة في حفظ

(١) الداريات — ٥٦ . (٢) العوبة : ٣٤ .

المناجات ، ولا تكفى تلك الأعيان عنهما ، ولا يقوم مقامهما فيما أريد بهما من كونهما قيم الأشياء ، فمن لم تنكشف له هذه الحكمة بالرحمة الإلهية قيل له : « من شرب في إفاء ذهب أو فضة ، فإنما يجرجر في بطنه نار جهنم »^(١) وكذلك كل من عمل بالربا في الدراهم والدنانير ، فقد أخرجهما عن مقصودهما ، فهذا مثال للحكمة خفية من حكم التقدين .

فينبغى أن تعتبر شكر النعمة وكفرها بهذا المثال في غيره من جميع أمورك ، في حركتك ، وسكونك ، ونطقك ، وسكوتك في كل فصل صادر منك ، إما شكراً أو عكسه ، وهو الكفر ، وبعض ذلك تصفه بالكراهة ، وبعضه بالخطر . ومن ذلك أن الله — تعالى — خلق لك يدين ، وجعل إحداهما أقوى من الأخرى ، فاستحقت بمزيد القوة رجحاناً وشرفاً على الأخرى ، وقد أحوجك من أعطاك اليمين إلى أعمال ، بعضها شريفة ، كأخذ المصحف ، وبعضها خسيصة ، كإزالة النجاسة ، فإذا أخذت المصحف باليسار ، وأزلت النجاسة باليمين ، فقد عكست المقصود ، وخصصت الشريف بما هو خسيس ، فظلمته . وكذلك في الرجلين ، إذا ابتدأت باليسرى في لبس الخف ، فقط ظلمت اليمين ، لأن الخف وقاية الرجل ، وقس على ذلك .

وكذلك نقول : من كسر غصناً من شجرة لغير حاجة مهمة وغرض صحيح ، فقد خالف الحكمة في خلق الأشجار ، لأنها خلقت للمنفعة بها ، فإن كان كسره لغرض صحيح ، فلا بأس ، وإن فعل ذلك في ملك غيره ، فهو ظالم ، وإن كان محتاجاً ، إلا أن يأذن صاحبه .

● فصل في بيان النعم وحقيقتها وأقسامها

اعلم : أن كل مطلوب يسمى نعمة ، ولكن النعمة في الحقيقة هي السعادة الأخروية ، وتسمية ما عداها نعمة تجوز ، والأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم أربعة أقسام : أحدها : ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعاً ، كالعلم ، وحسن الخلق ، وهو النعمة الحقيقية . والثاني : ما هو ضار فيهما جميعاً ، وهو البلاء حقيقة .

القسم الثالث : ما ينفع في الحال ، ويضر في المآل ، كالتلذذ ، واتباع الشهوات ، فهو بلاء عند ذوى الأبصار ، والجاهل يظنه نعمة . ومثاله : الجائع إذا وجد عسلاً فيه سم ، فإنه يعبده نعمة إن كان جاهلاً ، فإذا علم ذلك عده بلاء . القسم الرابع : الضار في الحال ، النافع في المآل ، وهو نعمة عند ذوى الألباب ، بلاء عند الجهال . ومثاله : الدواء الشنيع مذاقه في الحال ، الشافي في المآل من الأسقام ، فالصبي الجاهل ، إذا كلف شربه ظنه بلاء ، والعاقل يعبده نعمة ، وكذلك إذا احتاج الصبي إلى الحجامة ، فإن الأب يدعو إليها ويأمره

(١) رواه البخارى في « الأشربة » ، باب « آتية الفضة » ، رقم [٥٦٣٤] . ومسلم في « اللباس » ، رقم [١] ، باب « تحريم استعمال أوائل الذهب والفضة في الشرب » ، الإمام أحمد في مسنده [٩٨/٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٢] .

بها ، لما يلحظ في عاقبتها من الشفاء ، والأم تمنعه من ذلك لفرط حبها وشفقتها ، لكونها جاهلة بالمصلحة في ذلك ، فالصبي يتقلد منه أمه بجهله ، ويأنس إليها دون أبيه ، ويقدر أباه عدواً ، ولو عقل لعلم أن الأم هي العدو الباطن في صورة صديق ، لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض أشد من ألم الحجامة ، فالصديق الجاهل شر من العدو العاقل ، وكل إنسان صديق نفسه ، ولكن النفس صديق جاهل ، فلذلك تعمل به ما لا يعمل العدو .

● فصل في بيان كثرة نعم الله -تعالى-

وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء

اعلم : أن النعم تنقسم إلى ما هو غاية مطلوبة لذاتها ، وإلى ما هو مطلوب لأجل الغاية :
 ● أما الغاية فهي سعادة الآخرة ، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بقاء لا فناء له ، وسرور لا غم فيه ، وعلم لا جهل معه ، وغنى لا فقر بعده ، وهي السعادة الحقيقية .
 ● وأما القسم الثاني : فهو الوسائل إلى السعادة المذكورة ، وهي أربعة أقسام : أعلاها : فضائل النفس ، كالإيمان ، وحسن الخلق . الثاني : فضائل البدن ، من القوة والصحة ونحوهما . الثالث : النعم المطيعة بالبدن ، من المال والجاه والأهل . الرابع : الأسباب التي جمع بينها وبين ما يناسب الفضائل ، من الهداية والإرشاد ، والتسديد ، والتأييد ، وكل هذه نعم عظيمة .

فإن قيل : ما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة في المال والجاه ونحوهما ؟ قلنا : هذه الأشياء جارية مجرى الجناح المباح ، والآلة المستعملة للمقصود . أما المال ، فإن طالب العلم إذا لم تكن معه كفاية ، كان كساع إلى الهيجاء بغير سلاح ، ولأنه يبقى مستغرق الأوقات في طلب القوت ، فيشغله عن تحصيل العلم ، وعن الذكر ، والفكر ، ونحو ذلك . وأما الجاه فيه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضم ، ولا ينفك عن عدو يؤذيه ، وظالم يهوش عليه ، فيشغل قلبه ، وقلبه رأس ماله . وإنما تدفع هذه الشواغل بالعز والجاه . وأما الصحة والقوة وطول العمر ونحوها ، فهي نعم ، إذ لا يتم علم ولا عمل إلا بذلك . وقد قال النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة ، والفراغ »^(١) . ولما سئل : من خير الناس ؟ قال : « من طال عمره وحسن عمله »^(٢) .

(١) رواه البخاري في كتاب « الرقاق » ، باب « ما جاء في الرقاق » ، وأن لا يعيش إلا عيش الآخرة برقم [٦٤١٢] ، والترمذي في « الزهد » ، باب « الصحة والفراغ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس » [١٨١/٩ — ١٨٢] وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) رواه الترمذي في كتاب « الزهد » ، باب « ما جاء في طول العمر للمؤمن » ، عن أبي هريرة وقال : هذا حديث حسن غريب .

وأما المال والحاه ، وإن كانا نعمتين ، فقد ذكرنا ما فيهما من الآفات فيما تقدم ، وأنهما ليسا بمذمومين على الإطلاق . وأما الهداية والرشد والتسديد والتأييد ، فلا خفاء في كونها من أعظم النعم ، فلا يستغنى أحد عن الحاجة إلى التوفيق ، ولذلك قيل :

إذا لم يكن عون الله للفتى فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده

● فصل من نعم الله : الأسباب التي يتم بها الأكل

واعلم : أنا قد ذكرنا جملة من النعم ، وجعلنا صحة البدن نعمة واحدة من النعم الواقعة في الرتبة الثانية ، فلو أردنا أن نستقصى الأسباب التي بها تمت هذه النعمة ، لم نقدر عليها ، ولكن الأكل أحد أسباب الصحة ، فلنذكر شيئاً من جملة الأسباب التي يتم بها الأكل على سبيل التلويح ، لا على سبيل الاستقصاء ، فنقول : من جملة نعم الله عليك أن خلق لك آلة الإحساس ، وآلة الحركة في طلب الغذاء ، فانظر إلى ترتيب حكمة الله — تعالى — في الحواس الخمس ، التي هي آلة للإدراك .

فأولهما : حاسة اللمس ، وهو أول حس يخلق للحيوان ، وأنقص درجات الحس أن يحس بما يلاصقه ، فإن الإحساس بما يبعد منه أتم لا محالة ، فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك ، فخلق لك الشم تدرك به الرائحة من بعد ، ولكن لا تدري من أى ناحية جاءت الرائحة ، فتحتاج أن تطوف كثيراً حتى تعثر على الذى شمت رائحته ، وربما لم تعثر ، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك ، وتدرك جهته فتقصدها بعينها ، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصاً ، إذ لا تدرك بذلك ما وراء الجدار والحجاب ، فرمما قصدك عدو بينك وبينه حجاب ، وقرب منك قبل أن يكشف الحجاب ، فتعجز عن الهرب ، فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الحجرات عند جريان الحركات ، ولا يكفي ذلك ، لو لم يكن لك حسن الذوق ، إذ به تعلم ما يوافقك وما يضرك ، بخلاف الشجرة ، فإنه يصيب في أصلها كل مائع ، ولا ذوق لها فتجذبه ، وربما يكون ذلك سبب جفافها ، ثم أكرمك الله — تعالى — بصفة أخرى ، هي أشرف من الكل ، وهو العقل ، فيه تدرك الأطعمة ومنفعتا ، وما يضر في المآل ، وبه تدرك طبع الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها ، فتنتفع به في الأكل الذى هو سبب صحتك ، وهو أدنى فوائد العقل ، والحكمة الكبرى فيه معرفة الله — تعالى — ، وما ذكرنا من الحواس الخمس الظاهرة ، فهي بعض الإدراكات . ولا تظن أننا استوفينا شيئاً من ذلك ، فإن البصر واحد من الحواس ، والعين آلة له ، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة : بعضها رطوبات ، وبعضها أغشية مختلفة ، لكل واحدة من الطبقات العشر ، صفة ، وصورة ، وشكل ، وهيئة ، وتدبير ، وتركيب ، لو اختلت طبقة واحدة منها أو صفة واحدة ، لاختل البصر ، وعجز عنه الأطباء كلهم ، فهذا في حس

واحد ، وقس حاسة السمع وسائر الحواس ، ولا يمكن أن يستوفى ذلك في مجلدات ، فكيف ظنك بجميع البدن ؟!

ثم انظر بعد ذلك فى خلق الإرادة والقدرة ، وآلات الحركة من أصناف النعم ، وذلك أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الطعام ، ولم يخلق لك فى الطبع شوق إليه وشهوة تستحثك على الحركة ، كان البصر معطلاً ، فكيف من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له ، ولا يقدر على تناوله لسقوط شهوته ، فخلق لك الله شهوة الطعام وسلطها عليك ، كالمتقاضى الذى يضطرك إلى تناول الغذاء . ثم هذه الشهوة لو لم تسكن عند أخذ مقدار الحاجة من الطعام ، لأسرفت وأهلكك نفسك ، فخلق لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها ، وكذلك القول فى شهوة الوقاع لحكمة بقاء النسل . ثم خلق لك الأعضاء التى هى آلات الحركة فى تناول الغذاء وغيره ، منها اليدين ، وهما مشتملتان على مفاصل كثيرة لتحرك فى الجهات وتمتد وتنتنى ، ولا تكون كخشبة منصوبة .

ثم جعل رأس اليد عريضاً ، وهو الكف ، وقسمه خمسة أقسام ، وهى الأصابع وجعلها مختلفة فى الطول والقصر ، ووضعها فى صفين ، بحيث يكون الإبهام فى جانب ، ويدور على الأصابع البواقي ، ولو كانت مجتمعة متراكمة ، لم يحصل تمام الغرض ، ثم خلق لها أظافر ، وأسند إليها رعوس الأصابع ، لتقوى بها ، ولتلتقط بها بعض الأشياء الدقيقة التى لا تحويها الأصابع ، ثم هب أنك أخذت الطعام باليد ، فلا يكفيك حتى يصل إلى باطنك ، فجعل لك الفم واللحيتين ، خلقهما من عظمين ، وركب فيهما الأسنان وقسمها بحسب ما يحتاج إليه الطعام ، فبعضها قواطع كالرباعيات ، وبعضها يصلح للكسر كالأنياب ، وبعضها طواحن كالأضراس . وجعل اللحي الأسفل متحركاً حركة دورية ، واللحي الأعلى ثابتاً لا يتحرك ، فانظر إلى عجب صنع الله — تعالى — . وإن كل رحي صنعها الخلق يثبت منها الحجر الأسفل ويدور الأعلى ، إلا هذه الرحي التى هى صنع الله — سبحانه وتعالى — ، فإنه يدور منها الأسفل على الأعلى ، إذ لو دار الأعلى خوطر بالأعضاء الشريفة التى يحتوى عليها .

ثم انظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان ، فإنه يطوف فى جوانب الفم ، ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة ، كالجرفة التى ترد الطعام إلى الرحي ، هذا مع ما فيه من عجائب قوة النطق . ثم هب أنك قطعت الطعام وعجنته وهو يابس ، فما تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الخلق بنوع رطوبة . فانظر كيف خلق الله — تعالى — تحت اللسان عيناً يفيض منها اللعاب ، وينصب بقدر الحاجة حتى ينعجن به الطعام .

ثم هذا الطعام المطحون المعجون من يوصله إلى المعدة وهو فى الفم ، فإنه لا يمكن إيصاله باليد ، فهياً الله تعالى المريء والحنجرة ، وجعل رأسها طبقات ينفتح لأخذ الطعام ، ثم ينطبق وينضغط حتى يقلب الطعام ، فيهبى فى دهليز المريء إلى المعدة ، فإذا ورد الطعام إلى المعدة

وهو خبز وفاكهة مقطعة ، فلا يصلح أن يصير لحماً وعظماً ودماً على هذه الهيئة حتى يطبخ طبخاً تاماً ، فجعل الله المعدة على هيئة قدر يقع فيها الطعام ، فتحتوى عليه وتغلق عليه الأبواب ، وينضج بالحرارة التى تتعدى إليها من الأعضاء الأربعة ، وهى الكبد من جانبها الأيمن ، والطحال من جانبها الأيسر ، والرب (١) من أمامها ، ولحم الصلب من خلفها ، فينضج الطعام ويصير مائعاً متشابهاً يصلح للنفوذ فى تجاويف العروق ، ثم ينصب الطعام من العروق إلى الكبد ، فيستقر فيها ريثما يصلح له نضج آخر .

ثم يتفرق فى الأعضاء ويبقى منه ثقل (٢) ثم يندفع . ولو استوفينا الكلام فى ذلك لطال . وفى الآدمى من العضلات والعروق ما لا يحصى ، يختلف بالصغر والكبر والدقة والغلظ ، ولا شئ منها إلا وفيه حكمة ، وكل ذلك من الله — سبحانه — ، ولو سكن من جملتها عرق متحرك ، أو تحرك عرق ساكن ، هلكت يامسكين . فانظر إلى نعم الله — تعالى — عليك ، لتقوى على الشكر ، فإنك لا تعرف من نعمة الله — تعالى — إلا نعمة الأكل ، وهى أحسها ، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل ، والبيمة أيضاً تعرف أنها تجوع وتأكل ، وتتعب فتنام ، وتشتهى فتجتمع ، وإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الحمار ، فكيف تقوم بشكر الله — تعالى —؟! وهذا الذى رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر من نعم الله — تعالى — ، فقس على ذلك . وجملة ما عرفنا وعرفه الخلق كلهم من نعم الله — تعالى — بالإضافة إلى ما لم يعرفوه ، أقل من قطرة فى بحر ، قال الله — تعالى — : ﴿ وَإِنْ تُعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (٣) .

● فصل فى عجائب الأغذية والأدوية

واعلم : أن الأطعمة كثيرة مختلفة ، والله — تعالى — فى خلقها عجائب لا تحصى ، وهى تنقسم إلى أغذية وأدوية وفواكه وغيرها : فتكلم عن بعض الأغذية ، فنقول : إذا كان عندك شئ من الخنطة ، فلو أكلتها لفنيت وبقيت جائعاً ، فما أحوجك إلى عمل ينمى به حب الخنطة ويتضاعف ، حتى يفى بتمام حاجتك ، وهو زرعها ، وهو أن تجعلها فى أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طيناً ، ثم لا يكفى الماء والتراب ، إذ لو تركت فى الأرض ندية صلبة ، لم تنبت لفقد الهواء ، فيحتاج إلى تركها فى أرض متخلخلة يتغلغل الهواء فيها ، ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه ، فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء ، وتصرفه بقهر على الأرض ، حتى ينفذ فيها ، ثم كل ذلك لا يغنى ، فيحتاج إلى حرارة الربيع والصيف ، فإنه لو كان فى البرد المفرط لم ينبت .

(٢) الثقل : ما سفل من كل شئ .

(١) القرب : شحم قد غشى الكرش والأمعاء رقيق .

(٣) إبراهيم : ٣٤ ، النحل : ١٨ .

ثم انظر إلى الماء الذى تحتاج إليه هذه الزراعة كيف خلقه الله — تعالى — ؟ فجّر العيون وأجرى منها الأنهار ، ولما كان بعض الأرض مرتفعاً لا يناله الماء ، أرسل إليها الغيوم ، وسلط عليها الرياح لتسوقها بإذنه إلى أقطار العالم ، وهى سحب ثقال ، ثم يرسله على الأرض مدراراً فى وقت الحاجة . وانظر كيف خلق الله الجبال حافظة للماء ، تنفجر منها العيون تدريجاً ، فلو خرجت دفعة واحدة لغرفت البلاد وهلك الزرع وغيره . وانظر كيف سخر الشمس وخلقها ، مع بعدها عن الأرض ، مسخنة لها فى وقت دون وقت ، ليحصل البرد عند الحاجة إليه ، والحر عند الحاجة إليه . وخلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب ، كما جعل من خاصية الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه بتقدير الحكيم الخبير ، وكل كوكب خلق فى السماء ، فهو مسخر لنوع فائدة ، كما سخرت الشمس والقمر . ولا يخلو كل واحد منها عن حكم كثيرة لا تفى قوة البشر بإحصائها ، وكذلك الشمس والقمر . فيهما حكم أخر غير ما ذكرنا لا تحصى .

ولما كانت كل الأطعمة لا توجد فى كل مكان ، سخر الله — تعالى — التجار ، وسلط عليهم الحرص على جمع المال ، مع أنه لا يغيثهم فى غالب الأمر شيء ، بل يجمعون الأموال ، فإما أن تفرق بها السفن أو تنتهبها قطاع الطرق ، أو يموتون فى بعض البلاد ، فتأخذها السلاطين . وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم ، وهم أشد أعدائهم لو عرفوا . فانظر كيف سلط الله عليهم الأمل والغفلة ، حتى يقاسوا الشدائد فى طلب الربح فى ركوب البحار ، وركوب الأخطار فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك .

واعلم : أن الخلق لم يقصروا عن شكر النعمة إلا للجهل والغفلة ، فإنهم منعوا بذلك عن معرفة النعم ، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها ، ثم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول أحدهم بلسانه : الحمد لله ، والشكر لله ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن تستعمل النعمة فى إتمام الحكمة التى أريدت بها ، وهو طاعة الله — تعالى

© اسباب الغفلة عن نعم الله :

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب : أحدها : أن الناس لجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق فى جميع أحوالهم نعمة ، فلذلك لا يشكرون على جملة مما ذكرناه ، من النعم ، لأنها عامة للخلق ، مبذولة لهم فى جميع أحوالهم ، فلا يرى واحد منهم اختصاصاً به ، فلا يعده نعمة ، فلا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ، ولو أخذ بمخنتهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ، ولو حبسوا فى حمام أو بئر ماتوا غماً ، فإن ابتلى أحدهم بشيء من ذلك ثم نجا ، قدّر ذلك نعمة يشكر الله عليها ، وهذا غاية الجهل ، إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة ، ثم ترد إليهم فى بعض الأحوال ، فالنعم فى جميع الأحوال أولى بالشكر ، فلا ترى

البصير يشكر صحة البصر إلا أن يعمى ، فإذا أعيد بصره أحسن بالنعمة وشكرها حينئذ وعدها نعمة ، وهو مثل عبد السوء يضرب دائماً ، فإذا ترك ضربه ساعة ، شكر وتقلد ذلك منه ، وإن ترك ضربه أصلاً ، غلبه البطر وترك الشكر ، فصار الناس لا يشكرون إلا على المآل الذى يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة ، وينسون جميع نعم الله — تعالى — عليهم .

كما روى أن بعضهم شكوا فقره إلى بعض أرباب البصيرة ، وأظهر شدة اغتنامه بذلك ، فقال له : أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم ؟ قال : لا ، قال : أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم ؟ قال : لا ، قال : أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفاً ؟ قال : لا . قال : أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف ؟ قال : لا ، قال : أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً . وحكى عن بعض الفقراء أنه اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعاً ، فرأى فى المنام كأن قائلًا يقول له : أتود أنا أنسيناك سورة الأنعام ولك ألف دينار ؟ قال : لا . قال : فسورة هود ؟ قال : لا ، قال : فسورة يوسف ؟ قال : لا ، قال : فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو ؟ فأصبح وقد سرى عنه .

ودخل ابن السماك على الرشيد فى عظة ، فبكى ثم دعا بماء فى قدح فقال : يأمر المؤمنين ! لو منعت هذه الشربة إلا بالدنيا وما فيها ، أكنت تفديها بها ؟ قال : نعم . قال : فاشرب رياً ، بارك الله فيك . فلما شرب . قال له : يأمر المؤمنين : أرايت لو منعت لإخراج هذه الشربة منك إلا بالدنيا وما فيها ، أكنت تفتدى ذلك ؟ قال : نعم . قال : فما تصنع بشيء شربة ماء خير منه ! وهذا يبين أن نعمة الله — تعالى — على العبد فى شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها ، ثم تسهيل خروج الحدث من أعظم النعم ، وهذه إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة .

واعلم : أن ما من عبد إلا إذا أمعن النظر رأى من نعم الله نعماً كثيرة لا يشاركه فيها عموم الناس ، بل قد يشاركه فى ذلك كثير منهم ، من ذلك العقل ، فما من عبد إلا وهو راضٍ عن الله سبحانه فى عقله ، يعتقد أنه أعقل الناس ، وقلما يسأل الله العقل ، وإذا كان ذلك اعتقاده ، فيجب عليه أن يشكر الله — تعالى — على ذلك .

ومن ذلك الخلق ، فإنه ما من عبد إلا ويرى من غيره عيوباً يكرهها ، وأخلاقاً يذمها ، ويرى نفسه بريئاً منها ، فينبغى أن يشكر الله — تعالى — على ذلك ، حيث أحسن خلقه وابتلى غيره . ومن ذلك أن ما من أحد إلا وهو يعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا أركانها ما هو منفرد به ، ولو كشف الغطاء عنه حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافترض ، فكيف لو اطلع الناس كافة ؟ فلم لا يشكر الله بستر الجميل على مساويه ، حيث أظهر الجميل وستر القبيح ، ولتنزل إلى طبقة أعم من هذا القليل ، فنقول : ما من عبد إلا وقد رزقه الله

— تعالى — في صورته ، أو أخلاقه أو صفاته ، أو أهله ، أو ولده ، أو مسكنه أو بلده ، أو رفيقه ، أو أقاربه ، أو جاهه ، أو سائر محابه ، أموراً ، لو سلب ذلك وأعطى ما خصص به من ذلك غيره ، لكان لا يرضى به ، وذلك مثل أن جعله مؤمناً لا كافراً ، وحياً لا جماً ، وإنساناً لا بهيمة ، وذكرأ لا أنثى ، وصحيحاً لا مريضاً ، وسليماً لا معيباً ، فإن كل هذه خصائص .

فإن كان لا يرى أن يبدل حاله بحال غيره ، مثل أن لا يعرف شخصاً يرتضى لنفسه حاله بدلاً عن حال نفسه ، إما على الجملة ، أو في أمر خاص ، فإن الله عليه نعماً ليست له على أحد من عباده سواه ، وإن كان يرى أنه يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون بعض ، فليتنظر إلى عدد المغبوطين عنده ، فإنه يراهم عنده لا محالة أقل من غيرهم ، فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير من فوقه ، فما باله ينظر إلى من فوقه ولا ينظر إلى من دونه ١٩ وفي « الصحيحين » عن أبي هريرة — رضى الله عنه — ، قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق ، فليتنظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه »^(١) . وقد رواه الترمذى بلفظ آخر : « انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من فوقكم ، فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم »^(٢) .

فإن من اعتبر حال نفسه ، وفتش على ما خص به ، وجد لله — تعالى — عليه نعماً كثيرة ، لا سيما من خص الإيمان ، والقرآن ، والعلم ، والسنة ، ثم الفراغ ، والصحة والأمن وغير ذلك . وقد روى في بعض الأحاديث « من قرأ القرآن فهو غنى » . وفي لفظ : « القرآن غنى لا فقر بعده ، ولا غنى دونه »^(٣) . وفي حديث آخر : « من أصبح آمناً في سربه ، معافى في بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »^(٤) . وقال بعضهم :

إذا ما القوت يأتي — — لك* في الصحة والأمن
وأصبحت أخا حزن فلا فارقك الحزن

(١) رواه الإمام أحمد في المسند [٣١٤/٢] ، والبخارى في الرقاق باب « لينظر إلى من هو أسفل منه ، ولا ينظر إلى من هو فوقه ، برقم [٦٤٩٠] ، ورواه مسلم في « الزهد » برقم [٨] .

(٢) رواه مسلم في « الزهد » رقم ٩ ، والترمذى في القيامة باب [٥٨] عن أبي هريرة وقال : حديث صحيح ، الإمام أحمد في المسند [٢٥٤/٢] ، وابن ماجه في « الزهد » باب القناعة رقم [٤١٤٢] .

(٣) في « جمع الجوامع » [٤٣٥/١] عزاه لأبي يعلى ومحمد بن نصر والطبراني في الكبير والبيهقى في شعب الإيمان والخطيب في تاريخه عن أنس ، وقال : حديث ضعيف ، وكذا قال العراقي [١٢٢/٤] .

(٤) رواه الترمذى في « الزهد » باب [٣٤] [٢٠٨/٩] عن سلمة بن عبيد الله بن محسن الخطمي عن أبيه وقال : هذا حديث حسن غريب ، وابن ماجه في « الزهد » باب القناعة رقم [٤١٤١] .

(*) في « إحياء علوم الدين » [١٢٣/٤] : يأتيك .

فإن قيل : فما علاج القلوب الغافلة عن شكر نعم الله — تعالى — ؟ فالجواب : أما القلوب المبصرة ، فتتأمل ما رمز إليه من أصناف نعم الله — عز وجل — وأما القلوب البليدة التي لا تعد النعمة نعمة إلا إذا نزل بها البلاء ، فسبيل صاحبها أن ينظر أبداً إلى من دونه ، ويفعل ما كان يفعله بعض القدماء ، فإنه كان يحضر دار المرضى لي شاهد أنواع البلاء عليهم ، ثم يتأمل صحته وسلامته ، ويشاهد الجناة الذين يقتلون ، وتقطع أيديهم وأرجلهم ويعذبون ، فيشكر الله على سلامته من تلك العقوبات ، ويحضر المقابر ، فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ، ليتدارك من عصا عصيانه ، وليزيد في الطاعة من أطاع ، فإن يوم القيامة يوم التغابن ، فإذا شاهد المقابر ، وعلم أحب الأشياء إليهم ، فليصرف بقية عمره في طاعة الله — تعالى — وشكره في الإمهال ، بأن يصرف العمر إلى ما خلق لأجله ، وهو التزود للآخرة . وما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن يعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت . كان الفضيل — رحمه الله تعالى — يقول : عليكم بمداومة الشكر على النعم ، فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم .

● فصل في بيان اجتماع الصبر والشكر على وجه واحد

لعلك تقول : قد ذكرت أن الله — تعالى — في كل موجود نعمة ، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً ، فما معنى الصبر ، وإن كان البلاء موجوداً ، فما معنى الشكر على البلاء ؟ وكيف يجتمع الصبر والشكر ؟ فإن الصبر يستدعي ألماً ، والشكر يستدعي فرحاً ، وهما متضادان .

فاعلم أن البلاء موجود ، كما أن النعمة موجودة ، وأنه ليس كل بلاء يؤمر بالصبر عليه ، مثل الكفر ، فإنه بلاء ، ولا معنى للصبر عليه ، وكذا المعاصي ، إلا أن الكافر لا يعلم أن كفره بلاء ، فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بها بسبب غشيته ، والعاصي يعرف عصيانه ، فعليه ترك المعصية ، وكل بلاء يقدر الإنسان على دفعه لا يؤمر بالصبر عليه ، فلو ترك شرب الماء مع العطش حتى عظم ألمه ، لم يؤمر بالصبر على ذلك ، بل يؤمر بإزالة الألم ، وإنما يكون الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته ، فإذا رجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق ، بل يجوز أن يكون نعمة من وجهه ، فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الشكر ووظيفة الصبر ، فإن الغنى مثلاً يجوز أن يصير سبب هلاك الإنسان ، حتى يقصد قتله بسبب ماله ، والصحة أيضاً كذلك ، فما من نعمة من نعم الدنيا إلا ويجوز أن تصير بلاء ، وقد يكون على العبد في بعض الأمور بلاء وفيه نعمة .

مثال ذلك ، جهل الإنسان بأجله ، فإنه نعمة عليه ، إذ لو عرفه تنقص عليه العيش ، وطال بذلك غمه ، وكذلك جهله بما يضره بعض الناس له ، إذ لو اطلع عليه ، لطال ألمه وحقدته وحسده واشتغاله بالانتقام ، وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره ، إذ لو عرف منه ذلك ، أبغضه واداه ، فكان ذلك وبالاً عليه . ومن ذلك إبهام القيامة ، وليلة

القدر ، وساعة الجمعة ، وكل ذلك نعمة ، لأن الجهل يوفر الدواعى على الطلب والاجتهاد ، فهذه وجوه نعم الله — تعالى — فى الجهل ، فكيف فى العلم ١٩
وقد قلنا : إن لله — سبحانه — فى كل موجود نعمة ، حتى إن الآلام قد تكون نعمة فى حق المتألم ، وقد تكون نعمة فى حق غيره ، كآلم الكفار فى النار فى الآخرة ، فإنه نعمة فى حق أهل الجنة ، إذ لو لم يعذب قوم ، ما عرف المتعمون قدر نعيمهم ، وإنما يتضاعف فرح أهل الجنة إذا ذكروا ألم أهل النار ، ألا ترى أن أهل الدنيا لا يشتد فرحهم بنور الشمس ، مع شدة حاجتهم إليها من جهة أنها عامة مبدولة ، ولا بالنظر إلى زينة السماء ، وهى أحسن من كل نبت ، لأنها عامة ، فلذلك لم يشعروا بها ، ولم يفرحوا بسببها ، فإذا صح قولنا : إن الله — تعالى — لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة ونعمة ، إما على جميع العباد ، أو على بعضهم ، ففى خلق الله — تعالى — البلاء نعمة أيضاً ، إما على المبتلى ، أو على غيره ، فيجتمع على العبد وظيفة الشكر والصبر فى كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ، ولا نعمة مطلقة ، فإن الإنسان قد يفرح بالشئ الواحد من وجه ، ويغتم به من وجه ، فيكون الصبر من حيث الاغتمام ، والشكر من حيث الفرح .

واعلم : أن فى كل فقر ، ومرض ، وخوف ، وبلاء فى الدنيا ، خمسة أشياء ينبغى أن يفرح العاقل بها ، ويشكر عليها : أحدها : أن كل مصيبة ومرض يتصور أن يكون عليه أكثر منها ، لأن مقدرات الله — تعالى — لا تنهى ، فلو أضعفها الله — عز وجل — على العبد ، فما كان يمنه ؟ فليشكر إذ لم يكن أعظم . **الثانى :** أن المصيبة لم تكن فى الدين . قال عمر ابن الخطاب — رضى الله عنه — : ما ابتليت ببلاء إلا كان لله — تعالى — على فيه أربع نعم : إذ لم يكن فى ديني ، وإذ لم يكن أعظم ، وإذ لم أحرم الرضى به ، وإذ أرجو الثواب عليه . قال رجل لسهل بن عبد الله : دخل اللص بيتي وأخذ متاعى ، فقال : اشكر الله — تعالى — ، ولو دخل الشيطان قلبك فأفسد إيمانك ، ماذا كنت تصنع ؟ ومن استحق أن يضربك مائة سوط ، فاقصر على عشرة ، فهو مستحق للشكر .

الثالث : أن ما من عقوبة إلا كان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ، ومصائب الدنيا يتسلل عنها فتخف ، ومصيبة الآخرة دائمة ، وإن لم تدم ، فلا سبيل إلى تخفيفها ، ومن عجلت عقوبته فى الدنيا لم يعاقب ثانياً ، كذا ورد فى الحديث عن النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — . وفى « صحيح مسلم » : « إن كل ما يصاب به المسلم يكون كفارة له ، حتى النكبة ينهاها ، الشوكة يشاكها » (١) .

الرابع : أن هذه المصيبة كانت مكتوبة عليه فى أم الكتاب ، ولم يكن بد من وصولها إليه ، فقد وصلت واستراح منها ، فهى نعمة .

(١) تقدم ترجمته .

الخامس : أن ثوابها أكثر منها ، فإن مصائب الدنيا - إلى الآخرة ، كما يكون المنع من أسباب اللعب نعمة في حق الصبي ، فإنه لو خلى ولعب ، لكان يمنعه ذلك من العلم والأدب ، فكان سر طول عمره ، وكذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء ، قد تكون سبباً لملاكه ، فالملحدون غداً يتمنون أن لو كانوا مجانين وصبياناً ، ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله - تعالى - ، فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد ، إلا ويتصور أن يكون له في ذلك خيرة دينية ، فعليه أن يحسن الظن بالله - عز وجل - ، ويقدر الخيرة فيما أصابه ويشكر الله - تعالى - عليه ، فإن حكمة الله - تعالى - واسعة ، وهو أعلم بمصالح العباد منهم ، وغداً يشكره العباد على البلاء إذا رأوا ثوابه ، كما يشكر الصبي بعد البلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه ، إذا رأى ثمرة ما استفاد من التأديب .

والبلاء تأديب من الله - تعالى - ، ولطفه بعباده أتم وأوفى من عناية الآباء بالأولاد . وفي الحديث : **« لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له »** (١) . وأيضاً ، فاعلم أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا ، ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عنها ، ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا والأنس بها ، فإذا كثرت المصائب انزعج القلب عن الدنيا ولم يسكن إليها ، فصارت سجناً له ، فكانت نجاته منها غاية المراد كخلاص المسجون من السجن .

وأما التألم فهو ضرورى وذلك يضاهى فرحك بمن يحجمك أو يسقيك دواء نافعاً بلا أجر ، فإنك تتألم وتفرح ، فتصبر على الألم ، وتشكر على سبب الفرح ، فمن عرف هذا ، تصور منه أن يشكر على البلاء ، ومن لا يؤمن أن ثواب المصيبة أكثر منها لم يتصور منه الشكر على المصيبة . وقد روى أن أعرابياً عزى ابن عباس - رضى الله عنه - بأبيه فقال :

**اصبر نكن بك صابرين فإنيما صبر الرعية عند صبر الرأس
خير من العباس صبرك بعده والله خير منك للعباس**

فقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : ما عزاني أحد أحسن من تعزيتي . وقد سبق ذكر أنواع البلاء ، وثواب الصبر عليها . فإن قال قائل : الأخبار الواردة في فضل الصبر تدل على أن البلاء في الدنيا خير من النعيم ، فهل لنا أن نسأل الله - عز وجل - البلاء ؟ فالجواب : أنه لا وجه لذلك ، فإن في الحديث من رواية أنس ، أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عاد رجلاً من المسلمين صار مثل الفرخ ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : **« هل كنت تدعو بشيء ، أو تسأله ؟ »** قال : نعم ، كنت أقول

(١) روى مسلم في صحيحه عن صهيب قال : قال رسول الله - ﷺ - : **« عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له »** ، صحيح مسلم كتاب " الزهد " باب " المؤمن أمره كله خير " رقم [٦٤] .

: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة ، فعجله لي في الدنيا ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « سبحان الله لا تطيقه ولا تستطيعه ، فهلا قلت : اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار »^(١) .

ومن حديث أنس — رضى الله عنه — أيضاً ، أن رجلاً قال : يانبي الله : أى الدعاء أفضل ؟ قال : « سل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة » ، ثم أتاه الغد ، فقال : يا رسول الله : أى الدعاء أفضل ؟ قال : « سل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة » ، ثم أتاه اليوم الثالث . فقال : « سل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة ، فإن أعطيت العفو والعافية في الدنيا والآخرة فقد أفلحت »^(٢) . وفى « الصحيحين » أنه — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « تعوذوا بالله من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء »^(٣) . وقال مطرف : لأن أعافى فأشكر ، أحب إليّ من أن أبلى فأصبر .

● فصل فى بيان ايهما افضل الصبر ام الشكر

واختلف الناس : هل الصبر أفضل من الشكر ، أو بالعكس ؟ وفى ذلك كلام طويل ، ذكره المصنف — رحمه الله — وتلخيص القول فيه : أن لكل واحد من الصبر والشكر درجات . فأقل درجات الصبر ، ترك الشكوى مع الكراهة ودواءها الرضى ، وهو مقام وراء الصبر ، ووراء ذلك الشكر على البلاء ، وهو وراء الرضى . ودرجات الشكر كثيرة ، فإن حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر ، والمعرفة بعظيم حلم الله وستره شكر ، والاعتراف بأن النعم ابتلاء من الله بغير استحقاق شكر ، والعلم بأن الشكر نعمة من نعم الله شكر ، وحسن التواضع فى النعم والتذلل فيها شكر ، وشكر الوسائط شكر ، لقوله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس »^(٤) . وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر ، وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر ، فما يندرج من الأعمال والأقوال تحت اسم الشكر والصبر لا ينحصر ، وهى درجات مختلفة ، فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر ؟

(١) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الذكر باب كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة فى الدنيا رقم [٢٣] ، ورواه الترمذى فى الدعوات باب [٧٢] [٢٦/١٣] وقال : هذا حديث صحيح غريب ، رواه أحمد فى مسنده [٢٨٨ ، ١٠٧/٣] .

(٢) رواه الترمذى فى صحيحه باب ٨٤ [٤٤/١٣ — ٤٥] عن أنس وقال : هذا حديث حسن غريب . (٣) رواه البخارى فى « القدر » ، باب من « تعوذ بالله من درك الشقاء وسوء القضاء » ، رقم [٦٦١٦] ، ورواه مسلم فى « الذكر » ، رقم [٥٣] ، والإمام أحمد فى المسند [١٧٣/٢ ، ٢٤٦] .

(٤) رواه أبو داود فى « الأدب » ، باب [١٢] رقم [٤٨١١] ، ورواه الترمذى فى « البر والصلة » ، باب « ما جاء فى الشكر لمن أحسن إليك » [١٣٢/٨] وقال : هذا حديث حسن صحيح . والإمام أحمد فى المسند [٢٩٥ ، ٢٥٨/٢] — [٢٣/٣ ، ٧٤] — [٢٧٨/٤] — [٢١١/٥ ، ٢١٢] .

لكن نقول : إذا أضيف إلى الشكر الذى هو صرف المال إلى الطاعة ، فالشكر أفضل ، لأنه تضمن الصبر أيضاً ، وفيه فرح بنعمة الله — عز وجل — ، وفيه احتمال ألم فى صرفه إلى الفقراء ، وترك صرفه إلى التمتع المباح ، فهو أفضل من الصبر بهذا الاعتبار . وأما إذا كان شكر المال ألا يستعين به على معصية ، بل يصرفه إلى التمتع المباح ، فالصبر هنا أفضل من الشكر ، والفقير الصابر أفضل من المسك ماله الصارف له فى المباحات ، لأن الفقير قد جاهد نفسه وأحسن الصبر على بلاء الله — تعالى — ، وجميع ما ورد من تفضيل أجزاء الصبر على الشكر ، إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص ، لأن السابق إلى أفهام الناس ، من نعمة الأموال ، والغنى بها ، والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان : الحمد لله . فإذن الصبر الذى يعتمده العامة أفضل من هذا الشكر الذى يفهمونه . ومتى لحظت المعنى الذى ذكرناه ، علمت بأن لكل واحد من القولين وجهاً فى بعض الأحوال ، فرب فقير صابر أفضل من غنى شاكراً كما ذكر ، ورب غنى شاكراً أفضل من فقير صابر ، وذلك هو الغنى الذى يرى نفسه مثل الفقير الذى لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة ، ويصرف الباقي فى الخيرات ، أو يمسكه على اعتقاده أنه خازن للمحتاجين ، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها ، وإذا صرفه لم يصرفه لطلب جاه ولا تقليد منة ، فهذا أفضل من الفقير الصابر ، والله — سبحانه وتعالى — أعلم .

● كتاب الرجاء والخوف

واعلم : أن الرجاء والخوف جناحان ، بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كؤود ، ولا بد من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسببهما ، وما يتعلق بذلك . ونحن نذكرهما فى شطرين : الأول : فى الرجاء . والثانى : فى الخوف .

© الشطر الأول : الرجاء :

واعلم : أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين ، وإنما يسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام ، فإن كان عارضاً سريع الزوال سمي حالاً ، كما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة ، كصفرة الذهب ، وإلى سريعة ، كصفرة الوجل ، وإلى ما بينهما كصفرة المرض ، وكذلك صفات القلب تنقسم إلى هذه الأقسام ، وإنما سمي غير الثابت حالاً ، لأنه يحول عن القلب .

واعلم : أن كل ما يلافيك من محبوب أو مكروه ينقسم إلى موجود فى الحال ، وإلى موجود فيما مضى . فالأول : يسمى وجداً وذوقاً وإدراكاً . والثانى يسمى ذكراً ، وإن كان قد خطر ببالك شيء فى الاستقبال ، وغلب على قلبك ، سمي انتظاراً وتوقعاً ، فإن كان المنتظر محبوباً ، سمي رجاء ، وإن كان مكروهاً ، سمي خوفاً . فالرجاء : هو ارتياح لانتظار

ما هو محبوب عنده ، ولكن ذلك المتوقع لا بد له من سبب حاصل ، فإن لم يكن السبب معلوم الوجود ولا معلوم الانتفاء ، سمى تمنياً ، لأنه انتظار من غير سبب . ولا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه ، فأما ما يقطع به فلا ، إذ لا يقال : أرجو طلوع الشمس وأخاف غروبها ، لأن ذلك مقطوع به عند طلوعها وغروبها ، ولكن يقال : أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه .

وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض ، والإيمان كالبذر فيه ، والطاعات جارية مجرى تنقية الأرض وتطهيرها ، ومجرى حفر الأنهار ومساق الماء إليها . وإن

القلب المستغرق بالدنيا ، كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر . ويوم القيامة هو يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان ، وقل أن ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه ، كما لا ينمو البذر في الأرض السبخة . فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع ، فكل من طلب أرضاً طيبة ، وألقى فيها بذراً جيداً غير مسوس ولا عفن ، ثم ساق إليها الماء في أوقات الحاجة ، ونقى الأرض من الشوك والحشيش وما يفسد الزرع ، ثم جلس ينتظر من فضل الله — تعالى — دفع الصواعق والآفات المفسدة ، إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته ، فهذا يسمى انتظاره رجاء .

فأما إن بذر في أرض سبخة صلبة مرتفعة لا يصل إليها الماء ولم يتعاهدها أصلاً ، ثم انتظر الحصاد ، فهذا يسمى انتظاره حمقاً وغروراً ، لا رجاء . وإن بث البذر في أرض طيبة ، ولكن لا ماء لها ، وأخذ ينتظر مياه الأمطار ، سمى انتظاره تمنياً لا رجاء . فإذا سمى الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب مهدت أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ، ولم يبق إلا ما ليس إلى اختياره ، وهو فضل الله — سبحانه — ، بصرف الموانع المفسدات ، فالعبد إذا بث بذر الإيمان ، وسقاه ماء الطاعات ، وطهر القلب من شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل الله — تعالى — ثيبته على ذلك إلى الموت ، وحسن الحاقمة المفضية إلى المغفرة ، كان انتظاره لذلك رجاءً محموداً باعثاً على المواظبة على الطاعات والقيام بمقتضى الإيمان إلى الموت ، وإن قطع بذر الإيمان عن تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق ، وانهمك في طلب لذات الدنيا ، ثم انتظر المغفرة ، كان ذلك حمقاً وغروراً . قال الله — تعالى — : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ ^(١) . وذم القائل : ﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِمَّنَّا مُنْقَلَبًا ﴾ ^(٢) .

وروى شدد بن أوس ، قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله — عز

(٢) الكهف : ٣٦ .

(١) الأعراف : ١٦٩ .

وجل — الأمانى»^(١). وقال معروف الكرخي — رحمه الله —: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه خذلان وحق. ولذلك قال الله — تعالى — ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾^(٢). المعنى: أولئك الذين يستحقون أن يرجوا، ولم يرد تخصيص وجود الرجاء، لأن غيرهم أيضاً قد يرجو ذلك.

واعلم: أن الرجاء محمود، لأنه باعث على العمل، واليأس مذموم، لأنه صارف عن العمل، إذ من عرف أن الأرض سبخة، وأن الماء مغور، وأن البذر لا ينبت، ترك تفقد الأرض، ولم يتعب في تعاهدها. وأما الخوف، فليس بضد الرجاء، بل رفيق له، كما سيأتي بيانه إن شاء الله — تعالى —. وحال الرجاء يورث طريق المجاهدة بالأعمال، والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله — عز وجل —، والتنعم بمناجاته، والتلطف في التملق له، فإن هذه الأحوال لا بد أن تظهر على كل من يرجو ملكاً من الملوك، أو شخصاً من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله — سبحانه وتعالى —؟ فمتى لم يظهر، استدل به على حرمان مقام الرجاء، فمن رجا أن يكون مراداً بالخير من غير هذه العلامات، فهو مغرور.

● فصل في فضيلة الرجاء

روى في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة — رضى الله عنه —، عن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — أنه قال: «قال الله — عز وجل —: أنا عند ظن عبدي بي» وفي رواية أخرى: «فليظن بي ما شاء»^(٣). وفي حديث آخر من رواية مسلم: أن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — قال: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»^(٤).

وأوحى الله — تعالى — إلى داود — عليه السلام —: «أحبني، وأحب من يحبني، وحبيبي إلى خلقي». قال: يارب: كيف أحبيك إلى خلقك؟ قال: اذكرني بالحسن الجميل، واذكر آلائي وإحساني. وعن مجاهد — رحمه الله — قال: يؤمر بالبعد يوم القيامة إلى النار، فيقول: ما كان هذا ظني فيقول: ما كان ظنك؟ فيقول: أن تغفر لي، فيقول: خلوا سبيله.

(١) الحديث في المسند [١٢٤/٤]، أخرجه الحاكم [٥٧/١] وقال: حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، قال الذهبي: لا والله أبو بكر بن أبي مريم الفسائي — أحد رجال السند — وإه.

(٢) البقرة: ٢١٨.

(٣) رواه مسلم في صحيحه كتاب «التوبة»، باب «الحض على التوبة»، رقم [١]. والإمام أحمد في المسند [٥٢٤/٢]، [٥٣٤].

(٤) رواه مسلم في صحيحه كتاب «الجنة وصفة نعيمها وأهلها»، رقم [٨١].

● فصل فى دواء الرجاء والسبب الذى يحصل به

اعلم : أن دواء الرجاء يحتاج إليه رجلان : إما رجل قد غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة . وإما رجل غلب عليه الخوف حتى أضرب بنفسه وأهله . فأما العاصى المغرور المتمنى على الله مع الإعراض عن العبادة ، فلا ينبغي أن يستعمل فى حقه إلا أدوية الخوف ، فإن أدوية الرجاء تقلب فى حقه سموماً ، كما أن العسل شفاء لمن غلبت عليه البرودة ، مضر لمن غلبت عليه الحرارة . ولهذا يجب أن يكون واعظ الناس متلطفاً ، ناظراً إلى مواضع العلل ، معالجاً كل علة بما يليق بها ، وهذا الزمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء ، بل المبالغة فى التخويف ، وإنما يذكر الواعظ فضيلة أسباب الرجاء إذا كان مقصوده استئالة القلوب إليه ، لإصلاح المرضى . وقد قال على — رضى الله عنه — : إنما العالم الذى لا يقنط الناس من رحمة الله ، ولا يؤمنهم مكر الله .

إذا عرفت هذا ، فاعلم أن من أسباب الرجاء ، ما هو من طريق الاعتبار ، ومنها ما هو من طريق الأخبار . أما الاعتبار ، فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه من أصناف النعم فى كتاب الشكر ، فإذا علم لطائف الله — تعالى — بعباده فى الدنيا ، وعجائب حكمته التى راعاها فى فطرة الإنسان ، وأن لطفه الإلهى لم يقصر عن عباده فى دقائق مصالحهم فى الدنيا ، ولم يرض أن تفوتهم الزيادات فى الرتبة ، فكيف يرضع سياقتهم إلى الهلاك المؤبد ؟ فإن من لطف فى الدنيا يلطف فى الآخرة ، لأن مديبر الدارين واحد . وأما استقراء الآيات والأخبار ، فمن ذلك قوله — سبحانه وتعالى — : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ اسْتَرْفَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ ^(١) . وقال — تعالى — : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ ^(٢) .

وأخبر — تعالى — أنه أعد النار لأعدائه ، وإنما خوف بها أوليائه ، فقال : ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ ، وَهُمْ تَحْتَهُمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ ^(٣) . وقال — تعالى — : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ^(٤) . وقال : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى . لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ، الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ ^(٥) . وقال — تعالى — ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾ ^(٦) .

(١) الزمر : ٥٣ . (٢) الشورى : ٥ . (٣) الزمر : ١٦ . (٤) آل عمران : ١٣١ .
(٥) الليل : ١٤ — ١٦ . (٦) الرعد : ٦ .

ومن الأخبار ما روى أبو سعيد الخدرى — رضى الله عنه —، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم — يقول : « إن إبليس قال لربه عز وجل : بعزتك وجلالك ، لا أبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم . فقال الله — عز وجل — : فبعزتي وجلالى ، لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى »^(١) . وعن أنى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « والذى نفسى بيده ، لو لم تذبوا ، لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذبون ، فيستغفرون فيغفر لهم » رواه مسلم^(٢) .

وفى « الصحيحين » من حديث عائشة — رضى الله عنها —، أن النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « سدّدوا وقاربوا وأبشروا ، فإنه لن يدخل أحدًا الجنة عمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه برحمته »^(٣) . وفى « الصحيحين » من حديث أنى سعيد الخدرى — رضى الله عنه —، عن النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « يقول الله — عز وجل — يوم القيامة : يا آدم : قم فابعث بعث النار فيقول : ليك وسعديك والخير فى يديك . يارب : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، فحينئذ يشيب المولود ، ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾^(٤) . فشق ذلك على الناس ، حتى تغيرت وجوههم ، وقالوا : يا رسول الله ! وأينا ذلك الواحد ؟ قال — صلى الله عليه وآله وسلم — : « من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ، وضكم واحد » فقال الناس : الله أكبر . فقال النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — : « والله إني لأرجو أن تكونوا ريع أهل الجنة . والله إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة ، والله إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » ، فكبر الناس ، فقال : « ما أنتم يومئذ فى الناس إلا كالشجرة البيضاء فى الثور الأسود ، أو كالشجرة السوداء فى الثور الأبيض »^(٥) .

فانظر كيف جاء بالتخويف ، فلما أزعج جاء باللفظ ، ومتى اطمأنت القلوب إلى الهوى ، فينبغى أن تزعج فإذا اشتد قلقها ، ينبغى أن تسكن ليعتدل الأمر . وقال ابن مسعود — رضى الله عنه — : ليغفرن الله — عز وجل — يوم القيامة مغفرة لم تخطر على قلب بشر . وروى أن مجوسياً استضاف إبراهيم الخليل — عليه السلام — فلم يضيفه وقال : إن أسلمت ،

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده [٢٩/٣] . وهو ضعيف لأن فيه ابن لهيعة ودراج .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه كتاب « التوبة » ، باب « سقوط الذنوب بالاستغفار » ، رقم [١١] .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه كتاب « الإيمان » ، باب « الدين يسر » ، برقم [٣٦] ، مسلم فى كتاب « صفات المنافقين » ، رقم [٧١ ، ٧٦ ، ٧٨] ، المسند [١٦٧/٢] ، [٣٣٧/٣] .

(٤) الحج : ٢ .

(٥) الحديث فى صحيح البخارى كتاب « الرقاق » ، باب رقم [٤٦] حديث [٦٥٣٠] ، وصحيح مسلم وكتاب « الإيمان » ، باب : « يقول الله لآدم » .

أضفتك ، فأوحى الله — تعالى — إليه : يا إبراهيم منذ تسعين سنة أطعمه على كفره فسعى إبراهيم — عليه السلام — خلقه ، فردّه وأخبره في الحال ، فتعجب من لطف الله — تعالى — . فأسلم . فهذه الأسباب التي تجلب بها روح الرجاء إلى قلوب الخائفين واليائسين . فأما الحمقى المغرورون ، فلا ينبغي أن يسمعوها شيئاً من ذلك ، بل يسمعون ما سنورده في أسباب الخوف ، فإن أكثر الناس لا يصلحون إلا على ذلك ، كعبد السوء الذي لا يستقيم إلا بالعصا .

الشرط الثاني من الكتاب في

● الخوف وحقيقته وبيان درجاته وغير ذلك

اعلم : أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال . مثال ذلك ، من جنى على ملك جناية ، ثم وقع في يده ، فهو يخاف القتل ، ويجوز العفو ، ولكن يكون تألم قلبه بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله ، وتفاحش جنايته ، وتأثيرها عند الملك ، وبحسب ضعف الأسباب يضعف الخوف . وقد يكون الخوف لا عن سبب جنائية ، بل عن صفة المخوف وعظمته وجلاله ، إذ قد علم أن الله — سبحانه — لو أهلك العالمين لم يبال ، ولم يمنعه مانع ، فبحسب معرفة الإنسان بعيوب نفسه ، وبجلال الله — تعالى — واستغناؤه ، وأنه لا يسأل عما يفعل ، يكون خوفه .

وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبربه ، ولذلك قال النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — : « أنا أعرفكم بالله ، وأشدكم له خشية »^(١) . وقال — تعالى — : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾^(٢) . وإذا كملت المعرفة ، أثرت الخوف ، ففاض أثره على القلب ، ثم ظهر على الجوارح والصفات بالنحول والاصفرار والبكاء والغشى ، وقد يفضى إلى اللوت ، وقد يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل . وأما ظهور أثره على الجوارح ، فبكفها عن المعاصي ، وإلزامها الطاعات ، تلافياً لما فرط ، واستعداداً للمستقبل . قال بعضهم : من خاف أدلج . وقال آخر : ليس الخائف من بكى ، إنما الخائف من ترك ما يقدر عليه .

ومن ثمرات الخوف ، أنه يقمع الشهوات ، ويكدر اللذات ، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيّه إذا علم أن فيه سمّاً ، فتحترق الشهوات بالخوف ، وتتأدب الجوارح ، ويذل القلب ويستكين ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد ، ويصير مستوعب الهم لخوفه ، والنظر في خطر عاقبته ، فلا يتفرغ لغيره ، ولا يكون له شغل

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب ، باب من لم يواجه الناس بالعقاب ، رقم [٦١٠١] ، رواه

مسلم في صحيحه كتاب الفضائل ، باب علمه — ﷺ — بالله — تعالى — وحده وخشيته ، رقم [١٢٨] .

(٢) فاطر : ٢٨ .

إلا المراقبة والمحاسبة ، والمجاهدة ، والضئنة بالأنفاس واللحظات ، ومواخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات ، ويكون حاله كحال من وقع في مغالب سبع ضارٍ لا يدرى أيغفل عنه فيفلت ، أو يهجم عليه فيهلكه ، ولا شغل له إلا ما وقع فيه ، فقوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف ، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله — تعالى — ، وصفاته ، وبعبوب النفس ، وما بين يديها من الأخطار والأهوال . وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال ، أن يمنع المحظورات ، فإن منع ما يتطرق إليه إمكان التحريم ، سمي ورعاً ، وإن انضم إليه التجرد والاشتغال بذلك عن فضول العيش ، فهو الصدق .

● فصل الخوف سوط الله - تعالى -

اعلم : أن الخوف سوط الله — تعالى — يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل ، لينالوا بهما رتبة القرب من الله — تعالى — . والخوف ، له إفراط ، وله اعتدال ، وله قصور . والمحمود من ذلك الاعتدال ، وهو بمنزلة السوط للبيمة ، فإن الأصلح للبيمة أن لا تخلو عن سوط ، وليس المبالغة في الضرب محمودة ، ولا المتقاصر عن الخوف أيضاً محمود ، وهو كالذى يخطر بالبال عند سماع آية ، أو سبب هائل ، فيورث البكاء ، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس ، رجع القلب إلى الغفلة ، فهو خوف قاصر قبل الجدوى ، ضعيف النفع ، وهو كالقضيب الضعيف الذى يضرب به دابة قوية فلا يؤلمها ألماً مبرحاً ، فلا يسوقها إلى المقصد ، ولا يصلح لرياضتها ، وهذا هو الغالب على الناس كلهم ، إلا العارفين والعلماء ، أغنى العلماء بالله وبآياته ، وقد عز وجودهم . وأما المرتسمون برسوم العلم ، فإنهم أبطل الناس عن الخوف .

وأما القسم الأول ، وهو الخوف المفرط ، فهو كالذى يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط ، فهو أيضاً مذموم ، لأنه يمنع من العمل ، وقد يخرج المرض والوله والموت ، وليس ذلك محموداً ، وكل ما يراد لأمر ، فالمحمود منه ما يفضى إلى المراد المقصود منه ، وما يقصر عنه أو يجاوزه ، فهو مذموم ، وفائدة الخوف الحذر ، والورع ، والتقوى ، والمجاهدة والفكر ، والذكر ، والتعبد وسائر الأسباب التى توصل إلى الله — تعالى — ، وكل ذلك يستدعى الحياة ، مع صحة البدن وسلامة العقل ، فإذا قدح في ذلك شيء ، كان مذموماً .

فإن قيل : فما تقول فيمن مات من الخوف ؟ فالجواب : أنه ينال لموته على تلك الحال مرتبة لا ينالها لو مات من غير خوف ، إلا أنه لو عاش وترقى إلى درجات المعارف والمعاملة ، كان أفضل . فإن أفضل السعادة طول العمر في طاعة الله — تعالى — فكل ما أبطل العمر والعقل والصحة فهو نقصان وخسران .

● بيان أقسام الخوف

اعلم : أن مقامات الخائفين تختلف ، فمنهم من يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة ، ومنهم من يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم ، أو خوف الميل عن الاستقامة ، ومنهم من يغلب عليه خوف سوء الخاتمة . وأعلى من هذا خوف السابقة ، لأن الخاتمة فرع السابقة ، والله — تعالى — يرفع من يشاء من غير وسيلة ، ويضع من يشاء من غير وسيلة ، لا يسأل عما يفعل . وقد قال : « هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي » .

ومن أقسام الخائفين ، من يخاف سكرات الموت وشدته ، أو سؤال منكر ونكير ، أو عذاب القبر . ومنهم من يخاف هيبة الوقوف بين يدي الله — تعالى — ، والخوف من المناقشة ، والعبور على الصراط ، والخوف من النار وأهوالها ، أو حرمان الجنة ، أو الحجاب عن الله — سبحانه وتعالى — وكل هذه الأسباب مكروهة في أنفسها ، مخوفة . فأعلاما رتبة خوف الحجاب عن الله — تعالى — ، وهو خوف العارفين ، وما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدين .

فصل في فضيلة الخوف والرجاء وما ينبغى أن يكون الغالب منهما

فضيلة كل شيء بقدر إعاقته على طلب السعادة ، وهي لقاء الله — تعالى — ، والقرب منه ، فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة . قال الله — تعالى — : ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ ^(١) . وقال — تعالى — : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ ^(٢) . وفي الحديث عن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — أنه قال : « إذا اقشعر جلد العبد من مخافة الله — عز وجل — تحاتت عنه ذنوبه ، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها » ^(٣) . وفي حديث آخر : « لن يغضب الله على من كان فيه مخافة » .

وقال النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — : « قال الله — عز وجل — : وعزقي وجلالي ، لا أجمع على عبدى خوفين ، ولا أجمع له أمتين ، إن أمتني في الدنيا ، أخفته يوم القيامة ، وإن خافني في الدنيا ، أمنت يوم القيامة » ^(٤) . وعن ابن عباس — رضي الله عنهما — عن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — أنه قال : « عيان لا تمسهما النار أبدا : عين بكيت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله » ^(٥) .

واعلم : أن قول القائل : أيما أفضل الخوف ، أو الرجاء ؟ كقوله : أيما أفضل الخبز أو الماء ؟ وجوابه : أن يقال الخبز للجائع أفضل ، والماء للعطشان أفضل ، فإن اجتمعا ، نظر

(١) الرحمن : ٤٦ . (٢) البقرة : ١٧٧ .

(٣) رواه البيهقي والطبراني من حديث العباس بسند ضعيف [قاله العراقي ١٦٠/٤] .

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه [٢٤٩٤] من حديث أبي هريرة بسند حسن ، والبيهقي في الشعب ، وابن المبارك في الزهد ، وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين مرسلاً من رواية الحسن ، عن شداد بن أوس .

(٥) رواه الترمذي في « فضائل الجهاد » ، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله ، وقال : حسن غريب .

إلى الأغلب ، فإن استويا ، فهما متساويان ، والخوف والرجاء دواغان يداوى بهما القلوب ، فضلهما بحسب الداء الموجود ، فإن كان الغالب على القلب الأمن من مكر الله ، فالخوف أفضل ، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية ، وإن كان الغالب عليه اليأس والقنوط ، فالرجاء أفضل ، ويجوز أن يقال مطلقاً : الخوف أفضل ، كما يقال : الخبز أفضل من السكنجبين لأن الخبز يعالج به مرض الجوع ، والسكنجبين يعالج به مرض الصفراء ، ومرض الجوع أغلب وأكثر ، فالحاجة إلى الخبز أكثر ، فهو أفضل بهذا الاعتبار ، لأن المعاصي والاغترار من الخلق أغلب .

وإن نظرنا إلى موضع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل ، لأن الرجاء يُستقى من بحر الرحمة ، والخوف يُستقى من بحر الغضب . وأما المتقى ، فالأفضل عنده اعتدال الخوف والرجاء ، ولذلك قيل : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه ، لاعتدلا . قال بعض السلف : لو نودى : ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً ، لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل . ولو نودى : ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً ، لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل . وهذا ينبغي أن يكون مختصاً بالمؤمن المتقى . فإن قيل : كيف اعتدال الخوف والرجاء في قلب المؤمن ، وهو على قدم التقوى ؟ فينبغي أن يكون رجاؤه أقوى . فالجواب : أن المؤمن غير متيقن من صحة عمله ، فمثله من بذر بذراً ولم يجرب جنسه في أرض غريبة ، والبذر الإيمان ، وشروط صحته دقيقة ، والأرض القلب ، وخفايا خبثه وصفاته من النفاق ، وخبايا الأخلاق غامضة ، والصواعق أهوال سكرات الموت ، وهناك تضطرب العقائد ؟ وكل هذا يوجب الخوف عليه ، وكيف لا يخاف المؤمن ؟

وهذا عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يسأل حذيفة — رضى الله عنه — : هل أنا من المنافقين ؟ وإنما خاف أن تلبس حاله عليه ، ويستتر عيبه عنه ، فالخوف المحمود هو الذى يبعث على العمل ، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا . وأما عند نزول الموت ، فالأصلح للإنسان الرجاء ، لأن الخوف كالسوط الباعث على العمل ، وليس ثمة عمل ، فلا يستفيد الخائف حينئذ إلا تقطيع نياط^(١) قلبه ، والرجاء في هذه الحال يقوى قلبه ، ويجب إليه ربه ، فلا ينبغي لأحد أن يفارق الدنيا إلا محباً لله تعالى ، محباً للقائه ، حسن الظن به . وقد قال سليمان التيمي عند الموت لمن حضره : حدثنى بالرخص ، لعلى ألقى الله وأنا أحسن الظن به .

● فصل فى بيان الدواء الذى يستجلب به الخوف

وذلك يحصل بطريقتين : أحدهما أعلى من الآخر . مثاله أن الصبى إذا كان فى بيت ، فدخل عليه سبع ، أو حية ، ربما لم يخف منه ، وربما مد يده إلى الحية ليأخذها يلعب

(١) النياط : عرق على به القلب من الوتين .

بها ، ولكن إذا كان معه أبوه فهرب منها وخافها ، هرب الصبي ، وخاف موافقة لآبيه ، فخوف الأب عن معرفة ، وخوف الولد من غير معرفة ، بل هو تقليد لآبيه . فإذا عرفت هذا ، فاعلم أن الخوف من الله — تعالى — على مقامين :

أحدهما : الخوف من عذابه ، وهذا خوف عامة الخلق ، وهو حاصل بالإيمان بالجنة والنار ، وكونهما جزأين على الطاعة والمعصية ، وبضعف هذا الخوف بسبب ضعف الإيمان ، أو قوة الغفلة . وزوال الغفلة يحصل بالتذكر ، والتفكير في عذاب الآخرة ، ويزيد بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ، أو سماع أخبارهم . **المقام الثاني : الخوف من الله — تعالى — وهو خوف العلماء العارفين . قال الله — تعالى — : ﴿ وَيَحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾^(١) . وصفاته سبحانه تقتضى الهيبة والخوف ، فهم يخافون البعد والحجاب .**

قال ذو النون : خوف النار عند خوف الفراق ، كقطرة في بحر ، ولعامة الناس حظ من هذا الخوف ، ولكن بمجرد التقليد ، فهو يضاهي خوف الصبي من الحية ، تقليداً لآبيه ، فلذلك يضعف ، فإن العقائد التقليدية ضعيفة في الغالب ، إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المولدة لها على الدوام ، وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات ، واجتناب المعاصي ، فإذا ارتقى العبد إلى معرفة الله — تعالى — ، خافه بالضرورة ، ولا يحتاج إلى علاج يجلب الخوف إلى قلبه ، بل يخاف بالضرورة .

ومن قصر ، فسيبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار ، فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم ، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين ، فلا يتأري في أن الاقتداء بهم أولى ، لأنهم الأنبياء والعلماء والأولياء . وفي « صحيح مسلم » من حديث عائشة — رضى الله عنها — ، قالت : دعى رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — إلى جنازة غلام من الأنصار . فقلت : يارسول الله ، طوى لهذا ، عصفور من عصافير الجنة ، لم يدرك الشر ولم يعمل ، قال : « أو غير ذلك ياعائشة ؟ إن الله — عز وجل — خلق للجنة أهلاً ، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلاً ، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم »^(٢) . ومن أعجب ما ظاهره الرجاء وهو شديد التخويف ، قوله — تعالى — : ﴿ وَإِنِّي لَأَفْقَارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾^(٣) . فإنه علق المغفرة على أربعة شروط ، يبعد تصحيحها .

ومن المخوفات قوله — تعالى — : ﴿ وَالْعَصْرُ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴾^(٤) . ثم ذكر

(١) آل عمران : ٣٠ .

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب « القدر » ، رقم [٣١] ، الإمام أحمد في المسند [٤١/٦ ، ٢٠٨] .

(٣) طه : ٨٢ .

(٤) العصر : ١ ، ٢ .

بعدها أربعة شروط ، بها يقع الخلاص من الخسران . وقال — تعالى — ﴿ وَلَوْ شَاءَ لِأَيْنَا كُلُّ نَفْسٍ هُدَاهَا ، وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (١) . ومعلوم أنه لو كان الأمر مستأنفاً لامتدت الأطماع في التحيل ، فأما ما حُقِّق في القدم ، فلا يمكن تداركه ، فليس إلا التسليم ، لولا أن الله — تعالى — لطف بعارفيه ، وروح قلوبهم بالرجاء ، لاحترقت من نار الخوف . وقال أبو الدرداء — رضى الله عنه — : ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه .

ولما حضرت سفيان الثوري الوفاة ، جعل يكي ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله : أراك كثير الذنوب ، فرفع شيئاً من الأرض وقال : والله لذنوبى أهون عندي من هذا ، ولكن أخاف أن أسلب الإيمان قبل الموت . وكان سهل — رحمه الله تعالى — يقول : المرید يخاف أن يتلى بالمعاصي ، والعارف يخاف أن يتلى بالكفر . ويروى أن نبياً من الأنبياء ، شكاً إلى الله — تعالى — الجوع والعري ، فأوحى الله — عز وجل — إليه : « عدى ، أما رضيت أن عصمت قلبك أن يكفرني حتى تسألني الدنيا ؟ » فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال : بلى قد رضيت ، فاعصمني من الكفر .

فإذا كان هذا خوف العارفين من سوء الخاتمة مع رسوخ أقدامهم ، فكيف لا يخاف ذلك الضعفاء ؟! ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت ، مثل البدعة ، والنفاق ، والكبر ، ونحو ذلك من الصفات المذمومة ، ولذلك اشتد خوف السلف من النفاق . قال بعضهم : لو أعلم أنى برئ من النفاق ، كان أحب إلي مما طلعت عليه الشمس ، ولم يريدوا بذلك نفاق العقائد ، إنما أرادوا نفاق الأعمال ، كما ورد في الحديث الصحيح : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » (٢) .

وسوء الخاتمة على رتبتين : إحداها أعظم ، وهى أن يغلب على القلب والعياذ بالله شك ، أو جحود عند سكرات الموت وأهواله ، فيقتضى ذلك العذاب الدائم . والثانية دونها ، وهى أن يسخط الأقدار ، ويتكلم بالاعتراض ، أو يجور في وصيته ، أو يموت مصراً على ذنب من الذنوب .

وقد روى أن الشيطان لا يكون في حال أشد على ابن آدم من حال الموت ، يقول لأعوانه : دونكم هذا ، فإنه إن فاتكم اليوم لم تلحقوه . وقد روى عن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — ، أنه كان يدعو : « اللهم إني أعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت » . قال الخطاى : وذلك أن يستولى على الإنسان حينئذ ، فيضله ويحول بينه وبين التوبة أو يمنعه

(١) السجدة : ١٣ .

(٢) رواه أبو داود في سننه كتاب الصلاة رقم [١٥٥٢] وصححه الحاكم في المستدرک [٥٣١/١] ووافقه الذهبي .

الخروج من مظلمة ، أو يؤيسه من — رحمة الله — ويكره إليه الموت ، فلا يرضى بقضاء الله — عز وجل — . والأسباب التي تفضي إلى سوء الخاتمة لا يمكن انحصارها على التفصيل ، لكن يمكن الإشارة إلى مجامع ذلك ، أما الختم على الشك والجهود ، فسببه البدعة ، ومعناها أن يعتقد في ذات الله — تعالى — ، أو صفاته ، أو أفعاله خلاف الحق ، إما تقليداً ، أو برأيه الفاسد ، فإذا انكشف الغطاء عند الموت ، بان له بطلان ما اعتقده ، فيظن أن جميع ما اعتقده هكذا لا أصل له .

ومن اعتقد في الله — سبحانه — وصفاته اعتقاداً مجملاً على طريقة السلف من غير بحث ولا تنقير ، فهو بمعزل عن هذا الخطر إن شاء الله — تعالى — . وأما الختم على المعاصي ، فسببه ضعف الإيمان في الأصل ، وذلك يورث الانهمك في المعاصي ، والمعاصي مطفئة لنور الإيمان ، وإذا ضعف الإيمان ضعف حب الله — تعالى — ، فإذا جاءت سكرات الموت ، ازداد ذلك ضعفاً ، لاستشعاره فراق الدنيا ، فإن السبب الذي يفضي إلى مثل هذه الخاتمة ، وهو حب الدنيا ، والركون إليها ، مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله ، فمن وجد في قلبه حب الله — تعالى — ، أغلب من حب الدنيا ، فهو أبعد من هذا الخطر ، وكل من مات على حبة الله — تعالى — ، قدم به قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه ، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم ، فضلاً عما يستحقه من الإكرام .

ومن فارق الروح في حال ، خطر بباله فيها لإنكار على الله — سبحانه — في فعله ، أو كان مصراً على مخالفته ، قدم على الله قدوم من قدم به قهراً ، فلا يخفى ما يستحقه من النكال . فمن أراد طريق السلامة ، ترحزح عن أسباب الهلاك ، على أن العلم بتقليب القلوب وتغيير الأحوال ، يقلقل قلوب الخائفين . وقد ورد في « الصحيحين » من حديث سهل بن سعد ، أن رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « إن الرجل يعمل بعمل أهل النار ، وإنه لمن أهل الجنة ، وإن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار »^(١) . وروى : « إن العبد إذا عرج بروحه إلى السماء ، قالت الملائكة : سبحان الله ! نجا هذا العبد من الشيطان : يا ويحه ! كيف نجا ؟ »^(٢) وإذا عرفت معنى سوء الخاتمة ، فاحذر أسبابها ، وأعد ما يصلح لها ، وإياك والتسويق بالاستعداد ، فإن العمر قصير ، وكل نفس من أنفاسك بمنزلة خاتمتك ، لأنه يمكن أن تخطف فيه روحك ، والإنسان يموت على ما عاش عليه ، ويحشر على ما مات عليه :

واعلم : أنه لا يتيسر لك الاستعداد بما يصلح ، إلا أن تقنع بما يقيمك ، وترفض طلب

(١) رواه البخاري في كتاب « الرقاق » ، باب « الأعمال بالخواتيم » ، رقم [٦٤٩٣] ، ومسلم في « القدر » ، رقم ١٢ ، ١ ، وفي « الإيمان » ، رقم [١٧٩] .

(٢) ذكره صاحب الإحياء [١٧٥/٤] وجعله من قول حامد اللطاف ولم يرفعه .

الفضول وسنورد عليك من أخبار الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة من قلبك ، فإنك متحقق أن الأنبياء والأولياء كانوا أعقل منك ، فتفكر في اشتداد خوفهم ، لعلك تستعد لنفسك .

● ذكر خوف الملائكة عليهم السلام

قال الله — تعالى — فى صفتهم : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقَهُمْ وَيُقَلِّبُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾^(١) . وقد روينا عن النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — أنه قال : « إن لله ملائكة ترعد فروائضهم من مخافته »^(٢) . وذكر تمام الحديث . وبلغنا أن من حملة العرش من تسيل عينيه مثل الأنهار ، فإذا رفع رأسه قال : سبحانك ما تُخشى حق خشيتك ، فيقول الله : لكن الذين يخلفون باسمى كاذبين لا يعلمون ذلك . وعن جابر — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « لما كان ليلة أسرى لى ، رأيت جبريل — عليه السلام — كالشن^(٣) البالى من خشية الله — تعالى — » . وبلغنا أن جبريل — عليه السلام — جاء إلى النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — وهو يبكى فقال له : « ما يبكيك ، قال : ما جفت لى عين منذ خلق الله جهنم مخافة أن أعصيه ، فيلقينى فيها » . وعن يزيد الرقاشى^(٤) قال : إن لله — تعالى — ملائكة حول العرش تجرى أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة ، يمدون كأنما تنفضهم الريح من خشية الله — تعالى — ، فيقول لهم الرب — عز وجل — : يا ملائكتى ما الذى يخيفكم وأنتم عندى ؟ فيقولون : يارب ! لو أن أهل الأرض اطلعوا من عزتك وعظمتك على ما اطلعنا عليه ، ما أساغوا طعاماً ولا شرباً ، ولا انبسطوا فى فرشهم ، ولخرجوا إلى الصحارى يخفون كما تخفون البقر . وقال محمد بن المنكدر : لما خلقت النار ، طارت أهدة الملائكة من أماكنها ، فلما خلق آدم عادت . وروى أنه لما ظهر من إبليس ما ظهر ، طفق جبريل وميكائيل يبكيان ، فأوحى الله — تعالى — إليهما : « ما هذا البكاء ؟ قالوا : يارب ؟ ما نأمن من مكرك . فقال — تعالى — : هكذا فكونا » .

● ذكر خوف الأنبياء — عليهم السلام —

قال وهب : بكى آدم — عليه السلام — على الجنة ثلاثمائة عام ، وما رفع رأسه إلى

(١) النحل : ٥٠ .

(٢) الحديث ذكره السيوطى فى جمع الجوامع [٢٦٠/١] بتمامه ، وعزاه لأبى الشيخ فى العظمة واليهقى فى شعب الإيمان والخطيب فى تاريخه وابن عساكر عن رجل من الصحابة . وكأ ترى فإسناده ضعيف لجهالة الراوى ، والله أعلم .
(٣) الشن والشنة : القرية الخلقى .

(٤) يزيد بن أبان الرقاشى : معروك الحديث [الميزان ٤/٤١٨ ، الكبير ٣٢٠/٨ ، الضعفاء والمتروكين للنسافى رقم ٦٤٢] .

السماء بعد ما أصاب الخطيئة . وقال وهيب بن الورد : لما عاتب الله — تعالى — نوحاً — عليه السلام — فى ابنه فقال : ﴿إِنِّى أَعْطُكَ أَنْ تُكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(١) . بكى ثلاثمائة عام حتى صار تحت عينيه أمثال الجداول من البكاء . وقال أبو الدرداء — رضى الله عنه — : كان يسمع لصدر إبراهيم — عليه السلام — إذا قام إلى الصلاة أزيز من بُعد خوفاً من الله — عز وجل — .

وقال مجاهد : لما أصاب داود — عليه السلام — الخطيئة ، خر لله ساجداً أربعين يوماً حتى نبت من دموع عينيه من البقل ما غطى رأسه ، ثم نادى يارب : قرح الجبين ، وجهدت العين ، وداود لم يرجع إليه فى خطيئته شئ ، فنودى : أجانع أنت قطعهم ؟ أم مريض فتشفى ؟ أم مظلوم فتنصر ، فنحب نحيباً حاج كل شئ نبت ، فعند ذلك غفر له . وقيل : كان داود — عليه السلام — يعود الناس يظنون أنه مريض ، وما به إلا شدة الفرق من الله — عز وجل — . وكان عيسى — عليه السلام — إذا ذكر الموت يقطر جلده دماً . وبكى يحيى بن زكريا — عليهما السلام — حتى بدت أضراسه ، فاتخذت أمه قطعتين من لبود فألصقتهما بخديه .

● ذكر خوف نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم -

عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : ما رأيت رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — قط مستجعماً ضاحكاً ، حتى أرى لهواته^(*) إنما كان يتسم ، وكان إذا رأى غيماً وريحاً عرف ذلك فى وجهه ، فقلت : يا رسول الله : الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرفت الكراهة فى وجهك ! فقال : يا عائشة : ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ؟ قد عذب قوم بالزبح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا ، أخرجاه فى الصحيحين^(٢) . وكان — صلى الله عليه وآله وسلم — يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء^(٣) .

● ذكر خوف اصحابه - رضى الله عنهم -

روينا عن أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — أنه كان يمسك لسانه ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد . وقال : ياليتنى كنت شجرة تُغضد^(**) ثم تؤكل . وكذلك قال طلحة وأبو الدرداء وأبو ذر — رضى الله عنهم — . وكان عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يسمع آية فيمريض فيعاد أياماً . وأخذ يوماً تبنه من الأرض فقال : ياليتنى كنت هذه

(١) هود : ٤٦ (*) اللهاة : قطعة من اللحم فى أقصى سقف الفم ، والجمع اللها واللهاوات واللهايات .

(٢) رواه البخارى فى التفسير — تفسير سورة الأحقاف ، مسلم فى الاستسقاء ، رقم [١٥ ، ١٦] .

(٣) المسند [٢٥/٤ ، ٢٦] ، ابن ماجه فى المقدمة ، باب [٣] رقم [٢٨] .

(**) لَطَعَ .

التبنة ، ياليتنى لم أكن شيئاً مذكوراً ، ياليت أُمى لم تلدنى . وكان فى وجهه خطان أسودان من البكاء . وقال عثمان — رضى الله عنه —: وددت أنى إذا مت لا أبعث . وقال أبو عبيدة ابن الجراح — رضى الله عنه —: وددت أنى كنت كبشاً فذبحنى أهلى ، فأكلوا لحمى ، وحسوا مرقى . وقال عمران بن حصين : ياليتنى كنت رماداً تذرؤه الرياح . وقال حذيفة — رضى الله عنه —: وددت أن لى إنساناً يكون فى مالى ، ثم أغلق على بابى ، فلا يدخل على أحد حتى ألحق بالله — عز وجل —. وكان مجرى الدمع فى خد ابن عباس — رضى الله عنه — كالشراك البالى . وقالت عائشة — رضى الله عنها —: ياليتنى كنت نسياً منسياً .

وقال على — رضى الله عنه —: والله لقد رأيت أصحاب محمد — صلى الله عليه وآله وسلم —، فما أرى اليوم شيئاً يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شعناً غبراً ، بين أعينهم أمثال ركب المعزى ، قد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله — تعالى —، يراوون بين جباهم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا فذكروا الله — عز وجل —، مادوا كما يمد الشجر فى يوم الريح ، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم ، والله لكأن القوم باتوا غافلين .

● ذكر خوف التابعين ومن بعدهم

قال هرم بن حيان : وددت والله أنى شجرة أكلتنى ناقة ، ثم قذفتى بعراً ، ولم أكابد الحساب يوم القيامة ، إنى أخاف الداهية الكبرى . وكان على بن الحسين إذا توضعاً أصفر وتغير ، فيقال : مالك ؟ فيقول : أندرون بين يدى من أريد أن أقوم ؟ وكان محمد بن واسع يبكى عامة الليل لا يكاد يفتقر . وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير ، ويبكى حتى تجرى دموعه على لحيته ، وبكى ليلة فبكى أهل الدار ، فلما تجلت عنهم العبرة قالت فاطمة : بأبى أنت يأمر المؤمنين مم بكيت ؟ قال : ذكرت منصرف القوم من بين يدى الله — تعالى —، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير . ثم صرخ وغشى عليه .

ولما أراد المنصور بيت المقدس ، نزل براهب كان ينزل به عمر بن عبد العزيز فقال له : أخبرنى بأعجب ما رأيت من عمر . فقال : بات ليلة على سطح غرفتى هذه وهو من رخام ، فإذا أنا بماء يقطر من الميزاب ، فصعدت فإذا هو ساجد ، وإذا دموع عينه تنحدر من الميزاب . وقد روينا عن عمر بن عبد العزيز وفتح الموصلى أنهما بكيا الدم . وقال إبراهيم بن عيسى الشكرى : دخلت على رجل بالبحرين قد اعتزل الناس ، وتفرغ لنفسه ، فذاكرته شيئاً من أمر الآخرة ، وذكر الموت . قال : فجعل يشهق حتى خرجت نفسه . وقال مسمع : شهدت عبد الواحد بن زيد . وهو يعظ ، فمات يومئذ فى ذلك المجلس أربعة أنفس . وكان يزيد بن مرشد يبكى كثيراً ويقول : والله لو تواعدنى ربى

أن يسجننى فى الحمام ، لكان حقى أن لا أفر من البكاء ، فكيف وقد تواعدنى أن يسجننى فى النار إن عصيته ١٩ وقال السرى السقطى : إنى لأنظر كل يوم إلى أنفى مخافة أن يكون قد اسود وجهى . فهذه مخاوف الملائكة والأنبياء والعلماء والأولياء ، ونحن أجدر بالخوف منهم ، ولكن ليس الخوف بكثرة الذنوب ولكن بصفاء القلوب وكمال المعرفة ، وإنما أمنا لغلبة جهلنا وقوة قساوتنا ، فالقلب الصافى تحركه أدنى مخافة ، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ .

قال بعض السلف : قلت لراهب : أوصنى ، فقال : إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته(*) السباع والهوام ، فهو خائف حذر يخاف أن يغفل فيفترسه ، أو يسهر فينهشه ، فهو مذعور فافعل . قلت : زدنى . فقال : الظمآن يجزيه من الماء أيسره . وما ذكره هذا الراهب من تقدير شخص احتوشته السباع والهوام ، فهو حقيقة فى حق المؤمن ، فإن من نظر إلى باطنه بنور بصيرته ، رآه مشحوناً بالسباع والهوام ، كالغضب ، والحقد ، والحسد ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، وغير ذلك ، وكلهن ينهشنه ويفترسنه إن سها عنهن ، إلا أنه محجوب عن مشاهدتها ، فإذا انكشف الغطاء ووضع فى القبر ، عاينها متمثلة حيات وعقارب يلدغنه ، وإنما هى صفاته الحاضرة الآن ، فمن أراد أن يقهرها قبل الموت ويقتلها فليفعل ، وإلا فليوطن نفسه على لدغها لصميم قلبه ، فضلاً عن ظاهر بشرته والسلام . آخر كتاب الخوف ..

● كتاب الزهد والفقر

اعلم : أن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وبغضها أسباب كل طاعة ، وقد سبق ذم الدنيا فى ربيع المهلكات ، ونحن نذكر الآن فضل البغض لها والزهد فيها ، فإنه رأس المنجيات . ومقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقراً ، وإما بانزواء العبد عنها ، ويسمى ذلك زهداً ، ولكل واحد منهما درجة فى نيل السعادات ، وحظ فى الإعانة على الفوز والنجاة . ونحن نذكر الفقر ، والزهد ، ودرجاتهما ، وأقسامهما ، وما يتعلق بهما فى شطرين :

© الشطر الأول من الكتاب فى الفقر :

اعلم : أن الفقير إلى الشيء هو المحتاج إليه ، وكل موجود سوى الله — تعالى — فهو فقير ، لأنه محتاج إلى دوام الوجود ، وذلك مستفاد من فضل الله — تعالى — .

أحوال الفقر : وأما فقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته فلا يحصر ، ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال ، ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند فقره : الأولى : أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به ، وهرب من أخذه بغضاً له ، واحترازاً من شره وشغله ،

(*) احوشوه : أحاطوا به وجعلوه بينهم .

وصاحب هذه الحالة يسمى زاهداً . الحالة الثانية : أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح بحصوله ، ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ، وصاحب هذه الحالة يسمى راضياً .

الثالثة : أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه ، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه ، بل إن أتاه عفواً أو صفواً أخذته وفرح به ، وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به . وصاحب هذه الحالة يسمى قانعاً . الرابعة : أن يكون تركه للطلب لعجزه ، وإلا فهو راغب فيه ، لو وجد سبيلاً إلى طلبه بالتعب لطلبه ، وصاحب هذه الحالة يسمى الحريص . الخامسة : أن يكون مضطراً إلى ما قصده من المال ، كالجائع ، والعارى الفاقد للمأكل والملبوس ، ويسمى صاحب هذه الحالة مضطراً ، كيفما كانت رغبته في الطلب ضعيفة أو قوية .

وأعلى هذه الخمس : الحالة الأولى، وهي : الزهد ، ووراءها حالة أخرى أعلى منها ، وهي أن يستوى عنده وجود المال وعدمه ، فإن وجده لم يفرح به ، ولم يتأذى إن فقده ، كما روينا عن عائشة — رضى الله عنها — أنها جاءها مال في غرارتين ، ففرقتة في يومها ، فقالت لها جاريتها : أما استطعت أن تشتري لنا مما قسمت لحماً بدرهم نفطر عليه ؟ فقالت : لو ذكرتني لفعلت . فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بخذاً في يده لم تضره ، إذ هو يرى الأموال في خزانة الله — تعالى — ، لا في يد نفسه .

وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغنى ، لأنه غنى عن فقد المال ووجوده جميعاً ، ومتى كان الزاهد في الدنيا لا يرغب في وجودها ، ولا عدمها ، فهو في غاية الكمال . قال أحمد بن أبي الخوارى لأبي سليمان الداراني : قال مالك بن دينار للمغيرة : اذهب إلى البيت فخذ الزكاة التي أهديتها لي ، فإن الشيطان يوسوس لي أن اللص قد أخذها ، فقال أبو سليمان : هذا من ضعف الزهد ، هو قد زهد في الدنيا ما عليه من أخذها ، فالهرب من المال والزهد فيه في حق الضعفاء كمال ، فأما في حق الأنبياء والأقوياء ، فسواء عليهم وجوده وعدمه . وقد يظهر القوى النفار من المال ليقترى به الضعفاء في الترك ، والله أعلم .

● فصل في فضيلة الفقر وتفضيل الفقر على الغنى

أما الآيات فقد قال الله — تعالى — في معرض المدح في حق الفقراء : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾^(١) الآية . وقال : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاْجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾^(٢) .. الآية . وأما الأخبار فكثيرة ، منها : قوله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء ، إلا أن أصحاب الجحْد محبوسون » وذكر تمام الحديث . وهو في « الصحيحين »^(٣) .

(١) البقرة : ٢٧٣ . (٢) الحشر : ٨

(٣) رواه البخارى في « الرقاق » ، باب « صفة الجنة والنار » رقم [٦٥٤٧] ، الإمام أحمد في المسند [٢٠٥/٥] =

وفيهما من حديث أبي هريرة - رضى الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال : «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»^(١). وفيهما من حديث عائشة - رضى الله عنها - قالت : ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض^(٢). وفي أفراد مسلم من حديث عمر - رضى الله عنه - قال : لقد رأيت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يظل اليوم يلتوى ما يجد دقلاً يملأ بطنه^(٣). وروى أبو هريرة - رضى الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال : «يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام» وقال الترمذى : حديث صحيح^(٤). وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - لعائشة - رضى الله عنها - : «إياك ومجالسة الأغنياء»^(٥). وقال : «يؤتى بالعبد يوم القيامة فيحذر الله - عز وجل - إليه كما يحذر الرجل إلى الرجل في الدنيا ، فيقول : وعزى وجلالى ما زويت الدنيا عنك هوانك على ، ولكن لما أعددت لك من الكرامة . اخرج يا عبدى إلى هذه الصفوف ، فمن أطعمك أو كساك يرهق بذلك وجهى ، فخذ بيده فهو لك»^(٦). وقيل لموسى - عليه السلام - : إذا رأيت الفقر مقبلاً ، فقل : مرحباً بشعار الصالحين ، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل : ذنب عجلت عقوبته . وقال أبو الدرداء : حساب ذى الدرهمين أشد حساباً من ذى الدرهم . وكان الفقراء يتقدمون في مجلس [سفيان] الثورى على الأغنياء . وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فلم يقبلها ، وقال : تريد أن تمحو اسمى من ديوان الفقراء ؟ لا أفعل . وقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : «طوبى لمن هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً ، وقع بما آتاه الله - عز وجل -»^(٧). وقد ذكرنا في القناعة وذم الحرص والطمع في كتاب ذم المال ما يغنى عن الإعادة ، ولا يقدر على ذلك إلا بعد قوة الصبر .

وأما التفضيل بين الغنى والفقر ، فظاهر النقل يدل على تفضيل الفقير ، ولكن لا بد من تفصيل ، فنقول : إنما يتصور الشك والخلاف في فقير صابر ليس بحريص بالإضافة إلى غنى

== [٢١٠] ، مسلم في «الذكر» ، رقم [٩٣] .

(١) رواه البخارى في كتاب «الرقاق» ، باب «كيف كان عيش النبي» ، برقم [٦٤٦٠] ، مسلم في «الزهد» ، رقم [١٨ ، ١٩] .

(٢) البخارى في كتاب «الرقاق» ، باب «كيف كان عيش النبي» ، رقم [٦٤٥٤] ، مسلم في «الزهد» ، رقم [٢١] .

(٣) رواه مسلم في «الزهد» ، رقم ٣٤ ، ٣٦ ، أحمد في المسند [٢٤/١] ، [٢٦٨/٤] .

(٤) المسند [٢٢٤/٣] ، ورواه الترمذى في صحيحه كتاب «الزهد» ، باب «فضل الفقر» ، وقال حديث حسن غريب .

(٥) أخرجه الترمذى في كتاب «اللباس» ، باب «ما جاء في ترقيع الثوب» ، ثم قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صالح بن حسان وقال : سمعت محمداً يقول صالح منكرو الحديث .

(٦) عزاه العزالى في تخرىج الإحياء [١٩٢/٤] لأبى الشيخ في الثواب من حديث أنس بسند ضعيف .

(٧) رواه الحاكم في المستدرک [٣٥/١] ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي .

شاكر ينفق ماله في الخيرات ، أو فقير حريص مع غنى حريص ، إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغنى الحريص الممسك ، وأن الغنى المنفق ماله في الخير أفضل من الفقير الحريص ، فإن كان متمتعاً بالمال في المباحات ، فالفقير القنوع أفضل منه . وكشف الغطاء في هذا أن ما يراد لغيره ، ولا يراد لعينه ، ينبغى أن يضاف إلى مقصوده ، إذ به يظهر فضله ، والدنيا ليست محذورة لعينها ، بل لكونها عاتقة عن الوصول إلى الله — تعالى — ، والفقر ليس مطلوباً لعينه ، ولكن لأن فيه فقد العائق عن الله — تعالى — ، وعدم التشاغل عنه .

وكم من غنى لا يشغله الغنى عن الله — تعالى — ، كسليمان — عليه السلام — ، وكذلك عثمان وعبد الرحمن بن عوف — رضى الله عنهما — . وكم من فقير شغله فقره عن المقصود ، وصرفه عن حب الله — تعالى — والأنس به ، وإنما الشاغل له حب الدنيا ، إذ لا يجتمع معه حب الله — تعالى — ، فإن المحب للشيء مشغول به ، سواء كان في فراقه ، أو في وصاله ، بل قد يكون شغله في الفراق أكثر . والدنيا معشوقة الغافلين ، فالحرور منها مشغول بطلبها ، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها . وإن أخذت الأمر باعتبار الأكثر ، فالفقير عن الخطر أبعد ، لأن فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ، ومن العصمة أن لا تجرد ، ولما كان ذلك طبع الآدميين إلا القليل منهم ، جاء الشرع بدم الغنى وفضل الفقر ، وقد تقدم ما يدل على فضله . ومن ذلك ما روى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « التقى مؤمنان على باب الجنة : مؤمن غنى ، ومؤمن فقير ، كانا في الدنيا ، فأدخل الفقير الجنة ، وحبس الغنى ما شاء الله — تعالى — أن يحبس ، ثم أدخل الجنة ، فلقية الفقير ، فقال : أى أخى : ماذا حبسك ؟ والله لقد احبست حتى خفت عليك ، فقال : أى أخى : حبست بعدك حبساً فظيماً كريهاً ، وما وصلت إليك حتى سال منى العرق ما لو ورده ألف بعير كلها آكلة حمض ، لصدرت عنه رواء » (١) .

واعلم : أن فراق الحبوب شديد ، فإذا أحبيت الدنيا ، كرهت لقاء الله — تعالى — ، فيكون قدمك بالموت على ما تكرهه ، وفراقك لما تحبه ، وكل من فارق محبوباً كان أذاه في فراقه بقدر حبه له وأنسه به ، فينبغى أن تحب من لا يفارقتك ، وهو الله — تعالى — ، ولا تحب الدنيا التي تفارقتك .

● فصل في آداب الفقير في فقره

ينبغى له أن لا يكون كارهاً لما ابتلاه الله به من الفقر . وأرفع من هذا أن يكون راضياً فرحاً ، ويكون متوكلاً على الله — سبحانه — ، واثقاً به ومتى عكس الحال ، وكان يشكو

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [٣٠٤/١] وفي مسنده جهالة أحد الرواة .

إلى الخلق ، ولا يشكو إلى الله — تعالى — ، كان الفقر عقوبة في حقه ، فلا ينبغي له إظهار الشكوى ، بل يظهر التعفف والتجمل . قال الله — تعالى — : ﴿ يَخْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾^(١) . وينبغي للفقير أن لا يتواضع لغنى لأجل غناه ، ولا يرغب في مجالسته . وينبغي له أيضاً أن لا يفتر عن العبادة بسبب فقره ، ولا يمنع بذل ما فضل عنه ، فإن ذلك جهد المقل . روى أبو ذر — رضى الله عنه — قال : قلت : يا رسول الله : أى الصدقة أفضل ؟ قال : « جهد من مقل إلى فقير في السر »^(٢) .

● بيان آدابه في قبول العطاء

إذا جاءه بغير سؤال ينبغي أن يلاحظ فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس المال ، وغرض المعطى ، وغرضه في الأخذ .

● [الأول] أما في نفس المال ، فينبغي أن يكون خالياً عن الشبهات كلها ، فإن كان فيه شبهة فليحترز عن أخذه . وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة ، وما يجب اجتنابه ، وما يستحب . وأما غرض المعطى ، فلا يخلو ، إما أن يكون طلباً للمحبة ، وهو الهدية ، فلا بأس بقبولها إذا لم تكن رشوة ولم يكن فيها منة .

● الثاني : أن يكون غرض المعطى الثواب ، وهو الزكاة والصدقة ، فعليه أن ينظر في صفات نفسه ، هل هو مستحق أم لا ؟ فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة ، وإن كان صدقة ، فكان المعطى إنما يعطيه لدينه ، فلينظر إلى باطنه ، فإن كان مقارناً لمعصية في السر ، يعلم أن المعطى لو علم بذلك ، لنفر طبعه ولما تقرب إلى الله بالصدقة عليه ، لم يأخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم فلم يكن .

● الثالث : أن يكون غرض المعطى الشهرة والرياء والسمعة ، فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ، ولا يأخذه ، لأنه إذا قبله يكون معيئاً له على قصده الفاسد . وأما غرضه في الأخذ ، فلينظر أهو محتاج إليه أو مستغن عنه ؟ فإن كان مستغنياً لم يأخذه ، وإن كان محتاجاً إليه ، وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها ، فالأفضل له الأخذ ، لما روى عن عمر — رضى الله عنه — ، أن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل ، فخذ ، وما لا فلا تتبعه نفسك » أخرجه في « الصحيحين »^(٣) . وفي حديث آخر : « من جاءه من أخيه معروف من غير إشراف ولا مسألة ، فليقبله ولا يرده ، فإنما هو رزق ساقه الله إليه » .

(١) البقرة : ٢٧٣ . (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند [١٧٨/٥] وفيه على بن يزيد الألهاني (ضعيف) .

(٣) رواه البخاري في الأحكام باب رزق الحاكم والعاملين عليها رقم [٧١٦٣] ، ومسلم في « الزكاة » ، رقم [١١٠ ، ١١١] ، الإمام أحمد في المسند [١٧/١ ، ٢١] — [٩٩/٢] .

(٤) في كنز العمال [ج ١٦٥٦١/٦] عزاه لابن أبي شيبة وابن سعد وأبو يعلى والهيوى وابن حبان والبيهقي =

● فصل فى بيان تحريم السؤال من غير ضرورة

وآداب الفقير المضطر فى السؤال

اعلم : أنه قد ورد فى السؤال أحاديث فى النهى عنه ، وفى الترخيص فيه . أما الترخيص ، فكقوله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « للسائل حق وإن جاء على فرس »^(١) : وفى بعض الأحاديث : « ردوا السائل ولو بظلف محرق »^(٢) . ولو كان السؤال حراماً ، لما جاز إعانة المعتدى على عدوانه ، والإعطاء إعانة . وأما أحاديث النهى عن السؤال : فروى ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله — عز وجل — وليس فى وجهه مزعة لحم » أخرجاه فى « الصحيحين »^(٣) . وفيهما أيضاً : أنه — صلى الله عليه وآله وسلم — ذكر التعفف عن المسألة فقال : « اليد العليا خير من اليد السفلى »^(٤) . واليد العليا المعطية ، والسفلى السائلة . وفى حديث ابن مسعود — رضى الله عنه — : أنه — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « من سأل وله ما يغنيه ، جاءت مسأله يوم القيامة خدوشاً أو كدوحاً فى وجهه »^(٥) . إلى آخره . وهو حديث حسن ، وفى المعنى أحاديث كثيرة . وكشف الغطاء فى هذا أن نقول : السؤال فى الأصل حرام ، لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور : أحدها : الشكر . والثالث : إذلال نفسه ، وما ينبغى للمؤمن أن يذل نفسه . والثالث : إيذاء المستول غالباً .

وإنما يباح السؤال فى حال الضرورة والحاجة المهمة القريبة من الضرورة . أما المضطر ، فهو كسؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً أو مرضاً ، وكسؤال العارى الذى ليس له ما يواريه . وأما احتياج حاجة مهمة فهو كمن له جبة ولا قميص تحتها فى الشتاء ، فهو يتأذى بالبرد تأذياً لا ينتهى إلى حد الضرورة ، فكذلك من يقدر على المشى لكن بمشقة ، يجوز له أن يسأل أجره يكثرى بها للركوب ، وتركه أولى . ومن وجد الخبز وهو محتاج إلى الأدم ، فله أن يسأل مع الكراهة ، وكذلك إذا سأل المحمل من هو قادر على الرحلة . وينبغى فى مثل هذه المسألة أن يظهر الشكر لله — تعالى — ولا يسأل سؤال محتاج ،

= فى الشعب وأبى نعيم عن خالد بن عدى الجهنى ، قال البهوى : لا أعلم له غيره .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده [٢٠١/١] بسند جيد كما قال العراقى .

(٢) الحديث فى المسند [٧٠/٤] ، [٤٣٥/٦] .

(٣) رواه البخارى فى كتاب « الزكاة » ، باب « من سأل الناس تكثراً » ، رقم [١٤٧٤] ، الإمام أحمد فى المسند [٨٨ ، ١٥٠/٢] .

(٤) رواه البخارى فى « الرقاق » ، باب « قول النبى هذا المال خثرة حلوة » ، رقم [٦٤٤١] ، مسلم فى « الزكاة » ، رقم [٩٤ — ٩٧] .

(٥) رواه الإمام أحمد فى المسند [٣٨٨/١ ، ٤٤١] ، وابن ماجه فى « الزكاة » ، باب « من سأل عن ظهر هنى » ، رقم [١٨٤٠] .

بل يقول : أنا مستغن بما أملكه ، وإنما النفس تطالبني ، فيخرج بهذا عن حد الشكوى لله — تعالى — . وينبغي أن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي لا ينقص بذلك في عينه ، أو السخي الذي أعد ماله للمكارم ، فيخرج بذلك من الدل . وإن أخذ ممن يعلم أنه إنما أعطاه حياءً ، لم يجوز له الأخذ ، ويجب رده إلى صاحبه . ولا يجوز للفقير أن يسأل إلا مقدار ما يحتاج إليه ، من بيت يكنه ، وثوب يستره ، وطعام يقيجه . ويراعى في هذه الأشياء ما يدفع الزمان من غير تنوُّق^(١) في شيء من ذلك ، فإن كان يعلم أنه يجد من يسأله كل يوم ، لم يجوز أن يسأل أكثر من قوت يومه وليلته ، وإن خاف أن لا يجد من يعطيه ، أو خاف أن يعجز عن السؤال ، أبيح له السؤال أكثر من ذلك . ولا يجوز له في الجملة أن يسأل فوق ما يكفيه لسته ، وعلى هذا ينتزل الحديث المروى في تقدير الغنى بخمسين درهماً ، فإنها تكفي المنفرد المقتصد لسنة ، فأما ذو العائلة فلا .

● بيان أحوال السائلين

كان بشر الحافي يقول : الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل ، وإن أعطى لا يأخذ ، فهذا من الروحانيين . وفقير لا يسأل ، وإن أعطى أخذ ، فذاك من أهل حظيرة القدس . وفقير إذا احتاج سأل ، فكفارة مسأله صدقة في السؤال .

قال الشيخ جمال الدين — رحمه الله — : قلت : وفصل الخطاب أنه متى قدر الفقير على دفع الزمان من غير سؤال ، لم يجوز له أن يسأل ، فإن كان يندفع على مضض ، نظرت ، فإن كان مثله لا يحتمل ، ولا يخاف منه التلف ، فالسؤال مباح وتركه فضيلة ، وإن كان مثله لا يحتمل ، وجب عليه أن يسأل . قال سفيان الثوري — رحمه الله — : من جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار .

الشرط الثاني من الكتاب :

● وفيه بيان حقيقة الزهد وفضيلته

وذكر درجاته وأقسامه ونحو ذلك

اعلم : أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين ، والزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه ، وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوباً فيه بوجه من الوجوه ، فمن رغب عن شيء ليس مرغوباً فيه ولا مطلوباً في نفسه ، لم يسم زاهداً ، كمن ترك التراب لا يسمى زاهداً . وقد جرت العادة بتخصيص اسم الزاهد بمن ترك الدنيا ، ومن زهد في كل شيء سوى الله — تعالى — ، فهو الزاهد الكامل ، ومن زهد في الدنيا مع رغبته في الجنة ونعيمها ، فهو أيضاً زاهد ، ولكنه دون الأول .

(١) تنوُّق في الأمر : تأثُّق فيه .

واعلم : أنه ليس من الزهد ترك المال ، وبذله على سبيل السخاء والقوة ، واستمالة القلوب ، وإنما الزهد أن يترك الدنيا للعلم بحقارتها بالنسبة إلى نفاسة الآخرة . ومن عرف أن الدنيا كالثلج يذوب ، والآخرة كالدر يبقى ، قويت رغبته في بيع هذه بهذه . وقد دل على ذلك قوله — تعالى — : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ﴾ (١) . وقوله : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ (٢) . ومن فضيلة الزهد قوله — تعالى — : ﴿ وَلَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَهُمْ فِيهِ ﴾ (٣) .

وقال النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — : « من أصبح وهمه الدنيا ، شتت الله عليه أمره ، وفرق عليه ضيعته ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن أصبح وهمه الآخرة ، جمع الله له همه ، وحفظ عليه ضيعته ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة » (٤) . وقال الحسن : يحشر الناس عراً ما خلا أهل الزهد ، وقال : إن أقواماً أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب ، فأهينوها ، فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها . وقال الفضيل : جعل الشر كله في بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله في بيت ، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا . وكان بعض السلف يقول : الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن ، والرغبة فيها تكثر الهم والحزن .

● فصل في درجات الزهد وأقسامه

© درجات الزهد :

أحدها : من الناس من يزهد في الدنيا وهو لها مشتهٍ ، لكنه يجاهد نفسه ، وهذا يسمى : المتزهد ، وهو مبدأ الزهد . **الدرجة الثانية :** أن يزهد فيها طوعاً لا يكلف نفسه ذلك ، لكنه يرى زهده ويلتفت إليه ، فيكاد يعجب بنفسه ، ويرى أنه قد ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه ، كما يترك درهماً لأخذ درهمين ، وهذا أيضاً نقصان . **الدرجة الثالثة :** وهي العليا أن يزهد طوعاً ، ويزهد في زهده ، فلا يرى أنه ترك شيئاً ، لأنه عرف أن الدنيا ليست بشيء ، فيكون كمن ترك خرقة ، وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ، فإن الدنيا بالإضافة إلى نعيم الآخرة ، أحسن من خرقة بالإضافة إلى جوهرة ، فهذا هو الكمال في الزهد . **واعلم :** أن مثل من ترك الدنيا ، مثل من منعه عن باب الملك كلب على بابه ، فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بذلك ودخل ، فقرب من الملك ، أفتراه يرى لنفسه يداً عند الملك بلقمة ألقاها إلى كلبه في مقابلة ما قد ناله ؟ فالشيطان كلب في باب الله — عز وجل — ، ويمنع الناس من الدخول ، مع أن الباب مفتوح ، والحجاب مرفوع ، والدنيا كلقمة ، فمن

(١) النساء : ٧٧ .

(٢) النحل : ٩٦ .

(٣) طه : ١٣١ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند [١٨٣/٥] ، وابن ماجه في الزهد ، باب د الهم بالدنيا ، برقم [٤١٠٥] بسند جيد .

تركها لينال عز الملك ، فكيف يلتفت إليها ؟ ثم إن نسبتها ، أعنى ما سلم لكل شخص منها ولو عمّر ألف سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة ، أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا ، لأن الفانى لانسبة له إلى الباقى ، كيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدره ؟

© أقسام الزهد :

وأما أقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه ، فعلى ثلاث درجات : أحدها : الزهد للنجاة من العذاب ، والحساب ، والأهوال التى بين يدى الآدمى ، وهذا زهد الخائفين .
الدرجة الثانية : الزهد للرغبة فى الثواب ، والنعيم الموعود به ، وهذا زهد الراجين فإن هؤلاء تركوا نعيماً لنعيم .
الدرجة الثالثة : وهى العليا . وهو أن لا يزهد فى الدنيا للتخلص من الآلام ، ولا للرغبة فى نيل اللذات ، بل لطلب لقاء الله — تعالى — ، وهذا زهد المحسنين العارفين ، فإن لذة النظر إلى الله — سبحانه وتعالى — بالإضافة إلى لذات الجنة ، كلذة ملك الدنيا ، والاستيلاء عليها ، بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به .

● فصل فى بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

والضروريات المهمات سبعة أشياء : المطعم ، والملبس ، والمسكن ، وأثاته ، والمنكح ، والمال ، والجاه .

● فأما الأول — وهو المطعم : فاعلم أن همة الزاهد منه ما يدفع به الجوع مما يوافق بدنه من غير قصد الالتذاذ . وفى الحديث : « إن عباد الله ليسوا بالمتعمين »^(١) . وقالت عائشة — رضى الله عنها — لعروة : كان يمر بنا هلال ، وهلال ، وهلال ، ما يوقد فى بيت رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — نار . قال : قلت : يا خالة : فعلى أى شىء كنتم تعيشون ؟ قالت : على الأسودين : الماء والتمر^(٢) . والأحاديث فى ذلك كثيرة مشهورة . وقد كان كثير من الزهاد يخشونون المطعم ، وكان فيهم من لا يطبق ذلك . فكان الثورى حسن المطعم ، وربما حمل فى سفرته اللحم المشوى والفالودج . وفى الجملة فالزاهد يقصد ما يصلح به بدنه ، ولا يزيد فى التمتع ، إلا أن الأبدان تختلف ، فمنها ما لا يحتمل التحشن . وقد يدخر بعض الناس الزاد الحلال بتقوته ، فلا يخرج ذلك من الزهد ، فقد كان السبتي يعمل من السبت إلى السبت ويتقوته . وورث داود الطائى عشرين ديناراً ، فأنفقها فى عشرين سنة .

● الثانى : الملبس : فالزاهد يقتصر فيه على ما يدفع الحر والبرد ، ويستر العورة ، ولا بأس أن يكون فيه نوع تجمل ، لئلا يخرج من التقشف إلى الشهرة . وكان أكثر لباس السلف خشناً فصار لبس الخشن شهرة .

وقد روى عن أبى بردة قال : أخرجت إلينا عائشة — رضى الله عنها — كساء ملبداً ،

(١) المسند [٢٤٤ ، ٢٤٣/٥] .

(٢) رواه البخارى فى « الحبة » باب [١] رقم [٢٥٦٧] ، ومسلم فى « الزهد » رقم [٢٨ ، ٣٠ ، ٣١] .

وإزاراً غليظاً ، وقالت : قبض رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — في هذين . أخرجاه في « الصحيحين »^(١) . وعن الحسن قال : خطب عمر — رضى الله عنه — وهو خليفة ، وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة .

● **الثالث : المسكن :** فللزاهد فيه ثلاث درجات . أعلاها : أن لا يطلب موضعاً خاصاً لنفسه ، بل يقنع بزوايا المساجد ، كأصحاب الصفة . وأوسطها : أن يطلب موضعاً خاصاً لنفسه ، مثل كوخ من سعف ، أو خص وما أشبه ذلك . وأدناها : أن يطلب حجرة مبنية ، ومتى طلب السعة وعلو السقف ، فقد جاوز حد الزهد في المسكن . وقد توفى رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — ولم يضع لبنة على لبنة . قال الحسن : كنت إذا دخلت بيوت رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — نلتُ السقف . وفي الحديث : « إن المسلم ليؤجر في كل شيء ينفقه إلا في شيء يجعله في هذا التراب »^(٢) . وقال إبراهيم النخعي — رحمه الله — : إذا كان البنيان كفافاً ، فلا أجر ولا وزر وفي الجملة : إن كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حد الزهد .

الرابع : أثاث البيت : فينبغي للزاهد أن يقتصر فيه على الخزف ، ويستعمل الإناء الواحد في مقاصده ، فيأكل في القصعة ، ويشرب فيها ، ومن خرج إلى كثرة العدد في الآلة ، أو في نفاسة الجنس ، خرج عن الزهد . ولينظر إلى سيرة رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — ففى « صحيح مسلم » من حديث عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — قال : دخلت على رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — وهو مضطجع على حصير ، وإذا الحصير قد أثر في جنبه ، فنظرت في خزانة رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — فإذا أنا بقبضة من شعير ، نحو الصاع . وفي رواية البخارى : فوالله ما رأيت شيئاً يرد البصر . والحديث مشهور في « صحيح مسلم »^(٣) .

وقال على — رضى الله عنه — : تزوجت فاطمة وما لى ولها فراش إلا جلد كبش ، كنا ننام عليه بالليل ، ونعلف عليه الناضح^(*) بالنهار ، وما لى خادم غيرها ، ولقد كانت تعجن ، وإن قُصتها^(**) لتضرب حرف الجفنة من الجهد الذى بها . ودخل رجل على أبى ذر — رضى الله عنه — ، فجعل يقلب بصره في بيته ، فقال : يا أبا ذر ! ما أرى في بيتك متاعاً ، ولا أثاثاً . فقال : إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا . فقال : إنه لا بد لك من متاع مادمت ههنا ، فقال : إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه .

(١) رواه البخارى في اللباس رقم [٥٨١٨] وابن ماجه في اللباس ، باب لباس رسول الله — ﷺ — ، رقم [٣٥٥١] ، والإمام أحمد في المسند [٣٢/٦ ، ١٣١] .

(٢) رواه الترمذى بحوه عن خباب في كتاب القيامة ، باب ما يعطى أهل الإيمان من حلل الجنة ، وقال : حديث حسن صحيح . (٣) صحيح مسلم في الزهد ، رقم ١٤٧٩ ، باب في الإيلاء واعتزال النساء ، (*) الناضح : بغير يُسقى عليه . (**) القصة : شعر الناصية .

● **الخامس : المنكح :** لا معنى للزهد في أصل النكاح ، ولا في كثرتة . قال سهل بن عبد الله : حُب إلى رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — النساء . وكان على — رضى الله عنه — من أزهد الصحابة ، وكان له أربع نسوة ، وبضع عشرة سرية . وكان أبو سليمان الداراني يقول : كل ما شغلك عن الله ، من أهل ، ومال ، وولد ، فهو مشؤوم . وكشف الغطاء عن ذلك أن نقول : من غلبت عليه شهوته وخاف على نفسه ، تعين عليه النكاح ، فأما من لا يخاف ، فهل النكاح في حقه أفضل أو التعبد ؟ فيه اختلاف بين العلماء ، والناس مختلفون فيه ، منهم من يقصد النكاح لطلب النسل ويمكنه الكسب الحلال للعائلة ، فلا يقدر ذلك في دينه ، ولا يتشتت قلبه ، بل يجمع النكاح همه ، ويكف بصره ، ويرد فكره ، فهذا غاية في الفضيلة ، وعليه يحمل حال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — ، وحال على — رضى الله عنه — ، ومن جرى مجراهما ، ولا التفات إلى قول من يرى الزهد بترك الالتذاذ بالنكاح ، فإن ذلك يقع ضمناً وتبعاً للمقصود .

وقد كان بعض السلف يختار المرأة الدون على الجميلة ، وذلك محمول على أن تلك تكون إلى الدين أميل ، والنفقة عليها أقل ، والاهتمام بأمرها يسير ، بخلاف المستحسنة ، فإنها تشتت القلب ، وتشغله ، وتريد زيادة في النفقة ، وربما لم يكن . وقد قال مالك بن دينار : يعمد أحدهم فيتزوج دياجة الحى (*) فتقول : أريد مرطاً (**). فتمرط دينه (***) .

● **السادس : المال :** وهو ضرورى في المعيشة ، فالزاهد يقتصر منه على ما يدفع به الوقت ، وكان في الصالحين من يتشاغل بالتجارة ويقصد بها العفاف . وكان حماد بن سلمة إذا فتح خانوته وكسب حبتين ، قام . وكان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت ، وخلف أربعمئة دينار ، وقال : إنما تركتها لأصون بها عرضى ودينى .

● **السابع : الجاه ،** ولا بد للإنسان من جاه حتى في قلب خادمه ، واشتغال الزاهد بالزهد يمهّد له الجاه في القلب ، فينبغى أن يتحرز من شر ذلك . وفي الجملة فإن الحوائج الضرورية ليست من الدنيا ، وكان كثير من السلف يعرض لهم بالمال الحلال ، فيقولون : لا نأخذه ، نخاف أن يفسد علينا ديننا .

● **فصل في بيان علامات الزهد**

قد تظن أن تارك المال زاهد ، وليس كذلك ، فإن ترك المال ، وإظهار التخشن ، سهل على من أحب المدح بالزهد ، فكم من راهب قد لازم الدير ، وقلل المطعم . وقوّاه على ذلك حب المحمّدة ، كما سبق ذكره في كتاب الرياء . ولا بد من الزهد في فضول الأموال والجاه جميعاً ، حتى يكمل الزهد في حظوظ النفس ، فأول معرفة الزهد مشكل . وقد

(*) يقصد : أجل فتيات الحى . (**) الجزط : واحد المؤروط وهى أكسية من صوف أو خز كان يؤنزر بها . (***) تمرط دبه : أى تذهب به ، يقال : تمرط شعره أى تحات (سقط) .

قال ابن المبارك : أفضل الزهد إخفاء الزهد ، وينبغي أن يعول في هذا على ثلاث علامات .
الأولى : أن لا يفرح بموجود ، ولا يحزن على مفقود ، كما قال — تعالى — : ﴿ لَكِيلًا تَأْسُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ ^(١) . وهذا علامة الزهد في المال . **الثاني :** أن يستوى عنده ذامه ومادحه ، وهذه علامة الزهد في الجاه . **الثالث :** أن يكون أنسه بالله ، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة . فأما محبة الدنيا ومحبة الله — تعالى — ، فهما في القلب كلماء والهواء في القدح ، إذا دخل الماء خرج الهواء ، فلا يجتمعان . قيل لبعضهم : إلام أفضى بهم الزهد ؟ قال : إلى الأنس بالله . قال يحيى بن معاذ : الدنيا كالعروس ، ومن يطلبها ما شطتها ، والزاهد فيها يسخم ^(٢) وجهها ، ويتنف شعرها ، ويغرق ثوبها ، والعارف مشغول بالله — تعالى — عنها . فهذا ما أردنا ذكره من حقيقة الزهد وأحكامه . وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله — تعالى — وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم حامداً ومسلماً على أحمد خير الأنام ومصباح الظلام .

● كتاب التوحيد والتوكل

بيان فضيلة التوكل

قال الله — تعالى — : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ^(١) . وقال : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ^(٢) .

وفي الحديث : أن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — ذكر أنه يدخل الجنة من أمته سبعون ألفاً لا حساب عليهم ، ثم قال : « هم الذين لا يكتون ، ولا يسترقون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » . أخرجاه في « الصحيحين » ^(٣) . وعن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — يقول : « لو أنكم توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم الله كما يرزق الطير تغدو خفافاً وتروح بطاناً » ^(٤) . وكان من دعاء النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — : « اللهم إني أسألك التوفيق غابك من الأعمال ، وصدق التوكل عليك ، وحسن الظن بك » ^(٥) .

(١) الحديد : ٢٣ .

(٢) السخمة : السواد ، الأسخم : الأسود ، والسخام : سواد القدر ، وسخم الله وجهه تسخيماً أى سوده تسويداً .

(٣) آل عمران : ١٢٢ . (٤) الطلاق : ٣ .

(٤) رواه البخاري في كتاب الطب باب من اكتوى أو كوى غيره ، رقم [٥٧٠٥] ، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان ، رقم [٣٧١ ، ٣٧٢] ، الإمام أحمد في المسند [٢٧١/١ ، ٤٠١ ، ٤٠٣] .

(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده [٣٠/١ ، ٥٢] . وابن ماجه في « الزهد » ، باب « التوكل واليقين » ، رقم

[٤١٦٤]

(٦) في كنز العمال [٣٦٥٤] عزاه لأبي نعيم في الحلية عن الأوزاعي مرسلاً ، وللحكيم الترمذي عن أبي هريرة

والتوكل يبتنى على التوحيد ، والتوحيد طبقات : منها أن يصدق القلب بالوحدانية المترجم عنها قولك ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، فيصدق بهذا اللفظ ، لكن من غير معرفة دليل ، فهو اعتقاد العامة . الثانية : أن يرى الأشياء المختلفة ، فيراها صادرة عن الواحد ، وهذا مقام المقربين . الثالثة : أن يرى الإنسان إذا انكشف عن بصيرته أن لا فاعل سوى الله ، لم ينظر إلى غيره ، بل يكون منه الخوف وله الرجاء وبه الثقة وعليه التوكل ، لأنه في الحقيقة هو الفاعل وحده ، فسبحانه والكل مسخرون له ، فلا يعتمد على المطر في خروج الزرع ، ولا على الغيم في نزول المطر ، ولا على الريح في سير السفينة ، فإن الاعتماد على ذلك جهل بحقائق الأمور . ومن انكشفت له الحقائق ، علم أن الريح لا تتحرك بنفسها ، ولا بد لها من محرك ، فالتفات العبد في النجاة إلى الريح يضاهي التفات من أخذ لتضرب عنقه ، فوقع له الملك بالعفو عنه ، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذى كتب به التوقيع ، ويقول : لولا هذا القلم ما تخلصت ، فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم ، وهذا غاية الجهل . ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه ، شكر الكاتب دون القلم ، وكل المخلوقات في قهر تسخير الخالق أبلغ من القلم في يد الكاتب ، فسبحان مسبب الأسباب الفعّال لما يريد .

● فصل فى بيان احوال التوكل واعماله وحده ونحو ذلك

اعلم : أن التوكل مأخوذ من الوكالة ، يقال : وكل فلان أمره إلى فلان ، أى فوض أمره إليه ، واعتمد فيه عليه . فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الموكل ، ولا يتوكل الإنسان على غيره إلا إذا اعتقد فيه أشياء : الشفقة ، والقوة ، والهداية . فإذا عرفت هذا ، فقس عليه التوكل على الله — سبحانه — ، وإذا ثبت في نفسك أنه لا فاعل سواه ، واعتقدت مع ذلك أنه تام العلم والقدرة والرحمة ، وأنه ليس وراء قدرته قدرة ، ولا وراء علمه علم ، ولا وراء رحمته رحمة ، اتكل قلبك عليه وحده لا محالة ، ولم يلتفت إلى غيره بوجه ، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك ، فسببه أحد أمرين : إما ضعف اليقين بأحد هذه الخصال .

وإما ضعف القلب باستيلاء الجبن عليه ، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه ، فإن القلب قد ينزعج ببقاء الوهم وطاعته له من غير نقصان في اليقين ، فإنه من كان يتناول عسلاً ، فشبه بين يديه بالعذرة ، ربما نفر طبعه منه ، وتعذر عليه تناوله . ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت ، نفر طبعه من ذلك ، وإن كان متيقناً كونه ميتاً جماًداً في الحال ، ولا ينفر طبعه عن سائر الجمادات ، وذلك جبن في القلب ، وهو نوع ضعف قلماً يخلو الإنسان منه ، وقد يقوى ذلك حتى يصير مرضاً ، حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع غلق الباب وإحكامه . فإذا لا يتم التوكل إلا بقوة القلب ، وقوة اليقين جميعاً ،

فإذا انكشف لك معنى التوكل ، وعلمت الحالة التي تسمى توكلأ ، فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات :

الأولى : ما ذكرناه ، وهو أن يكون حاله في حق الله — تعالى — الثقة بكفالاته وعنايته ، كحاله في الثقة بالوكيل . **الدرجة الثانية :** وهي أقوى ، أن يكون حاله مع الله — تعالى — كحال الطفل مع أمه ، فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى سواها ، ولا يعتمد إلا إياها ، وإن نابه أمر كان أول خاطر يخطر على قلبه ، وأول سابق إلى لسانه : يا أمه . فمن كان تأله إلى الله ، ونظره إليه ، واعتماده عليه ، كلف به كما يكلف الصبي بأمه ، فيكون متوكلاً حقاً . والفرق بين هذا وبين الأول ، أن هذا متوكل قد فنى في توكله عن توكله ، إذ لا يلتفت إلى غير المتوكل عليه ، ولا مجال في قلبه لغيره . وأما الأول ، فهو متوكل بالتكليف والكسب ، وليس فانياً عن توكله ، بل له التفات إليه ، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده . **الدرجة الثالثة :** وهي أعلى منهما ، أن يكون بين يدي الله — تعالى — مثل الميت بين يدي الغاسل ، لا يفارقه إلا أنه لا يرى نفسه ميتاً ، وهذا يفارق حال الصبي مع أمه فإنه يفزع إلى أمه ، ويصبح ويتعلق بذيلها . وهذه الأحوال توجد في الخلق ، إلا أن الدوام يبعد ، ولا سيما المقام الثالث .

● فصل في بيان أعمال المتوكلين

قد يظن بعض الناس أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الأرض كالخرقة ، وكلحم على وضم^(*) ، وهذا ظن الجهال ، فإن ذلك حرام في الشرع . والشرع قد أثنى على المتوكلين ، وإنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه إلى مقاصده ، وسعى العبد إما أن يكون لجلب نفع مفقود كالكسب ، أو حفظ مرجو كالادخار ، وإما لدفع ضرر لم ينزل ، كدفع الصائل^(١) ، أو لإزالة ضرر قد نزل ، كالتداوى من المرض ، فحركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة :

الفن الأول : في جلب المنافع ، فنقول : الأسباب التي بها تجلب المنافع على ثلاث

درجات :

● **أحدها :** سبب مقطوع به كالأَسباب التي ارتبطت بها المسببات بتقدير الله — تعالى — ومشيتته ارتباطاً مطرداً لا يختلف ، مثاله : أن يكون الطعام بين يديك وأنت جائع ، فلا تمد يدك إليه وتقول : أنا متوكل ، وشرط التوكل ترك السعى ، ومد اليد إلى الطعام سعى ، وكذلك مضغه وابتلاعه ، فهذا جنون محض ، وليس من التوكل في شيء ، فإنك إذا انتظرت أن يخلق الله فيك شعباً دون أكل الطعام ، أو يخلق في الطعام حركة إليك ، أو يسخر ملكاً ليضغه ويوصله إلى معدتك ، فقد جهلت سنة الله . وكذلك لو لم تزرع ، وطمعت أن

(*) الوَضَم : كل شيء يوضع عليه اللحم يوق به من الأرض . (١) الصائل : السائل المهدى .

يخلق الله — تعالى — نباتاً من غير بذر ، أو تلد الزوجة من غير وقاع ، فكل ذلك جنون ، وليس التوكل في هذا المقام ترك العمل ، بل التوكل فيه بالعلم والحال . أما العلم : فهو أن تعلم أن الله — تعالى — خلق الطعام ، واليد ، والأسباب ، وقوة الحركة ، وأنه الذى يطعمك ويسقيك . وأما الحال ، فهو أن يكون قلبك واعتمادك على فضل الله — تعالى — ، لا على اليد والطعام ، لأنه ربما جفت يدك ، وبطلت حركتك ، وربما سلط الله عليك من يغلبك على الطعام ، فمد اليد إلى الطعام لا ينافي التوكل .

● **الدرجة الثانية :** الأسباب التى ليست متيقنة ، لكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها . مثاله من يفارق الأمصار ، ويخرج مسافراً إلى البوادرى التى لا يطرقها الناس إلا نادراً ، ولا يستصحب معه شيئاً من الزاد ، فهذا كالمحرب على الله — تعالى — ، وفعله منتهى عنه ، وحمله للزاد مأمور به ، فإن رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — لما سافر تزود واستأجر دليلاً إلى المدينة .

● **الدرجة الثالثة :** ملابسة الأسباب التى يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة ، كالذى يستقصى فى التدبيرات الدقيقة فى تفصيل الاكتساب ووجوهه ، فمتى كان قصده صحيحاً وفعله لا يخرج عن الشرع ، لم يخرج عن التوكل ، لكنه ربما دخل فى أهل الحرص إذا طلب فضول العيش . وترك التكسب ليس من التوكل فى شيء ، إنما هو من فعل البطالين الذين آثروا الراحة وتعللوا بالتوكل . قال عمر — رضى الله عنه — : المتوكل الذى يلقي حبه فى الأرض ويتوكل على الله .

● **الفن الثانى :** فى التعرض للأسباب بالادخار ، ومن وجد قوتاً حلالاً يشغله كسب مثله عن جمع همه ، فادخاره إياه لا يخرج عن التوكل ، خصوصاً إذا كان له عائلة . وفى « الصحيحين » من حديث عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — ، أن النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — كان يبيع نخل بنى النضير ، ويحبس لأهله قوت سنتهم^(١) . فإن قيل : فقد نهى رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — بلالاً أن يدخر ، فالجواب : أن الفقراء كانوا عنده كالضيف ، فما كان ينبغى أن يدخر فيجوعون ، بل الجواب : أن حال بلال وأمثاله من أهل الصفة كان مقتضاها عدم الادخار ، فإن خالفوا كان التوبيخ على الكذب فى دعوى الحال لا على الادخار الحلال .

● **الفن الثالث :** مباشرة الأسباب الدافعة للضرر . ليس من شرط التوكل ترك الأسباب الدافعة للضرر ، فلا يجوز النوم فى الأرض المسبعة^(*) ، أو مجرى السيل ، أو تحت الجدار الخراب ، فكل ذلك منتهى عنه . وكذلك لا ينقص التوكل ليس الدرع ، وإغلاق الباب ،

(١) انظر صحيح مسلم كتاب « الجهاد » حديث [٥٠] ، صحيح البخارى كتاب « النفقات » باب [٣] .
(*) أى التى فيها سباع .

وشد البعير بالعقال . قال الله — تعالى — : ﴿ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلَحَتَهُمْ ﴾^(١) . وجاء رجل إلى النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — فقال : يا رسول الله أعقلها وأتوكل ، أو أطلقها وأتوكل ؟ قال : « أعقلها وتوكل »^(٢) . ويتوكل في ذلك كله على المسبب لا على السبب ، ويكون راضياً بكل ما يقضى الله عليه . ومتى عرض له إذا سرق متاعه أنه لو احترز لم يسرق ، أو أخذ يشكو ما جرى عليه ، فقد بان بعده عن التوكل .

وليعلم أن القدر له كالطبيب ، فإن قدم إليه الطعام فرح ، وقال : لولا أنه علم أن الغذاء ينفعني ما قدمه ، وإن منعه فرح ، وقال : لولا أنه علم أن الغذاء يؤذيني لما منعني .

واعلم : أن كل من لا يعتقد في لطف الله — تعالى — ما يعتقد المريض في الطبيب الحاذق الشفيق ، لم يصح توكله ، فإن سرق متاعه رضى بالقضاء ، وأحل الآخذ ، شفقة على المسلمين ، فقد شكوا بعض الناس إلى بعض العلماء أنه قطع عليه الطريق ، وأخذ ماله ، فقال : إن لم يكن غمك كيف صار في المسلمين من يفعل هذا أكثر من غمك بمالك ، فما نصحت المسلمين .

الفن الرابع : السعى في إزالة الضرر ، كمداداة المريض ونحو ذلك .

اعلم : أن الأسباب المزيلة للضرر تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

● **إلى مقطوع به :** كالماء المزيل لضرر العطش ، والخبز المزيل لضرر الجوع ، فهذا القسم

ليس تركه من التوكل في شيء .

● **القسم الثاني :** أن يكون مظنوناً ، كالفصد ، والحجامة ، وشرب المسهل ، ونحو ذلك ،

فهذا لا يناقض التوكل ، فإن رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — قد تداوى وأمر

بالتداوى . وقد تداوى خلق كثير من المسلمين ، وامتنع عنه أقوام توكلوا ، كما روى عن

أبي بكر الصديق — رضى الله عنه — أنه قيل له : ألا ندعو لك طبيباً ؟ فقال : رآني الطبيب .

قيل : فما قال لك ؟ قال : إني فعال لما أريد . قال المصنف — رحمه الله — : والذي ننصره

أن التداوى أفضل ، وتحمل حال أبي بكر — رضى الله عنه — أنه قد تداوى ثم أمسك بعد

انتفاعه بالدواء ، أو يكون قد علم قرب أجله بأمارات .

واعلم : أن الأدوية أسباب مسخرة بإذن الله تعالى — .

● **القسم الثالث :** أن يكون السبب موهوماً ، كالكي ، فيخرج عن التوكل ، لأن النبي

— صلى الله عليه وآله وسلم — وصف المتوكلين بأنهم لا يكتوون^(٣) . وقد حمل بعض

العلماء الكي المذكور في قوله : « لا يكتوون » على ما كانوا يفعلونه في الجاهلية ، فإنهم كانوا

(١) النساء : ١٠٢ .

(٢) رواه الترمذى في كتاب « صفة القيامة » باب [٦٠] ثم قال : قال عمرو بن عل : قال يحيى وهذا عدى

حديث منكرو ، قال الترمذى : وهذا حديث غريب من حديث أنس لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٣) الحديث ، متفق عليه ، وقد تقدم تخريجه في أول كتاب التوكل .

يكتون ويسترقون في زمن العافية لثلا يمرضوا ، فإن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — كان يرقى الرقية بعد نزول المرض ، وقد كوى أسعد بن زرارة — رضى الله عنه — . وأما شكوى المريض ، فهي مخرجة عن التوكل ، وقد كانوا يكرهون أنين المريض ، لأنه يترجم عن الشكوى ، فكان الفضيل يقول : أشتهى مرضاً بلا عواد .

وقال رجل للإمام أحمد : كيف أنت ؟ قال : بخير . قال حممت البارحة ؟ قال : إذا قلت لك : أنا بخير ، فلا تخرجني إلى ما أكره . فأما إذا وصف المريض للطبيب ما يجده ، فإنه لا يضره . وقد كان بعض السلف يفعل ذلك ، ويقول : إنما أصف قدرة الله فنى ، ويتصور أن يصف ذلك لتلميذ يقويه على الضراء ويرى ذلك نعمة ، فيصف ذلك كما يصف النعمة شكراً لها ، ولا يكون ذلك شكوى . وقد روي أن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « إلى أوعك كما يوعك رجلان منكم » . وذلك آخر التوكل وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

● كتاب المحبة والشوق والأنس والرضى

اعلم : أن المحبة لله — تعالى — هى الغاية القصوى من المقامات ، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها ، وتابع من توابعها ، كالشوق ، والأنس ، والرضى ، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو من مقدماتها ، كالنوبة ، والصبر ، والزهد وغيرها .

واعلم : أن الأمة مجمعة على أن الحب لله ولرسوله فرض ، ومن شواهد المحبة قوله — تعالى — : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ^(١) . وقوله — تعالى — : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ ^(٢) . وهذا دليل على إثبات الحب لله ، وإثبات التفاوت فيه .

وفى الحديث الصحيح : أن رجلاً سأل رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — عن الساعة فقال : « ما أعددت لها ؟ » قال : يارسول الله : ما أعددت لها من كثرة صلاة ولا صيام ، إلا أنى أحب الله ورسوله ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « المرء مع من أحب ، وأنت مع من أحببت » ^(٣) ، فما فرح المسلمون بعد الإسلام فرحهم بها .

وروى أن ملك الموت جاء إلى الخليل — عليه السلام — ليقبض روحه ، فقال له : هل رأيت خليلاً يميت خليله ؟ فأوحى الله إليه : هل رأيت حبيباً يكره لقاء حبيبه ؟ فقال : ياملك الموت اقبض . وقال الحسن البصرى — رحمه الله — : من عرف ربه أحبه ، ومن أحب غير الله — تعالى — ، لا من حيث نسبته إلى الله ، فذلك لجهله وقصوره عن معرفته ، فأما حب الرسول — صلى الله عليه وآله وسلم — ، فذلك لا يكون إلا عن حب الله — تعالى — ،

(١) المائدة : ٥٤ . (٢) البقرة : ١٦٥ .

(٣) رواه مسلم فى كتاب البر ، رقم [١٦٥] ، والإمام أحمد فى مسنده [٣٩٢/١] ، [١٠٤/٣] ، [١١٠] ، [١٠٧/٤] .

وكذلك حب العلماء والأنبياء ، لأن محبوب المحبوب محبوب ، بل إن ما يفعل المحبوب محبوب ، ورسول المحبوب محبوب ، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل ، ولا محبوب في الحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله — تعالى — ، ولا مستحق للمحبة سواه .

© اسباب حب الله :

وإيضاح ذلك يرجع إلى أسباب : أحدها : أن الإنسان يحب نفسه ، وبقائه ، وكأله ، ودوام وجوده ، ويكره ضد ذلك من الهلاك والعدم والنقصان ، وهذا جبلة كل حي لا يتصور أن ينفك عنها . وهذا يقتضى غاية المحبة لله — عز وجل — ، فإن الإنسان إذا عرف ربه ، عرف قطعاً أن وجوده ودوامه وكأله من الله ، وأنه المخترع له ، الموجد لذاته بعد أن كان عدماً محضاً لولا فضل الله عليه بإيجاده ، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل ، ولذلك قال الحسن البصرى : من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا ، زهد فيها . وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ، ولا يحب ربه الذى به قوام نفسه .

● السبب الثانى : أن الإنسان بالطبع يحب من أحسن إليه ولاطفه وواساه ، وانتدب لنصرته وقمع أعدائه ، وأعانه على جميع أغراضه ، فإنه محبوب عنده لا محالة . وإذا عرف الإنسان حق المعرفة علم أن المحسن إليه هو الله — سبحانه وتعالى — فقط . وأنواع إحسانه لا يحيط به حصر ، كما قال — تعالى — : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (١) .

وقد أشرنا إلى طرف من ذلك فى كتاب الشكر ، ولكننا نبين أن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز ، وأن المحسن فى الحقيقة هو الله — تعالى — . بيان ذلك أنا نفرض أن شخصاً أنعم عليك بجميع خزائنه وما يملك ، وممكنك فيها لتصرف كيف شئت ، فإنك تظن أن هذا الإحسان منه ، وهو غلط ، فإنه إنما تم إحسانه بماله ، وبقدرته على المال ، وبداعيته الباعثة له على صرف المال . فمن الذى أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق إرادته وداعيته ؟ ومن الذى حببك إليه ، وصرف وجهه إليك ، وألقى فى نفسه أن صلاح دينه ودنياه فى الإحسان إليك ، ولولا ذلك ما أعطاك ، فكأنه صار مقهوراً فى التسليم لا يستطيع مخالفته . فالمحسن هو الذى اضطره وسخره لك ، فهو جاري مجرى خازن أمير أمره أن يسلم إلى الإنسان خلعة خلعهام عليه الأمير ، فإن الخازن لا يرى محسناً بتسليم خلعة الأمير ، لأنه مضطر إلى طاعته ، ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك . وكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه ، لم يبدل حبة من ماله حتى يسلط الله عليه الدواعى ، ويلقى فى نفسه أن حفظه فى بذل ذلك فيئذله . فينبغى للعارف أن لا يحب إلا الله ، إذ الإحسان من غيره محال .

● السبب الثالث : أن المحسن فى نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه محبوب فى الطباع ، فإنه إذا بلغك عن ملك من الملوك أنه عالم عادل عابد رفيق بالناس ، متلطف بهم وهو فى

(١) إبراهيم : ٣٤ ، النحل : ١٨ .

قطر بعيد ، فإنك تحبه ، وتجد في نفسك ميلاً كثيراً إليه . فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن ، فضلاً عن أن يكون محسناً إليك . وهذا ما يقتضى حب الله — تعالى — ، بل يقتضى أن لا يحب غيره ، إلا بحيث أن يتعلق منه بسبب ، فإنه سبحانه هو المحسن إلى الكل كافة ، بإيادهم وتكميلهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم وترفيهم ، إلى غير ذلك من النعم التي لا تحصى ، كما قال — تعالى — : ﴿ وَإِنَّ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾^(١) . فكيف يكون غيره محسناً ؟ وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته ، فمن عرف هذا لم يحب إلا الله — تعالى — .

وكذلك نقول : كل من كان متصفاً بالعلم ، أو بالقدرة أو كان متزهاً عن الصفات الرذيلة ، فإن ذلك يوجب له المحبة . فصفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعاً ، ترجع إلى علمهم بالله — تعالى — وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه ، وإلى قدرتهم على إصلاح نفوسهم وإلى تزهيرهم عن الرذائل والخبائث . ومثل هذه الصفات تحب الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — ، وإذا نسبت هذه الصفات إلى صفات الله — تعالى — ، وجدت مضمحلة بالنسبة إلى صفاته — سبحانه وتعالى — . أما العلم ، فإن علم الأولين والآخرين من علم الله — تعالى — الذى يحيط بالكل ، حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض . وقد خاطب الخلق كلهم فقال : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾^(٢) .

ولو اجتمع أهل السماوات والأرض ، على أن يحيطوا بعلمه وحكمته فى تفصيل خلق غملة ، أو بعوضة ، لم يطلعوا على عشر عشر ذلك ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، والقدر اليسير الذى علمه الخلق كلهم ، بتعليمه علموه . ففضل علم الله — سبحانه — على علم الخلاق كلهم خارج عن النهاية ، إذ معلوماته لا نهاية لها . وأما صفة القدرة ، فهى أيضاً صفة كمال ، فإذا نسبت قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله — تعالى — ، وجدت أعظم الأشخاص قوة ، وأوسعهم ملكاً ، وأقواهم بطشاً ، وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره ، غاية قدرته أن يقدر على بعض صفات نفسه ، وعلى بعض امتحان الإنس فى بعض الأمور ، وهو مع ذلك لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ، ولا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ، ولا على حفظ لسانه من الخرس ، ولا آذانه من الصمم ، ولا بدنه من المرض ، ولا يقدر على ذرة من ذرات المخلوقات . وما هو قادر عليه من نفسه وغيره ، فليست قدرته من نفسه ، بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك . ولو سلط بعوضة على أعظم ملك وأقوى شخص لأهلكته ، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه .

(١) إبراهيم : ٣٤ ، النحل : ١٨ . (٢) الإمراء : ٨٥ .

قال الله — تعالى — في حق أعظم ملوك الأرض ذى القرنين : ﴿ إِنَّا مَكَّنَا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ ^(١) . فلم يكن جميع ملكه وسلطانه إلا بتمكين الله — تعالى — ، فنواصى الخلق جميعهم في قبضته وقدرته ، إن أهلكهم لم ينقص من ملكه وسلطانه ذرة ، وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعبأ بخلقهم ، فلا قادر إلا هو ، فله الكمال والعظمة والبهاء والكبرياء والقهر والاستيلاء . فإن تُصَوِّرَ أن تحب قادراً لكمال قدرته وعظمته وعلمه ، فلا يستحق ذلك سواه ، ولا يتصور كمال التقديس والتتزيه إلا له سبحانه ، فهو الواحد الذى لا ند له ، الفرد الذى لا ضد له ، الصمد الذى لا منازع له ، الغنى الذى لا حاجة له ، القادر الذى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا راد لحكمه ، ولا معقب لقضائه ، العالم الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

وكمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ، وهو المستحق لكمال المحبة استحقاقاً لا يساهم فيه أصلاً .

● فصل فى بيان أن أجل اللذات وأعلامها معرفة الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لا يتصور أن يؤثر على ذلك لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة

اعلم : أن اللذات تابعة للإدراكات ، والإنسان جامع لجملة من القوى والفرائض ، ولكل قوة غريزة لذة ، ولم تخلق هذه الفرائض عبثاً ، بل لأمر من الأمور ، وهو مقتضاها بالطبع ، فغريزة شهوة الطعام خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام ، ولذة البصر والسمع فى الإبصار والإسماع . وكذلك فى القلب غريزة تسمى النور الإلهى ، وقد تسمى العقل ، وتسمى البصيرة الباطنة ، وتسمى نور الإيمان واليقين ، وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها بطبيعتها ، فمقتضى طبيعتها العلم والمعرفة ، (وذاك لذتها .

وليس يخفى أن العلم والمعرفة ، ولو فى شيء خسيس يفرح به ، وأن من ينسب إلى الجهل ولو فى شيء خسيس يغم به . وكل ذلك لفرط لذة العلم ، وما يستشعره من كمال ذاته . فإن العلم من أحسن الصفات ومنتهى الكمال ، ولذلك يرتاح الإنسان بطبعه إذا أثنى عليه بالذكاء ، وغزارة العلم ، ثم ليس لذة العلم بالحرارة والحيطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق ، ولا لذة العلم بالشعر والنحو ، كلذة العلم بالله — تعالى — وملائكته وملكوته السموات والأرض ، بل لذة العلم بقدر شرف العلم ، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، فهذا استبان أن ألد المعارف أشرفها ، وشرفها بحسب شرف المعلوم ، فإن كان فى المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم ، فالعلم به ألد العلوم لا محالة وأشرفها . وليت

شعري ، هل في الوجود شيء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها . ومزئتها ومبديها ومعيدها ومديرها ومرتبها ؟ وهل يتصور أن يكون حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بجلالها وكمالها وعجائب أمورها وصف الواصفين ؟

فينبغي أن تعرف أن لذة المعرفة أقوى من جميع اللذات المدركة بالحواس الخمس ، فإن المعاني الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة . فلو خيّر الرجل بين لذة أكل الدجاج السمين واللوزينج ، وبين لذة الرياضة ، وقهر الأعداء ، ونيل درجة الاستيلاء ، فإن كان الخبير خسيس المهمة ميت القلب شديد الشهوة البهيمية اختار اللحم والحلواء ، وإن كان على المهمة ، كامل العقل ، فإنه يختار الرياضة ، ويهون عليه الجوع والصبر على ضرورة القوت أياماً . فاختياره للرياضة دليل على أنه ألدّ عنده من المطعومات الطيبة ، وكما أن لذة الرياضة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الناقص المهمة ، فلذة معرفة الله — سبحانه وتعالى — والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألدّ من الرياضة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق ، وهذا لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعاً ، فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر ، وينغمس في بحار المعرفة ، ويترك الرياضة ، ويحتقر الخلق ، لعلمه بفناء رياسته وبفناء من عليه رياسته ، ويكون ذلك مشوباً بالكدر ، مقطوعاً بالموت . وتعظم عنده معرفة الله — سبحانه وتعالى — ومطالعة صفاته وأفعاله ، ونظام مملكته ، فإنها خالية عن المزاحمت والمكدرات ، متسعة للمتواردين عليها ، لا تضيق عنهم ، فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض ، يرتع في رياضها ، ويقطف من ثمارها ، ويكرع من حياضها ، وهو آمن من انقطاعها ، إذ هي أبدية سرمدية ، لا يقطعها الموت ، لأن الموت لا يهدم محل معرفة الله — تعالى — ، إذ محلها الروح ، وإنما الموت يغير أحوالها ، أما أن يعدمها فلا .

والعارفون درجات عند الله — تعالى — متفاوتون ، لا يدخل تفاوت درجاتهم تحت الحصر ، وهذه الأمور لا تدرك إلا بالذوق ، والحكاية فيها قليلة الجدوى . فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله — تعالى — ألدّ الأشياء ، وأنه لا لذة فوقها ، ولهذا قال أبو سليمان الداراني — رحمه الله — : إن لله عبداً ليس يشغلهم عن الله — عز وجل — خوف النار ولا رجاء الجنة ، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله — تعالى — ؟ وقال بعض أصحاب معروف : قلت له : أى شيء أهاجك على العبادة ؟ فسكت . فقلت : ذكر الموت ؟ فقال : وأى شيء الموت ؟ قلت : ذكر القبر . وقال : وأى شيء القبر ؟ قلت : خوف النار ورجاء الجنة ؟ فقال : وأى شيء هذا ؟ إن ملكاً هذا كله بيده ، إن أحببته أنساك جميع ذلك ، وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع ذلك .

وقال أحمد بن الفتح : رأيت بشر بن الحارث في منامي ، فقلت له : ما فعل معروف

الكرخى ؟ فحرك رأسه ثم قال : هيهات ، حالت بيننا وبينه الحجب ، إن معروفاً لم يعبد الله شوقاً إلى جنته ولا خوفاً من ناره ، وإنما عبده شوقاً إليه ، فرفعه الله إلى الرفيق الأعلى ، ورفع الحجب بينه وبينه . فمتى حصلت محبة الله — تعالى — لشخص ، صار قلبه مستغرقاً بها ، ولا يلتفت إلى جنة ، ولا يخاف من نار ، فإنه قد بلغ النعيم الذى ليس فوقه نعيم . قال بعضهم :

ومجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جنته

وإنما أراد بهذا لذة القلب في معرفة الله — تعالى — . وأنها مفضلة على لذة الأكل والشرب والنكاح ، فإن الجنة معدن تمتع الحواس ، وأما القلب فلذته في لقاء الله — تعالى — فقط . واعلم : أن لذة النظر في الآخرة تزيد على المعرفة في الدنيا ، وقد اقتضت سنة الله — تعالى — أن النفس مادامت محجوبة بعوارض البدن ، ومقتضى الشهوات ، وما يغلب عليها من الصفات البشرية ، لا تنتهى إلى المشاهدة ، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة ، كحجاب الأجفان عن رؤية الإبصار . والقول في سبب كونه حجاباً يطول ، فإذا ارتفع الحجاب بالموت ، بقيت النفس وفيها نوع تلوث بالدنيا ، فإذا أدخل أهل الجنة الجنة وقد صفوا عن الأكدار ، تجلّى لهم الحق — سبحانه وتعالى — على قدر معرفتهم في الدنيا . فكل من لا يعرف الله — تعالى — في الدنيا ، لا يراه في الآخرة . وما يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه في الدنيا ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا يموت المرء إلا على ما عاش عليه ، فما صحبه من المعرفة هو الذى يتنعم به بعينه ، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء ، فتضاعف اللذة ، والعيش عيش الآخرة . ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ ﴾^(١) . وعيش الآخرة بقدر المعرفة ، ولهذا جاء في الحديث : « خير الناس من طال عمره وحسن عمله » وذلك لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر والذكر ، والمواظبة على المجاهدة ، والانقطاع عن علائق الدنيا ، والتجرد للطلب ، فقد عرفت بما ذكرنا معنى المحبة ، ومعنى لذة المعرفة ، ومعنى الرؤية ولذتها ، ومعنى كونها ألد من سائر اللذات عند أهل الكمال .

فصل في بيان الأسباب المقوية لحب الله - تعالى - وتفاوت الناس في الحب وبيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله - تعالى -

واعلم : أن أسعد الناس وأحسنهم حالاً في الآخرة أقوامهم حباً لله — تعالى — ، فإن الآخرة معناها القدوم على الله — تعالى — ، ودرك سعادته لقائه . وما أعظم نعيم الحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه ، وتمكن من مشاهدته من غير منغص ولا مكدر ، إلا أن هذا النعيم على قدر المحبة ، فكلما ازداد الحب ازدادت اللذة .

(١) العنكبوت : ٦٤ .

© سبب قوة حب العبد لله :

وأصل الحب لا ينفك عن مؤمن ، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة ، وأما قوة الحب واستيلاؤه ، فذلك ينفك عنه الأكثرون ، وإنما يحصل ذلك بشيئين :
أحدهما : قطع علائق الدنيا ، وإخراج حب غير الله من القلب ، فأحد أسباب ضعف حبه ، قوة حب الدنيا ، وبقدر ما يأنس القلب بالدنيا ينقص أنسه بالله ، والدنيا والآخرة ضرتان ، وسبيل قطع الدنيا عن القلب سلوك طريق الزهد ، وملازمة الصبر ، والانقياد إليهما بزمam الخوف والرجاء ، وماذكرناه من المقامات كالنوبة والصبر والشكر والزهد والخوف وغير ذلك .

السبب الثاني لقوة المحبة : معرفة الله — تعالى — ، فإذا حصلت المعرفة تبعها المحبة ، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا الفكر الصافي ، والذكر الدائم ، والتشهير في الطلب ، والاستدلال عليها بأفعاله سبحانه : وأقل أفعاله الأرض وما عليها ، بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات . والشمس على ما يرى من صغر حجمها مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة ، فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها ، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فللكها الذى هى مركوزة فيه وهى فى السماء الرابعة والسماء الرابعة صغيرة بالنسبة إلى ما فوقها من السموات ، ثم السموات السبع فى الكرسى كحلقة ملقاة فى فلاة ، والكرسى فى العرش كذلك .

ثم انظر إلى الآدمى المخلوق من التراب الذى هو جزء من الأرض ، وإلى سائر الحيوانات ، وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض ، وأصغر ما تعرفه من الحيوانات البعوض ، فانظر فيه بعقل حاضر ، كيف خلقه الله — عز وجل — على شكل الفيل الذى هو أعظم الحيوانات ، وزاده الجناحين ، وانظر كيف شق سمعه وبصره ، وخلق فى باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته ، ودبره فى سائر أحواله ، من القوى الجاذبة والدافعة والهاضمة ، وانظر كيف خلق له الطيران ، يطير إذا طُلب ، وجعل له خرطوماً محدداً يمص به الدم .

وانظر إلى النحل فى تناولها الأزهار من الأنوار ، واحترازها عن الأقدار ، وطاعتها إلى كبيرها ، حتى إنه يقتل كل ما ورد عليه وقد أكل مستقذراً ، وإلى اختيارها الشكل المسدس ، فلا تبنى بيتاً مربعاً ، ولا مستديراً ، ولا مخمساً ، بل مسدساً لخاصيته فى الشكل المسدس ، فإن أوسع الأشكال وأحواها المستدير وما يقرب منه ، فإن المربع تخرج منه الزوايا ضائعة ، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة ، فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراسة ، فلا شكل فى الأشكال ذوات الزوايا يقرب فى الاحتواء من المستدير ، ثم تراص الجملة منه ، بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلى المسدس ، فانظر كيف ألهمه الله — تعالى — ذلك على صغر حجمه وضعفه ، فاعتبر بهذه اللعة اليسيرة من محقرات

الحيوانات ، فالنظر في هذا وأشباهه تزداد المعرفة به ، فتزداد المحبة . وأما السبب في تفاوت الناس في الحب .

فاعلم أن الناس مشتركون في أصل الحب ، لكنهم يتفاوتون لتفاوت المعرفة ، فكثير من الناس ليس لهم من معرفة الله — تعالى — إلا الصفات والأسماء التي قرعت أسماعهم ، والعالم البصير يطالع تفصيل صنع الله — تعالى — حتى يرى ما يبهر عقله ، فتزداد عظمة الله في قلبه ، فيزداد حباً له ، وتجر هذه المعرفة التي هي معرفة عجائب صنع الله — تعالى — إلى بحر لا ساحل له . وأما السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله — تعالى — ، فاعلم أن كل من صنع شيئاً دل المصنوع على وجود صانعه ، وعلى علمه وحياته وقدرته ودالة جليلة ظاهرة ، وإن كانت هذه الصفات لا تدرك بشيء من الحواس الخمس . فوجود الله — سبحانه وتعالى — وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهد من حجر وشجر ومدر ونبات وحيوان وأرض وسماء وكوكب وبر وبحر ، بل أول شاهد علينا أنفسنا وأجسامنا ، وتقلب أحوالنا ، وتغير قلوبنا ، وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا وجميع ما في العالم شواهد ناطقة ، وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ، ودالة على علمه وقدرته وحياته ولطفه وحكمته وعظمته وجلاله ، إذ كل ذرة تنادى بلسان حالها : إنه ليس وجودها بنفسها ، وإنها تحتاج إلى موجد لها ، لكن عقولنا بالنسبة إلى إدراك الحضرة الإلهية ، كالخفاش ، بالنسبة إلى النهار ، فإنه لضعف بصره يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ، وليس عدم إبصاره بالنهار لخفاشه ، بل لشدة ظهوره واستنارته وضعف أعين الخفاش ، فكذلك عقولنا ضعيفة عن إدراك الحضرة الإلهية ، فسبحان من احتجب بإشراق نوره ، واختفى به عن البصائر والأبصار ، فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله — سبحانه وتعالى — ، وانضم إلى ذلك أيضاً أن المدركات الشاهدة لله — تعالى — ، إنما يدركها الإنسان في حال الصبا قبل حضور العقل عنده ، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلاً قليلاً ، وهو مستغرق الهم ، مشغول به ، وقد أنس بمدركاته وألفها ، فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس .

وكذلك إذا رأى فجأة حيواناً غريباً ، أو نباتاً ، أو فعلاً من أفعال الله — تعالى — عجباً خارقاً للعادة ، انطلق لسانه بالتعجب ، فقال : سبحان الله ! سبحان الله ! وهو يرى طول النهار نفسه ، وجميع أعضائه ، وجميع الحيوانات المألوفة ، وكلها شواهد قاطعة ، فلا يحس بشهادتها لطول الأنس بها . ولو فرض أن أعمى بلغ عاقلاً ، ثم انقشعت غشاوة عينه ، فامتد بصره إلى السماء والأرض ، والأشجار ، والنبات ، والحيوان دفعة واحدة ، لخيف على عقله أن ينبر ، لعظم تعجبه من مشاهدة هذه العجائب ، وشهادتها لخالقها ، فهذا وأمثاله من

الأسباب مع الانهماك في الشهوات ، وهو الذى سد على الخلق في سبيل الاستضاءة بنور المعرفة ، والسباحة في بحارها الواسعة ، والله أعلم وأحكم .

● فصل فى بيان معنى الشوق إلى الله - تعالى -

قد تقدم الكلام فى المحبة وإثباتها بالأدلة ، وأن الشوق ثمرة من ثمارها ، فإن من أحب شيئاً اشتاق إليه .

واعلم : أن الشوق لا يتصور إلا لشيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه . فأمّا ما لا يدرك أصلاً ، فلا يشتاق إليه ، وكال الإدراك بالرؤية ، وإنما يكون ذلك فى الآخرة .

واعلم : أن الأمور الإلهية لا نهاية لها ، وإنما يكشف لكل عبد من العباد بعضها ، ويبقى أمور لا نهاية لها ، والعارف يعلم وجودها ، وكونها معلومة لله — تعالى — ، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر ، فلا يزال العبد متشوقاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة ، وينتهى الشوق الأول فى الدار الآخرة بالمعنى الذى يسمى رؤية ومشاهدة ، ولا يتصور أن يسكن قلب المشتاق فى الدنيا . وكان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين ، فقال يوماً : يارب ! إن كنت أعطيت أحداً من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطني ، فقد أضربى القلق . قال : فرأيت — عز وجل — فى النوم ، فقال : يا إبراهيم ! أما استحييت منى ؟ تسألنى أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائى ، وهل يسكن قلب المشتاق قبل لقاء حبيبهِ ؟ فقلت : يارب : تُهتِّ فى حبك فلم أدر ما أقول ، فهذا الشوق يسكن فى الآخرة . وأما غير ذلك مما هو معلوم لله فلا نهاية له ، فلا يتضح للعبد ولا يحيط به ، فهو مشغول بلذة ما ظهر له ، ولا يزال النعم واللذة متزايدين حتى يشتغل عن الإحساس بالشوق إلى ما وراء ذلك ، فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه .

ومن شواهد الأخبار ، ما روى أن رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — علم رجلاً دعاء ، وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم ، فذكر فيه : « أسألك اللهم الرضى بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك ، وشوقاً إلى لقائك » . وفى التوراة : يقول الله — تعالى — : طال شوق الأبرار إلى لقائى ، وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً . وفى بعض ما أوحى الله — عز وجل — إلى بعض عباده : إن لى عبادة من عبادى ، يحبونى وأحبهم ، وأشتاق إليهم ويشتاقون لى ، ويزكرونى وأذكروهم ، فإن حذوت طريقهم أحببتك ، وإن عدلت عنهم مقتك . قال : يارب ! وما علامتهم ؟ قال : يرعون الظلال بالنهار ، كما يرعى الراعى الشفيق غنمه ؟ ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها عند الغروب ، فإذا جنهم الليل ، واختلط الظلام ، وفرشت الفرش ، وخلع كل حبيب بحبيبهِ ، نصبوا أقدامهم ، واقرشوا وجوههم ، وناجوني بكلامى ، وتلقوني بإنعامى ، فبين صارخ وبالك ،

وبين متأوه وشاكٍ ، وبين قائم وقاعد ، وبين راکع وساجد ، بعينى ما يتحملون من أجلى ، وبسمى ما يشكون من حبى .

● فصل فى بيان محبة الله - تعالى - للعبد ومعناها وبيان علامات محبة العبد لله - تعالى -

وأما محبة الله - تعالى - للعبد . فاعلم : أن شواهد القرآن متظاهرة على ذلك ، كقوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْقَوَّامِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ^(١) ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا ﴾ ^(٢) . الآية . ونبه على أنه لا يعذب من يحبه ، لأنه رد على من ادعى أنه حبيبه بقوله : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ ^(٣) . وشرط للمحبة غفران الذنوب فقال : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ ^(٤) . وفى الحديث الصحيح ، من رواية أبى هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : إن الله - تعالى - يقول : « ما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه » ، إلى آخره . وهو حديث مشهور ^(٥) . ومن علامة حب الله - تعالى - للعبد ، قول النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه » ^(٦) .

ومن أقوى العلامات ، حسن التدبير له ، يريه من الطفولة على أحسن نظام ، ويكتب الإيمان فى قلبه . وينور له عقله ، فيفتح كل ما يقربه ، وينفر عن كل ما يبعد عنه ، ثم يتولاه بتيسير أموره ، من غير ذل للخلق ، ويسدد ظاهره وباطنه ، ويجعل همه هماً واحداً ، فإذا زادت المحبة ، شغله به عن كل شيء .

وأما محبة العبد لله - تعالى - . فاعلم : أن المحبة يدعيها كل أحد ، فما أسهل الدعوى وأعز المعنى ، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان ، وخداع النفس إذا ادعت محبة الله - تعالى - ، ما لم يمتحنها بالعلامات ، ويطلبها بالبراهين ، فمن العلامات حب لقاء الله - تعالى - فى الجنة ، فإنه لا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب لقاءه ومشاهدته ، وهذا لا يتنافى كراهة الموت ، فإن المؤمن يكره الموت ، ولقاء الله بعد الموت . ومن السلف من أحب الموت ، ومنهم من كرهه ، إما لضعف محبته ، أو لكونها مشوبة بحب شيء من الدنيا ، أو لأنه يرى ذنوبه فيحب أن يبقى ليتوب . ومنهم من يرى نفسه فى ابتداء مقام المحبة ، فيكره عجلة الموت قبل أن يستعد للقاء الله - تعالى - ، وهذا كمحبه يصله الخير بقدوم حبيبه عليه ، فيحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيئ له داره ، ويعدل له أسبابه ، فيلقاه كما يهواه ، فارغ القلب عن الشواغل ، خفيف الظهر عن العوائق ، فالكراهة بهذا السبب

(١) البقرة : ٢٢٢ . (٢) الصف : ٤ . (٣) المائدة : ١٨ . (٤) آل عمران : ٣١ . (٥) تقدم تخريجها . (٦) فى كنز العمال [٦٨١٦] عزاه لليبقى فى شعب الإيمان .

لا تنافى كمال المحبة ، وعلامة هذا : الدعوى في العمل ، واستغراق الهم في الاستعداد .
ومنها أن يكون مؤثراً ما أحبه الله — تعالى — على ما يحبه في ظاهره وباطنه ، فيجتنب
اتباع الهوى ، ويعرض عن دعة الكسل ، ولا يزال مواظباً على طاعة الله — تعالى — متقرباً
إليه بالنوافل .

ومن أحب الله فلا يعصيه ، إلا أن العصيان لا يتنافى أصل المحبة ، وإنما يضاد كمالها ، فكم
من إنسان يحب الصحة ويأكل ما يضره ، وسببه أن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب ،
فيعجز عن القيام بحق المحبة ، ويدل على ذلك حديث نعيمان أنه كان يؤتى به إلى رسول
الله — صلى الله عليه وآله وسلم — فيحده^(*) إلى أن أتى به يوماً ، فحده ، فلعهن رجل
وقال : ما أكثر ما يؤتى به ! فقال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « لا تلعه ،
فإنه يحب الله ورسوله »^(١) فلم تخرجه المعصية عن المحبة ، وإنما تخرجه عن كمال المحبة . ومن
العلامات أن يكون مُستَهْتِراً بذكر الله — تعالى — ، لا يفتر عنه لسانه ، ولا يخلو عنه قلبه ،
فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره بالضرورة ، ومن ذكر ما يتعلق به . فعلامة حب الله
— تعالى — حب ذكره ، وحب القرآن الذي هو كلامه ، وحب رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم —
عليه وآله وسلم .

قال الله — تعالى — : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾^(٢) . وقال بعض السلف : كنت قد وجدت خلاوة المناجاة ، فكنت أدمن قراءة
القرآن ، ثم لحقتني فترة فانقطعت ، فرأيت في المنام قائلاً يقول :

إِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ حُبِّي فَلِمَ هَجَرْتَ كِتَابِي
أَمَا تَدْبِرُتَ مَا فِيَّ — مِنْ لَطِيفِ عَنَائِي

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة ، ومناجاة الله — تعالى — ، وتلاوة كتابه ، فيواظب على
التهجد ، ويقتسم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق ، فإن أقل درجات الحب التلذذ
بالخلوة بالحبيب ، والتنعيم بمناجاته . روى أن عابداً عبد الله في غيضة دهرأ ، فنظر إلى
طائر قد عشش في شجرة يأوى إليها ، ويصفر عندها . فقال : لو حولت مسجدي إلى تلك
(*) يقيم عليه الحد ، لأنه كان يشرب الخمر .

(١) عزاه العراقي لابن عبد البر في الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلاً ،
ومحمد هذا وُلِدَ في حياته — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — وسماه محمداً وكناه عبد الملك ، وللبخاري من حديث عمر أن رجلاً على
عهد رسول الله — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — كان اسمه عبد الله وكان يلقب حماراً ، وكان يضحك رسول الله — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — وكان
قد جلده إلى الشراب فأقْبَى به يوماً فأمر به لجلده ، فقال رجل من القوم : اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به ،
فقال النبي — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — : « لا تلعه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله » ، من حديث أبي هريرة في
رجل شرب ولم يسم ، وفيه : « لا تعينوا عليه الشيطان » ، وفي رواية : « لا تكونوا عون الشيطان على أخيك » ،
[١٢١/٣] . (٢) آل عمران : ٣١ .

الشجرة كنت آنس بصوت هذا الطائر ، ففعل ، فأوحى الله — تعالى — إلى نبيهم : « قل لفلان العابد : استأنست بمخلوق ، لأحطتكم درجة لا تنالها بشيء من عملك أبداً » . فإذا علامة المحبة ، كمال الأنس بمنجاة المحبوب ، وكمال التمتع بالخلوة ، وكمال الاستيحاش من كل ما ينقض عليه الخلوة . ومتى غلب الحب والأنس صارت الخلوة والمنجاة قرة عين تدفع جميع الهموم ، بل يستغرق الحب والأنس قلبه ، حتى لا يفهم أمور الدنيا ، ما لم تتكرر على سمعه مراراً ، مثل العاشق الوهان . ومنها أن يتأسف على ما يفوته من ذكر الله — تعالى — ، ويتنعم بالطاعة ، لا يستثقلها ، ويسقط عنه تعبها . قال ثابت البناني — رحمه الله — : كابدت الصلاة عشرين سنة ، وتعمت بها عشرين سنة . وقال الجنيد : علامة المحبة دوام النشاط ، والديوب بشهوة يفتر بدنه ولا يفتر قلبه ، وكل هذا موجود المثال في المشاهدات ، فإن الحب لا يستثقل السعى في مراد محبوبه ، ويستلذ خدمته بقلبه ، وإن كان شاقاً على بدنه ، وكل حب قاهر لا محالة ، فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل ، ترك الكسل في خدمته ، وإن كان أحب إليه من المال ، ترك المال في حبه .

ومنها أن يكون شقيقاً على جميع عباد الله ، رحيماً بهم ، شديداً على أعدائه ، كما قال — تعالى — : ﴿ أَشْدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾^(١) ولا تأخذه في الله لومة لائم ، ولا يصرفه عن الغضب له صارف ، فهذه علامات المحبة ، فمن اجتمعت فيه فقد تمت محبته ، وصفا في الآخرة شرابه ، ومن امتزج بحبه حب غير الله ، تنعم في الآخرة بقدر حبه ، فيمزج شرابه بشيء من شراب المقربين ، كما قال — عز وجل — : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾^(٢) إلى قوله : ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مُمَخَّوْمٍ • خِطَامُهُ مِنكُ وَلِيُّ ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ • وَمَرْأَجُهُ مِنْ نَسِيمٍ • عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾^(٣) . فقول الخالص بالصرف ، والمشوب بالمشوب . ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ • وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾^(٤) .

ومنها أن يكون في حبه خائفاً بين الهيبة والتعظيم ، فإن الخوف لا يضاد المحبة ، ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم ، وبعضها أشد من بعض ، فأولها خوف الإعراض ، وأشد منه خوف الحجاب ، وأشد منه خوف الإبعاد . ومنها كتمان الحب ، واجتناب الدعوى ، والتوق من إظهار الوجد والمحبة ، تعظيماً للمحبوب ، وإجلالاً له ، وهيبة وغيرة على سره ، فإن الحب سر من أسرار الحبيب . وقد يقع الحب في دهش وسكر ، فيظهر عليه الحب من غير قصد ، فهو في ذلك معذور ، كما قال بعضهم .

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ومن سره في جفنه كيف يحكم

(١) الفتح : ٢٩ . (٢) الطه : ٢٢ . (٣) الطه : ٢٥ — ٢٨ . (٤) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

فصل فى بيان معنى الأنس بالله والرضى بقضاء الله - عز وجل -

اعلم ! أن من غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا فى الانفراد والخلوة ، لأن الأنس بالله يلزمه التوحش من غيره ، ويكون أثقل الأشياء على القلب كل ما يعوق عن الخلوة . قال عبد الواحد بن زيد : قلت لراهب : لقد أعجبتك الخلوة ، فقال : لو ذقت حلاوة الخلوة لاستوحشت إليها من نفسك ، قلت : متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله — تعالى — ؟ قال : إذا صفا الود ، خلصت المعاملة . قلت : متى يصفو الود ؟ قال : إذا اجتمع الهم ، فصار همّاً واحداً فى الطاعة . فإن قيل : ما علامة الأنس ؟ قيل : علامته الخاصة ضيق الصدر عن معاشرة الخلق ، والتبرم بهم ، وإن خالط ، فهو كمنفرد غائب مغالط بالبدن ، منفرد بالقلب . واعلم : أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم ، قد يشمر نوعاً من الانبساط والإدلال ، وقد يكون ذلك منكراً فى الصورة ، لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة ، وإن كان محتملاً ممن أقيم مقام الأنس ، وأما إذا صدر ممن لا يفهم ذلك المقام ، أشرف به على صاحبه على الكفر ، وذلك كما يروى عن أئى حفص أنه كان يمشى يوماً ، فاستقبله رجل مدهوش^(*) ، فقال : مالك ؟ قال : ضل حمارى ، ولا أملك غيره ، فوقف أبو حفص وقال : وعزتك لا أخطو خطوة ما لم ترد عليه حماره ، فظهر الحمار . وروى عن برخ العابد أنه خرج يستسقى فقال : يارب : أنت بالبلخ لا ترمى ، أنفذ ما عندك ، اسقنا الساعة .

ولا يستبعد أن يحتمل من شخص ما لم يحتمل من غيره ، وأما الرضى بقضاء الله — تعالى — ، فهو من أعلى مقامات المقربين ، وهو من ثمار المحبة ، وحقيقته غامضة ، ولا ينكشف الأمر فيه إلا لمن يفهمه عن الله — تعالى — . ومن فضائل الرضى ما ورد فى الحديث أن النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « إذا أراد الله بعبد خيراً أرضاه بما قسم له »^(١) . وأوحى الله — تعالى — إلى داود — عليه السلام — : يادود : « إنك لن تلقانى بعمل هو أرضى لى عنك ، ولا أحط لوزرك ، من الرضى بقضائى » . ونظر على ابن أئى طالب — رضى الله عنه — إلى عدى بن حاتم كئيباً ، فقال : ياعدى : ما لى أراك كئيباً حزيناً ؟ فقال : وما يمنعنى فقد قتل ابنائى ، وفقت عينى فقال : ياعدى ! من رضى بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر ، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله . ودخل أبو الدرداء — رضى الله عنه — على رجل وهو يموت وهو يحمد الله — تعالى — ، فقال أبو الدرداء : أصبت ، إن الله — عز وجل — إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به . وقال ابن مسعود — رضى الله عنه — : إن الله — تعالى — بقسطه وعمله جعل الروح والفرح

(*) كَيْشَ الرَّجُلُ : كَثِيرٌ . (١) الحديث فى مسند الفردوس للإمامى برقم [٩٤٦] .

في اليقين والرضى ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط . وقال علقمة في قوله — عز وجل — : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ ^(١) . قال : هي المصيبة تصيب الرجل ، فيعلم أنها من عند الله ، فيسلم لها ويرضى . وقال أبو معاوية الأسود في قوله — تعالى — : ﴿ فَلَنُخْبِتَنَّهُ خِيفَةً طَيِّبَةً ﴾ ^(٢) . قال : الرضى والقناعة . وفي الخبر : إن نبياً من الأنبياء شكاً إلى ربه — عز وجل — الجوع والفقر عشر سنين ، فما أجيب إلى ما أراد ، ثم أوحى الله إليه : « كم تشكو ؟ هكذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السماوات والأرض ، وهكذا سبق لك منى ، وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا ، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك ؟ أم تريد أن أهدل ما قدرت لك ؟ فيكون ما تحب فوق ما أحب ، ويكون ما تريد فوق ما أريد ، وعزى وجلالى ؛ لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأهولك من ديوان النبوة » .

وفي « زبور داود » عليه السلام : « هل تدري من أسرع الناس مرّاً على الصراط ؟ الذين يرضون بحكمى وألستهم رطبة من ذكرى » . وقال داود — عليه السلام — : « يارب ! أى عبادك أبيض إليك ؟ قال : عبد استخارنى فى أمر ، فخرت له ، فلم يرض . وقال عمر بن عبد العزيز : ما بقى لى سرور إلا فى مواقع القدر . وقيل له : ما تشئى ؟ فقال : ما يقضى الله — عز وجل — .

وقال الحسن : من رضى بما قسم له ، وسعه ، وبارك الله فيه ، ومن لم يرض لم يسعه ، ولم يبارك له فيه . وقال عبد الواحد بن زيد : الرضى باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، ومستراح العابدين ، وقال بعضهم : لن يرد الآخرة أرفع درجات من الراضين عن الله — تعالى — على كل حال ، فمن وهب له الرضى ، فقد بلغ أفضل الدرجات . وأصبح أعراى وقد مات له أباعر كثيرة ، فقال :

لا والذى أنا عبد فى عبادته لولا شماتة أعداء ذوى إحسن
ما سرنى أن إبلى فى مباركتها وأن شيئاً قضاه الله لم يكن

● فصل يتصور الرضى فيما يخالف الهوى

ويتصور الرضى فيما يخالف الهوى . وبيان ذلك إذا جرى على الإنسان الألم ، فتارة يحس به ويدرك ألمه ، ولكنه يكون راضياً به ، راغباً فى زيادته بعقله ، وإن كان كارهاً له بطبعه لما يوصله من الثواب . مثاله أن يلتمس من الحجام الحجامة والفصد ، فإنه يدرك ألم ذلك ، إلا أنه راض به ، وراغب فيه ومتقلد منة الحجام . وكذلك كل من يسافر فى طلب الربح ، فإنه يدرك مشقة السفر ، لكن حبه لثمرة سفره طيب عنده تلك المشقة ، وجعله راضياً بها ، وكل من أصابه بلية من الله — تعالى — وكان له يقين ، فإنه يتوقع

(١) الطهين : ١١ . (٢) النحل : ٩٧ .

الأجر فوق ما فاتته ، فيرضى بما أصابه ، ويشكر الله — تعالى — عليه ، ويجوز أن يغلبه الحب ، بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه ، ويبتل الإحساس بالألم لفرط الحب ، وليس ذلك بمعجيب ، فإن الرجل المحارب في حال غضبه أو خوفه ، تصيبه الجراحات ولا يحس بها ، ولا يشعر بها في تلك الحال ، وذلك لأن قلبه مستغرق ، وإذا كان القلب مستغرقاً بأمر من الأمور لم يدرك ما عداه ، وذلك موجود في المشاهدات .

قال الجنيد — رحمه الله —: سألت سرياً : هل يجد المحب ألم البلاء ؟ قال : لا . وقد روينا عن خلق كثير من أهل البلاء ، أنهم كانوا يقولون : لو قطعنا إرباً إرباً ، ما ازددنا له إلا حباً . وقد تقدم أن فرط الحب يزيل إحساس الألم ، وهو متصور في حب الخلق ، كما حكى بعضهم . قال : كان في جيراننا رجل له جارية يحبها ، فاعتلت(*) ، فجلس يصلح لها حَسَاءً ، فبينما هو يحرك القدر ، قالت : أوه ، فدهش وسقطت المعلقة من يده ، وجعل يحرك القدر بيده حتى تساقطت أصابعه وهو لا يعلم . ويؤيد هذا قصة النسوة حين شاهدن يوسف — عليه السلام —، فإنهن قطعن الأيدي ، وما أحسنن بألم ، فقد بان بما ذكرنا أن الرضى بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً ، وإذا كان ذلك ممكناً في حق الخلق وحفظهم ، كان ممكناً في حق الله — سبحانه —، وحفظ الآخرة بطريق الأولى . وإمكان ذلك في ثلاثة أوجه :

● أحدها : علم المؤمن بأن تدبير الله — تعالى — خير من تدبيره . وقد قال النبي — صلى الله عليه وآله وسلم —: « ما قضى الله لمؤمن من قضاء إلا كان خيراً له » . وعن مكحول قال : سمعت ابن عمر — رضى الله عنه — يقول : إن الرجل يستخير الله فيختار له ، فيسخط فلا يلبث أن ينظر في العاقبة ، فإذا هو قد خیر له . وعن مسروق قال : كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك ، فالديك يوقظ للصلاة ، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل خبائهم ، والكلب يحرسهم . فجاء الثعلب فأخذ الديك ، فحزنوا ، فقال الرجل : عسى أن يكون خيراً ، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار ، فحزنوا ، فقال الرجل : عسى أن يكون خيراً ، ثم أصيب الكلب فحزنوا فقال الرجل عسى أن يكون خيراً ثم أصبحوا ذات يوم ، فنظروا فإذا قد سبي من حولهم وبَقُوا هُم ، وإنما أخذ أولئك بما كان عندهم من الصوت والجلبة ، ولم يكن عند أولئك شيء يجلب ، قد ذهب كلهم وحمارهم وديكهم .

وعن سعيد بن المسيب قال : قال لقمان لابنه : يا بني : لا ينزلن بك أمر رضىته أو كرهته ، إلا جعلت في الضمير أن ذلك خير لك . قال : أما هذه فلا أقدر أن أعطيكمها دون أن أعلم ما قلت أنه كما قلت . قال : يا بني : فإن الله قد بعث نبياً هلم حتى نأتيه ، فعنده بيان ما قلت لك . قال : اذهب بنا إليه ، فخرج على حمار وابنه على حمار ، وتزودوا ما يصلحهما ، ثم سارا أياماً وليالي ، حتى تلقتهما مفازة ، فأخذا أهبتهما ودخلاها ، فسارا ما

شاء الله أن يسيراً ، حتى تعالى النهار واشتد الحر ونفذ الماء والزاد ، فاستبطاً حماريهما ، فنزلا بمشيان ، فبينما هما كذلك ، إذ نظر لقمان أمامه ، فإذا هو بسواد ودحان ، فقال في نفسه : السواد شجر ، والدحان عمران وناس ، فبينما هما كذلك يشهدان ، إذ وطىء ابن لقمان على عظم على الطريق ، فدخل في باطن قدمه حتى ظهر من أعلاها ، فخر مغشياً عليه ، فحانت من لقمان التفاتة ، فإذا هو بابنه صريع ، فوثب إليه فضمه إلى صدره ، واستخرج العظم بأسنانه ، وشق عمامة كانت عليه فعصب رجله ، ثم نظر إلى وجه ابنه فذرفت عيناه ، فقطرت قطرة من دموعه على خد الغلام فانتبه لها ، فنظر إلى أبيه يبكي ، فقال : يَا أَبَتِ : أنت تبكي وأنت تقول : هذا خير لى ، فكيف ذلك وأنت تبكى ؟! وقد نفذ الطعام والشراب وبقيت أنا وأنت في هذا المكان . قال : أما بكائى يا بنى ، فوددت أنى افتديتكم بجميع حظى من الدنيا ، ولكنى والد ومنى رقة الوالد . وأما قولك : كيف يكون هذا خيراً لى ؟ فلعل ما صرف عنك أعظم مما ابتليت به ، ولعل ما ابتليت به أيسر مما صرف عنك ، فبينما هو يحاوره ، إذ نظر لقمان أمامه ، فلم ير الدحان والسواد ، فقال في نفسه : لم أر شيئاً ، ثم قال : قد رأيت ، ولكن لعله أن يكون قد أحدث رى بما رأيت شيئاً ، فبينما هو يتفكر في ذلك ، إذ نظر فإذا هو بشخص قد أقبل على فرس أبلق ، عليه ثياب بيض ، يمسح الهواء مسحاً . فلم يزل يرمقه بعينيه حتى كان منه قريباً ، فتوارى عنه ثم صاح به فقال : أنت لقمان ؟ قال : نعم . قال : ما قال لك ابنك هذا السفیه ؟ قال : يا عبد الله من أنت ؟ ما أسمع كلامك ولا أرى وجهك ؟ قال : أنا جبريل ، لا يرانى إلا ملك مقرب ، أو نبي مرسل ، لولا ذلك لرأيتنى ، فما قال لك ابنك هذا السفیه ؟ قال : أما علمت ذلك ؟ فقال جبريل : ما لى بشيء من أمركا علم ، إلا أن حفظتكما أتونى ، وقد أمرنى رى تعالى بخسف هذه المدينة وما فيها ومن يلها ، فأخبرونى أنكما تريدان هذه المدينة ، فدعوت رى أن يحسبكما عنى بما شاء ، فحسبكما عنى بما ابتلى به ابنك ، ولولا ذلك لخسف بكما مع من خسف به ، ثم مسح جبريل — عليه السلام — بيده على قدم الغلام ، فاستوى قائماً ، ومسح يده على الذى كان فيه الطعام فامتلاً طعاماً ، ومسح على الذى كان فيه ماء فامتلاً ماء ، ثم حملهما وحماريهما فرحل بهما كما يرحل الطير ، فإذا هما فى الدار التى خرجا منها بعد أيام وليالى .

● الوجه الثانى : الرضى بالألم ، لما يتوقع من الثواب المدخر ، كما تقدم من الرضى بالفصد والحجامة وشرب الأدوية انتظاراً للشفاء .

● الوجه الثالث : الرضى به لا لحظ وراءه ، بل لكونه مراد المحبوب ، فيكون ألد الأشياء عنده ما فيه رضى محبوبه ، ولو كان فى ذلك هلاك نفسه ، كما قال بعضهم : فما لجرح إذا أرضاكم ألم . وقد سبق أن الحب يستولى بحيث يدهش عن إدراك الألم ، ولا ينبغى أن

ينكر ذلك من فقد من نفسه ، لأنه إنما فقد له سببه ، وهو فرط حبه ، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه ، ولعمري إن من فقد السمع أنكر لذة الألحان والنغمات ، فمن فقد القلب ، فلا بد أن ينكر هذه اللذات التي لا مظنة لها سوى القلب .

● فصل في ان الدعاء لا يناقض الرضى

واعلم : أن الدعاء لا يناقض الرضى ، وكذلك كراهة المعاصى ومقت أهلها وأسبابها ، والسعى في إزالتها . أما الدعاء ، فقد تعبدنا الله — تعالى — به ، وقد أثنى الله — تعالى — على بعض عباده بقوله : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ ^(١) . ودعاء رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — وغيره من الأنبياء والصالحين معلوم . وأما إنكار المعاصى وعدم الرضى بها ، فقد تعبدنا الله — تعالى — به ، وذم الراضى به ، وكذلك بغض الكفار والفجار ، والإنكار عليهم ، وشواهد ذلك في القرآن والأخبار كثيرة جداً . فإن قيل : فقد وردت الأخبار بالرضى بقضاء الله — تعالى — ، فإن كانت المعاصى بغير قضاء الله — تعالى — ، فهو محال ، وإن كانت بقضائه ، فكراهتها كراهة لقضائه ، فكيف الجمع بين هذين الحالين .

فاعلم أن هذا مما يلتبس على القاصرين على الوقوف على أسرار العلم ، حتى التبس على قوم ، فرأوا السكوت عن الإنكار مقاماً من مقامات الرضى ، وسموه حسن الخلق ، وهو جهل محض ، بل نقول : الرضى والكراهة يتضادان ، إذا تواردا على شيء واحد ، من جهة واحدة ، على وجه واحد . فأما إذا رضيت بشيء من وجه ، وكرهته من وجه آخر ، فليس ذلك بمتضاد ، نحو أن يموت عدوك الذى هو أيضاً عدو لبعض أعدائك ، وساع فى إهلاكه ، فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك ، وترضاه من حيث إنه عدوك ، وكذلك للمعصية وجهان : وجه إلى الله — تعالى — ، من حيث إنها اختياري وإرادته ، فرضى بها من هذا الوجه تسليماً للملك إلى مالك الملك ، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة لكونه ممقوتاً عند الله — تعالى — وبغيضاً عنده ، حيث سلب على أسباب البعد والمقت ، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم ، ولا ينكشف هذا إلا بمثال ، فلنفرض محبوباً من الخلق قال بين يدي محبة : إني أريد أن أميز بين من يحبني ويغضني ، وأنصب لذلك معياراً صادقاً ، وهو أنى أقصد إلى فلان فأضربه ضرباً شديداً يضطره ذلك إلى الشتم لى ، حتى إذا شتمنى أبغضته واتخذته عدواً ، فكل من أحبه علمت أنه أيضاً عدو لى ، وكل من أبغضه علمت أنه محبى وصديقى ، ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذى هو سبب البغض ، وحصل البغض الذى هو سبب العداوة ، فحق على كل من هو صادق فى محبته أن يقول : أما تدبيرك فى ضرب هذا الشخص وأذاه ، فأنا محب له ، فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك ، وأما شتمه إياك من حيث نسبته إلى هذا الشخص ، فإنه عدوان منه وتهجم عليك ، فأنا كاره

(١) الأنبياء : ٩٠ .

له من حيث نسبته إليه إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ، فكذلك تسليط الله — سبحانه وتعالى — دواعي الشهوة والمعاصي على العبد ، وبغضه على عصيانه .

فواجب على كل عبد محب لله أن ييغض من أبغضه الله — عز وجل — ، ويعادى من عاداه وأبعده عن حضرته ، وإن اضطره بغيره وقدرته إلى معاداته ومخالفته ، فإنه بعيد مطرود ، والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون بغضاً إلى جميع المحبين ، موافقة لمحبوبهم ، بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده . وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله ، والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم ، والمبالغة في مقتهم ، مع الرضى بقضاء الله — تعالى — ، من حيث إنه قضاؤه ، وهذا كله يستمد من سر القدر الذي لا رخصة في إفشائه ، وهو أن الخير والشر كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة ، ولكن الشر مراد مكروه ، والخير مراد مرضى به .

والأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع ، والوقوف مع ما تعبد به الخلق ، من الجمع بين الرضى بقضاء الله — تعالى — ومقت المعاصي ، والله — تعالى — أعلم . ومما يتعلق بالهبة . قيل : أوحى الله — تعالى — إلى داود — عليه السلام — : لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ، ورفقي بهم ، وشوقي إلى ترك معاصيهم ، لامتوا شوقاً إلي ، وتقطعت أوصالهم من محبتي . يادود : هذه إرادتي في المدبرين عني ، فكيف إرادتي في المقبلين علي ؟ يادود أحوج ما يكون العبد إلى إذا استغنى عني ، وأجل ما يكون عندي إذا رجعت إلي . وكانت امرأة متعبدة تقول : والله لقد سئمت الحياة ، حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقاً إلى الله — تعالى — ، وحباً للقائه . فقيل لها : فعلى ثقة أنت من عملك ؟ قالت : لا ، ولكنني لحبي إياه وحسن ظني به ، أفتراه يعذبني وأنا أحبه ؟

● باب في النية والإخلاص والصدق

اعلم : أنه قد انكشف لأرباب القلوب ببصرة الإيمان وأنوار القرآن أنه لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة . فالتناس كلهم هلكى ، إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . فالعمل بغير نية عناء ، والنية بغير إخلاص رياء ، والإخلاص من غير تحقيق هباء . قال الله — تعالى — : ﴿ وَقَدْ مَنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَبَجَعْنَاهُ هَبَاءً مَثُورًا ﴾^(١) . وليت شعري ، كيف تصلح نية من لا يعرف حقيقة النية ؟ أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص ؟ أو كيف يطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه ؟ فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله — تعالى — ، أن يعلم النية أولاً ، لتحصل له المعرفة ، ثم يصححها

(١) الفرقان : ٢٣ .

بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتان للعبد إلى النجاة . ونحن نذكر ذلك في ثلاثة فصول :

● الفصل الأول ●

فى النية وحقيقتها وفضلها وما يتعلق بذلك

قال الله — تعالى — : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾^(١) والمراد بالإرادة : النية . وعن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — يقول : « إنما الأعمال بالنية ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه »^(٢) .

وعن أبى موسى قال : جاء رجل إلى النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — فقال : يا رسول الله أرأيت الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياءً ، أئى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » . أخرجاهما فى « الصحيحين »^(٣) وعن جابر — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « لقد خلفتم بالمدينة رجالاً ، ما قطعتم وادياً ، ولا سلكم طريقاً ، إلا شركوكم فى الأجر ، حسبهم المرض ، أخرجه مسلم ، وأخرجه البخارى من حديث أنس^(٤) . وفى « الصحيحين » من حديث ابن عباس ، عن النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « من همَّ بحسنة فلم يعملها كتب له حسنة »^(٥) . وعن أبى كبشة الأنصارى قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر : رجل آتاه الله مالاً وعلماً ، فهو يعمل به فى ماله ينفقه فى حقه . ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً ، وهو يقول : لو كان لى مثل مال هذا عملت فيه مثل الذى يعمل ، قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — فهما فى الأجر سواء . ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً ، فهو يبط فيه ، ينفقه فى غير حقه . ورجل لم يؤته مالاً ولا علماً ، فيقول : لو كان لى مثل هذا عملت فيه مثل الذى يعمل . قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : فهما فى الوزر سواء »^(٦) .

(١) الأنعام : ٥٢ .

(٢) رواه البخارى فى كتاب « الإيمان » ، باب « ما جاء إن الأعمال بالنيات » ، رقم [٥٤] ، مسلم فى « الإمارة » ، رقم [١٥٥] . (٣) تقدم تخريجه .

(٤) رواه مسلم فى كتاب « الإمارة » ، رقم [١٥٩] ، الإمام أحمد فى المسند [٣٠٠/٣] .

(٥) رواه البخارى فى « الرقاق » ، باب « من هم بحسنة أو بسيئة » ، رقم [٦٤٩١] ، مسلم فى « الإيمان » ، رقم [٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٥٩] .

(٦) المسند [٢٣٠/٤ ، ٢٣١] .

وعن أمي عمران الجوني قال : تصعد الملائكة بالأعمال ، فينادي الملك : ألقى تلك الصحيفة ، قال : فتقول الملائكة : ربنا قال خيراً وحفظناه عليه . فيقول — تبارك وتعالى — : إنه لم يرد به وجهي قال وينادي الملك اكتب لفلان كذا وكذا مرتين فيقول يارب إنه لم يعمل ، فيقول — عز وجل — : إنه قد نواه . وقال عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — : أفضل الأعمال أداء ما افترض الله — تعالى — ، والورع عما حرم الله — تعالى — ، وصدق النية فيما عند الله — تعالى — . وكان بعضهم يقول : دلوني على عمل لا أزال به عاملاً لله — تعالى — ، ف قيل له : انو الخير ، فإنك لا تزال عاملاً وإن لم تعمل ، فالتية تعمل وإن عدم العمل ، فإنه من نوى أن يصلي بالليل فنام ، كتب له ثواب ما نوى أن يفعله . وقد جاء في الحديث : « ما من رجل يكون له ساعة من الليل يقومها ، فينام عنها إلا كتب له أجر صلاته ، وكان نومه صدقة تصدق بها عليه »^(١) . وقد جاء في الحديث : « نية المؤمن خير من عمله »^(٢) . والنية ، والإرادة ، والقصد ، عبارات متواردة على معنى واحد .

◎ واعلم ان الأعمال تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

« القسم الأول : المعاصي فلا تتغير عن موضعها بالنية ، مثل من يبنى مسجداً بمال حرام يقصد بذلك الخير ، فإن النية لا تؤثر فيه ، فإن قصد الخير بالشر شر آخر ، فإن الخيرات إنما تعرف كونها خيرات بالشرع ، فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً ، هيهات !

« واعلم : أن من تقرب من السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام ، كان كتقرب علماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار المشغولين بالفسق ، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله — تعالى — ، يتكالبون على الدنيا ، ويتبعون الهوى ، ووبال ذلك راجع إلى معلمهم ، إذ علم فساد نياتهم ومقاصدهم . ومن هذا القبيل تعلم القصاص القصص ، فإن مقاصد أكثرهم معروفة ، وقصدهم اجتلاب الدنيا ، وأخذ الأموال كيف اتفق ، فتعليمهم إعانة على الفساد ، فقد علمت أن الطاعة تنقلب معصية بالقصد . وأما المعصية ، فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً بل إذا انضاف إليها قصد خبيث تضاعف وزرها وعظم وبالها .

« القسم الثاني : الطاعات ، وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها ، وفي تضاعف فضلها ، أما الأصل ، فهو أن ينوي عبادة الله — تعالى — لا غير ، فإن نوى الرياء صارت معصية . وأما تضاعف الفضل ، فبكثرة النيات الحسنة ، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة ، فيكون له بكل نية ثواب ، إذ كل واحدة منها حسنة ، ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها . مثال ذلك القعود في المسجد ، فإنه طاعة ، ويمكن أن ينوي بها نيات كثيرة : منها

(١) المسند [٦٣/٦] .

(٢) الحديث في مسند الفردوس رقم [٦٨٤٢] ، وفي مجمع الزوائد [٦١/١ ، ١٠٩] عزاه للطبراني في الكبير ورجاله موثقون إلا حاتم بن عباد لم أر من ترجم له .

أن ينوى بدخوله انتظار الصلاة، ومنها الاعتكاف وكف الجوارح ، فإن الاعتكاف كف ، ومنها دفع الشواغل الصارفة عن الله — تعالى — بالانقطاع إلى المسجد ، وإلى ذكر الله — تعالى — فيه ، ونحو ذلك ، فهذا طريق تكثير النيات ، فقس على ذلك سائر الطاعات ، إذ ما من طاعة إلا وتحتل نيات كثيرة .

• **القسم الثالث :** المباحات ، فما من شيء من المباحات إلا ويحتل نية أو نيات ، تصير بها قربات ، وينال بها معالي الدرجات ، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطى البهائم المهملة . ولا ينبغي أن يحتقر العبد الخطرات واللحظات ، فكل ذلك يسأل عنه في القيامة ، لم فعله ؟ وما الذى قصد به ؟ مثال ما ينوى به القربة من المباحات أن يتطيب ، وينوى بالطيب اتباع السنة ، واحترام المسجد ، ودفع الروائح الكريهة التى تؤذى مغالطيه . وقال الشافعى — رحمه الله — : من طاب ريحه زاد عقله . وكذلك معالجة رأسه تزيد فطنته وذكائه ، فيسهل عليه إدراك مهمات دينه .

وقال بعض السلف : إني لأستحب أن يكون لى فى كل شيء نية ، حتى فى أكلى وشرى ونومى ودخولى الخلاء ، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله — تعالى — ، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات الدين ، فمن قصد من الأكل التقوى على العبادة ، ومن النكاح تحصين دينه ، وتطيب قلب أهله ، والتوصل إلى ولد يعبد الله بعده ، أثيب على ذلك كله ، ولا تحتقر شيئاً من حركاتك وكلماتك ، وحاسب نفسك قبل أن تحاسب ، وصحح قبل أن تفعل ما تفعله ، وانظر فى نيتك فيما تتركه أيضاً .

واعلم : أن النية هى انبعاث النفس وميلها إلى ما ظهر لها أن مصلحة لها ، إما فى الحال أو المآل ، وربما سمع بعض الجهال ما أوصينا به من تحسين النية ، فقال عند أكله : نويت أن أكل لله ، أو عند قراءته : نويت أن أقرأ لله ، وظن أن ذلك نية ، وليس كذلك ، إنما النية انبعاث القلب ، وتجرى مجرى الفتوح من الله — تعالى — ، وليست النية داخلية تحت الاختيار ، فقد تيسر فى بعض الأوقات ، وقد تتعذر ، وإنما تيسر له فى الغالب لمن قلبه يميل إلى الدين دون الدنيا . والناس فى النيات على أقسام : منهم من يكون عمله للطاعة إجابة لباعث الخوف .

ومنهم من يكون عمله إجابة لباعث الرجاء . وثمة مقام أرفع من هذين ، وهو أن يعمل الطاعة على نية جلال الله — تعالى — لاستحقاقه الطاعة والعبودية ، وهذه لا تيسر لراغب فى الدنيا ، وهى أعز النيات وأعلاها ، وقليل من يفهمها ، فضلاً عن أن يتعاطاها ، وصاحب هذا المقام لا يجاوز ذكر الله — تعالى — والفكر فى جلاله حباً له .

وقد حكى أحمد بن حنبل أنه رأى رب العزة فى منامه ، فقال له : كل الناس يطلبون منى ، وأبو يزيد يطلبنى . وغرضنا من هذه النيات متفاوتة فى الدرجات ومن غلب على

قلبه منها ، فربما لم يتيسر له العُدول إلى غيرها ، ومن حضرت له نية في المباح ، ولم تحضر في فضيلة ، فالمباح أولى ، وانتقلت الفضيلة إليه . مثال ذلك أن تحضره نية في الأكل والنوم ليتقوى بذلك على العبادة ويرى بدنه ولم تنبعث نيته في الحال إلى الصلاة والصوم ، فالأكل والنوم أفضل ، بل لو ملَّ العبادة لكثرة مواظبته عليها ، وعلم أنه لو تفرغ ساعة بمباح عاد نشاطه ، فذلك أفضل من التعبد حيثئذ . قال علي - عليه السلام - : روحوا القلوب ، واطلبوا له طُرف الحكمة ، فإنها تمل كما تمل الأبدان . وقال بعضهم : روحوا القلوب تعي الذكر .

وهذه دقائق لا تدركها إلا بممارسة العلماء ، فإن الحاذق في الطب قد يعالج الحرور باللحم مع حرارته ، ويستبعد ذلك القاصر في الطب ، وإنما يتغنى به أن تعود قوته ليحتمل المعالجة ، وكذلك الخبير بالقتال ، قد يفر من بين يدي قرنه حيلة منه ، ليستجره إلى مضيق . فسلك طريق الله - تعالى - كله حرب مع الشيطان ، ومعالجة للقلب ، والمبصر الموفق يقف في تلك الطريق على لطائف من الحيل يستبدها الضعفاء ، فلا ينبغي لهم استبعاد ما خفى عليهم ، بل يسلمون لأصحاب الأحوال إلى أن ينكشف لهم أسرار ذلك ، أو ينالوا ذلك المقام .

● الفصل الثاني ●

في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

قال الله - تعالى - : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ^(١) وقال : ﴿ إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ ^(٢) وغير ذلك من الآيات . وقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لمعاذ بن جبل - رضى الله عنه - : « أخلص دينك يكفك القليل من العمل » ^(٣) . وفي حديث أنس - رضى الله عنه - قال : « إذا كان يوم القيامة جاءت الملائكة بصحف مخطمة ، فيقول الله - عز وجل - : ألقوا هذا ، وأقبلوا هذا ، فتقول الملائكة : وعزتك ما كتبنا إلا ما كان . فيقول : إن هذا كان لغيري ، ولا أقبل اليوم إلا ما كان لي » ^(٤) .

(١) البينة : ٥ . (٢) الزمر : ٣ .

(٣) رواه الحاكم في المستدرک [٣٠٦/٤] عن معاذ بن جبل وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ولكن تعبه الذهبي وقال : ليس بصحيح .

(٤) في جمع الجوامع [٨٣/١] ذكره السيوطي وعزاه لسمويه عن أنس ، والأمل في ذلك ما رواه أبو داود من حديث أبي هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله رجل يعني الجهاد في سبيل الله وهو يعنى عرضاً من عرض الدنيا ؟ فقال رسول الله - ﷺ - : « لا أجر له » . وأخرج النسائي بسند حسن من حديث أبي أمامة : أرأيت رجلاً غزا يخلص الأجر والذكر ماله ؟ ، فقال : لا شيء له ، فأعادها ثلاث مرات يقول له لا شيء له ، ثم قال : إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه .

وعن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « إن الملائكة يرفعون عمل العبد فيكثرونه ويزكونه ، فيوحى الله — تعالى — إليهم : أنم حفظة على عمل عبي ، وأنا رقيب على ما في نفسه ، إن عبي لم يخلص في عمله ، فاجعلوه في سجين ، ويصعدون بعمل العبد يستقلونه ، فيوحى الله إليهم : إنكم حفظة على عمل عبي ، وأنا رقيب على ما في نفسه فضاعفوه واجعلوه في عليين » .

ويروى عن الحسن قال : كانت شجرة تعبد من دون الله ، فجاء إليها رجل فقال : لأقطعن هذه الشجرة ، فجاء إليها ليقطعها غضباً لله ، فلقى الشيطان في صورة إنسان فقال : ما تريد ؟ قال : أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله . قال : إذا أنت لم تعبدنا ، فما يضرك من عبدا ؟ قال : لأقطعنها . فقال له الشيطان : هل لك فيما هو خير لك من ذلك ، لا تقطعها ولك ديناران إذا أصبحت عند وصادتك . قال : فمن لي بذلك ؟ قال : أنا لك . فرجع فأصبح فوجد عند وصادته دينارين ، ثم أصبح بعد فلم يجد شيئاً ، فقام غضبان ليقطعها ، فتمثل له الشيطان في صورته ، فقال : ما تريد ؟ قال : أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله . قال : كذبت ، مالك إلى قطعها سبيل ، فذهب ليقطعها ، فضرب به الأرض وخنقه حتى كاد يقتله ، ثم قال له : أتدرى من أنا ؟ فأخبره أنه الشيطان ، وقال : جئت أول مرة غضباً لله ، فلم يكن لي عليك سبيل ، فخدعتك بالدينارين فتركتها ، فلما فقدتهما جئت غضباً للدينارين ، فسلبت عليك .

وكان معروف الكرخي يضرب نفسه ويقول : يانفس أخلصي وتخلصي . وقال أبو سليمان : طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله — تعالى — . وحكى أن رجلاً كان يخرج في زى النساء ، فيحضر حيث يحضرن من عرس ، أو مأتم ، فاتفق أنه حضر يوماً موضعاً فيه مجمع النساء ، فسرق درة ، فصاحوا : أغلقوا الباب حتى نفتش ، ففتشوا واحدة واحدة حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه ، فدعا الله بالإخلاص وقال : إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا ، فوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا : أطلقوا الحرة ، فقد وجدنا الدرة .



بيان حقيقة الإخلاص

اعلم: أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه ، سمي إخلاصاً . والإخلاص يضاده الإشرak ، فمن ليس مخلصاً ، فهو مشرك ، إلا أن الشرك درجات . فالإخلاص في التوحيد بضاده الشرك في الإلهية . والشرك منه جلي ومنه خفي ، وكذلك الإخلاص ، وقد ذكرنا درجات الرياء فيما تقدم في بابهِ ، وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ، ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر ، إما من الرياء ، أو من غيره من حظوظ النفس .

ومثال ذلك أن يصوم ليتنفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب ، أو يعتق عبداً ليتخلص من مؤونته وسوء خلقه ، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر ، أو للتخلص من شر يعرض له ، أو يغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابها ، أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه ليراقب رحله أو أهله ، أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال ، أو يشتغل بالتدريس ليفرح بلذة الكلام ، ونحو ذلك . فمتى كان باعته التقرب إلى الله — تعالى — ، ولكن انضاف إليه خاطر من هذه الخواطر ، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور ، فقد خرج عمله عن حد الإخلاص .

والإنسان قلما يتفك فعل من أفعاله ، وعبادة من عباداته عن شيء من هذه الأمور ، فلذلك قيل : من سلم له في عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله — تعالى — ، نجا ، وذلك لعزة الإخلاص ، وعسر تنقية القلب من هذه الشوائب ، لأن الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب التقرب من الله — تعالى ..

قيل لسهل : أى شئ أشد على النفس ؟ قال : الإخلاص ، إذ ليس لها فيه نصيب .

واعلم: أن الشوائب المكدرة للإخلاص متفاوتة ، بعضها جلي ، وبعضها خفي ، وقد ذكرنا درجات الرياء في بابهِ . ومن الرياء ما هو أخفى من ديب الثمل ، فيطلب هناك ، وحاصله أن مادام العامل يفرق بين مشاهدة الإنسان والبيمة في حالة من العمل ، فهو خارج عن صفو الإخلاص ، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله — تعالى — وتوفيقه . وقد قيل : ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من جاهل ، وأريد به العالم بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها ، والجاهل ينظر إلى ظاهر العبادة ، وقيراط من الذهب الذي يرتضيه الناقد خير من دينار يرتضيه الغر الغبي .

● فصل في حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

أما العمل الذي لا يريد به إلا الرياء ، فهو على صاحبه لا له ، وهو سبب للعقاب ، كما أن العمل الخالص لوجه الله — تعالى — سبب للثواب . ولا إشكال في هذين

القسمين ، وإنما النظر في العمل المشوب الممتزج بشوب الرياء وحفظ النفس . وقد اختلف الناس في ذلك ، هل يقتضى ثواباً أو عقاباً ، أو لا يقتضى شيئاً أصلاً ؟ وليس تخلو الأخبار عن تعارض في ذلك .

والذى يتضح لنا فيه — والعلم عند الله تعالى — أن ننظر إلى قدر قوة البواعث ، فإن كان الباعث الدينى مساوياً للباعث النفسانى تقاوماً وتساقطاً ، وصار العمل لا له ولا عليه ، وإن كان باعث الرياء أقوى ، ضر وأوجب العقاب ، لكن عقابه دون عقاب من تجرد للرياء ، وإن كان الباعث الدينى أقوى من الآخر ، فله ثواب بقدر ما فضل من قوته ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ۖ ﴾^(١) .

ويشهد لما ذكرنا إجماع الأمة على أن من خرج حاجاً ومعه تجارة ، صح حجه وأُثِّب عليه ، وقد امتزج به حظ من حفظ النفس ، إلا أنه متى كان الحج هو المحرك الأصلي ، لم ينفك السفر عن ثواب ، وكذلك الغازى إذا قصد الغزو والغنيمة ويكون قصد الغنيمة على سبيل التبع ، حصل له الثواب ، ولكنه لا يساوى ثواب من لا يلتفت إلى الغنيمة أصلاً ، والله — تعالى — أعلم .

● الفصل الثالث ●

فى الصدق وحقيقته وفضله

عن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهذى إلى البر ، وإن البر يهذى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً » . رواه البخارى ومسلم^(٢) وقال بشر الخافى : من عامل الله بالصدق ، استوحش من الناس .

واعلم أن لفظ الصدق قد يستعمل فى معان :

• أحدها : الصدق فى القول ، فحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه ، ولا يتكلم إلا بالصدق ، والصدق باللسان هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها . وينبغى أن يحترز عن المعارض ، فإنها تجانس الكذب إلا أن تمس الحاجة إليها ، وتقتضيها المصلحة فى بعض الأحوال ، وقد كان النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — إذا أراد غزوة ورى بغيرها لئلا ينتهى الخير إلى الأعداء فيتهيؤوا لقتاله ، وقال — صلى الله عليه وآله وسلم — : « ليس بكاذب

(١) النساء : ٤٠ .

(٢) رواه مسلم فى « البر » رقم [١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥] . والبخارى فى « الأدب » باب [٦٩] رقم [٦٠٩٤] .

من أصلح بين اثنين فقال خيراً ، أو غي خيراً (١) . وينبغي أن يراعى معنى الصدق في ألفاظه التي يتاجى بها ربه ، كقوله : وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض . فإن كان قلبه منصرفاً عن الله مشغولاً بالدنيا فهو كاذب .

* الثاني : الصدق في النية والإرادة ، وذلك يرجع إلى الإخلاص ، فإن مازج عمله شوب من حظوظ النفس ، بطل صدق النية ، وصاحبه يجوز أن يكون كاذباً كما في حديث الثلاثة : العالم ، والقارىء ، والمجاهد . لما قال القارىء : قرأت القرآن إلى آخره ، إنما كذبه في إرادته ونيته ، لا في نفس القراءة ، وكذلك صاحبه .

* الثالث : الصدق في العزم والوفاء به . أما الأول : فنحو أن يقول : إن آتاني الله مالاً تصدقت بجميعه ، فهذه العزيمة قد تكون صادقة ، وقد يكون فيها تردد . وأما الثاني : فنحو أن يصدق في العزم وتسخر النفس بالوعد ، لأنه لا مشقة فيه إلا إذا تحققت الحقائق ، وانجلت العزيمة ، وغلبت الشهوة ، ولذلك إذا تحققت الحقائق ، وانجلت العزيمة ، وغلبت الشهوة ، ولذلك قال الله — تعالى — : ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (٢) . وقال في آية أخرى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّ ﴾ (٣) إلى قوله : ﴿ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (٤) .

* الرابع : الصدق في الأعمال ، وهو أن تستوى سريره وعلايته ، حتى لا تدل أعماله الظاهرة من الخشوع ونحوه على أمر في باطنه ، ويكون الباطن بخلاف ذلك . قال مطرف : إذا استوت سريرة العبد وعلايته قال الله — عز وجل — : هذا عبدي حقاً .

* الخامس : الصدق في مقامات الدين ، وهو أعلى الدرجات ، كالصدق في الخوف والرجاء والزهد والرضى والحب والتوكل ، فإن هذه الأمور لها مبادئ ينطلق عليها الاسم بظهورها ، ثم لها غايات وحقائق ، فالصادق المحقق من نال حقيقتها ، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمى صاحبه صادقاً . قال الله — تعالى — : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. ﴾ (٥) . إلى قوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (٦) . وقال — تعالى — : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٧) .

ولنضرب للخوف مثلاً فنقول : ما من عبد يؤمن بالله إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق

(١) رواه الترمذى في « البر » باب « ما جاء في إصلاح ذات البين » ، وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) الأعراب : ٢٣ .

(٣) التوبة : ٧٥ .

(٤) التوبة : ٧٧ .

(٥) البقرة : ١٧٧ .

(٦) الحجرات : ١٥ .

عليه الاسم وهو غير بالغ إلى درجة الحقيقة ، ألا تراه إذا خاف سلطاناً كيف يصفر ويرتعد خوفاً من وقوع المذخور ، ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند فعل المعصية . ولذلك قال عامر بن عبد قيس : عجبت للجنة نام طالها ، وعجبت للنار نام هاربها . والتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً ، فلا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها ، ولكن لكل حظ بحسب حاله ، إما ضعيف وإما قوى ، فإذا قوى سمى صادقاً ، وإذا علم الله من عبد صادقاً صفاً له ، والصادق في جميع هذه المقامات عزيز ، وقد يكون للعبد صدق في بعضها دون بعض . ومن علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعاً ، وكراهة اطلاع الخلق على ذلك .

● باب في المحاسبة والمراقبة

قال الله — تعالى — : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾^(١) ، وقال : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْذَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾^(٢) ، وقال : ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَعَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أُخْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّمْ رَبُّكَ أَخْذًا﴾^(٣) ، وقال : ﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(٤) فانتضت هذه الآيات وما أشبهها خطر الحساب في الآخرة .

وتحقق أرباب البصائر أنهم لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة لأنفسهم وصدق المراقبة . فمن حاسب نفسه في الدنيا ، خف في القيامة حسابه ، وحسن منقلبه . ومن أهمل المحاسبة دامت حسراته . فلما علموا أنهم لا ينجيهم إلا الطاعة وقد أمرهم الله — تعالى — بالصبر والمراقبة فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾^(٥) ، فربطوا أنفسهم أولاً بالمشاركة ، ثم بالمراقبة ، ثم بالمحاسبة ، ثم بالمعاقبة ، ثم بالمجاهدة ، ثم بالمعاقبة . فكانت لهم في المراقبة ستة مقامات ، وأصلها المحاسبة ، ولكن كل حساب يكون بعد مشاركة ومراقبة ، ويتبعه عند الخسران المعاقبة والمعاقبة ، ولا بد من شرح ذلك المقام .

© المقام الأول - المشاركة :

اعلم : أن التاجر كما يستعين بشريكه في التجارة طلباً للربح ، ويشارطه ويحاسبه ، كذلك العقل يحتاج إلى مشاركة النفس ، ويوظف عليها الوظائف ، ويشترط عليها الشروط ، ويرشدها إلى طريق الفلاح ، ثم لا يغفل عن مراقبتها ، فإنه لا يأمن خيانتها وتضييعها رأس

(١) آل عمران: ٣٠ (٢) الأنبياء: ٤٧ (٣) الكهف: ٤٩ (٤) الزلزلة: ٦-٨ (٥) آل عمران: ٢٠٠

المال ، ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها ، فإن هذه التجارة ربحها الفردوس الأعلى . فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم من تدقيقه بكثير من أرباح الدنيا . فحتم على كل ذى عزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه ، والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها ، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفسية لا عوض لها .

فإذا فرغ العبد من فريضة الصبح ، ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشاركة نفسه فيقول للنفس : ما لي بضاعة إلا العمر ، فإذا فنى منى رأس المال وقع اليأس من التجارة ، وطلب الربح ، وهذا اليوم الجديد قد أمهلنى الله فيه ، وأتخر أجلى ، وأنعم علىّ به . ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا حتى أعمل فيه صالحاً ، فاحسبى يانفس أنك قد توفيت ثم رددت ، فأياك أن تضيعى هذا اليوم ، واعلمى أن اليوم واللييلة أربع وعشرون ساعة ، وأن العبد ينشر له بكل يوم أربع وعشرون خزانة مصفوفة ، فيفتح له منها خزانة ، فيراها مملوءة نوراً من حسناته التى عملها فى تلك الساعة ، فيحصل له من السرور بمشاهدة تلك الأنوار ما لو وزع على أهل النار لأدهشتهم عن الإحساس بألم النار ، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح ريحها ويفشاه ظلامها ، وهى الساعة التى عصى الله — تعالى — فيها ، فيحصل له من الفزع والخزى ما لو قسم على أهل الجنة لنقص عليهم نعيمهم ، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسوءه ولا يسره ، وهى الساعة التى نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من المباح ، ويتحسر على خلوها ، ويناله ، ما نال القادر على الربح الكثير إذا أهمله حتى فاته ، وعلى هذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه : اجتهدى اليوم فى أن تعمري خزانتك ، ولا تدعيها فارغة ، ولـ تميلى إلى الكسل والدعة والاستراحة ، فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك .

قال بعضهم : هب أن المسيء قد عفى عنه ، أليس قد فاته ثواب المحسنين ؟ فهذه وصيته فى نفسه فى أوقاته . ثم يستأنف لها وصية أخرى فى أعضائه السبعة ، وهى : العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل ، وتسليمها إلى النفس ، فإنها رعايا خادمة لها فى هذه التجارة المخلدة ، بها يتم أعمالها ، ويعلمها أن أبواب جهنم سبعة على عدد هذه الأعضاء . فتعين تلك الأبواب لمن عصى الله — تعالى — بهذه الأعضاء ، فيوصيها بحفظها عن معاصيها . أما العين فيحفظها عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه ، أو إلى مسلم بعين الاحتقار وعن كل فضول مستغنى عنه ، ويشغلها بما فيه تجارتها وربحها ، وهو النظر إلى ما خلقت له من عجائب صنع الله — تعالى بعين الاعتبار ، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر فى كتاب الله — تعالى — ، وسنة رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — ، ومطالعة كتب الحكم للاعطاء والاستفادة .

وهكذا ينبغي أن يتقدم إلى كل عضو بالوصية بما يليق به ، ولا سيما اللسان والبطن وقد ذكرنا آفات اللسان فيما تقدم ، فيشغله بما خلق له ، من الذكر والتذكير ، وتكرار العلم والتعليم ، وإرشاد عباد الله — تعالى — إلى طريق الله ، وإصلاح ذات البين ، إلى غير ذلك من الخير . وأما البطن ، فيكلفه ترك الشره ، واجتناب الشبهات والشهوات ، ويقتصر على قدر الضرورة ، ويشترط على نفسه إن خالفت شيئاً من ذلك أن يعاقبها بالمتنع من شهوات البطن ، ليفوتها أكثر مما نالت بشهوتها . وهكذا في جميع الأعضاء ، واستقصاء ذلك يطول ، وكذلك ما تحفى طاعات الأعضاء ومعاصيها .

ثم يستأنف وصيتها في وظائف العبادات التي تتكرر في اليوم واللييلة ، في النوافل التي يقدر عليها ، وعلى الاستكثار منها ، وهذه شروط يفتقر إليها كل يوم إلى أن تتعود النفس ذلك ، فيستغنى عن المشاركة ، ولكن لا يخلو كل يوم من حادثة لها حكم جديد لله — تعالى — عليه في ذلك حق . ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا ، من ولاية أو تجارة أو نحو ذلك ، إذ قل أن يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها . فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها ، والانقياد للحق . وعن شداد بن أوس — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني »^(١) . وقال عمر — رضى الله عنه — : حاسبوا أنفسكم قبل أن تموت ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتنبؤوا للعرض الأكبر ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾^(٢) .

© **المقام الثانى - المراقبة :**

إذا أوصى الإنسان نفسه ، وشرط عليها ما ذكرناه ، لم يبق إلا المراقبة لها وملاحظتها . وفى الحديث الصحيح فى تفسير الإحسان ، لما سئل رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »^(٣) ، أراد بذلك استحضار عظمة الله ومراقبته فى حال العبادة . قيل : دخل الشبل على ابن أبى الحسين النورى وهو قاعد ساكن ، لا يتحرك من ظاهره شيء ، فقال له : بمن أخذت هذه المراقبة والسكون ؟ فقال : من سنور كانت لنا ، إذا أردت الصيد رابطت رأس الجحر حتى لا يتحرك لها شعرة . وينبغى أن يراقب الإنسان نفسه قبل العمل وفى العمل ، هل حركه عليه هوى النفس أو المحرك له هو الله — تعالى — خاصة ؟ فإن كان الله — تعالى — أمضاه ، وإلا تركه ، وهذا هو الإخلاص . قال الحسن : رحم الله عبداً وقف عند همه ، فإن كان لله مضى ،

(١) تقدم تحريمه . (٢) الحاقة : ١٨ .

(٣) رواه البخارى فى كتاب التفسير تفسير سورة لقمان رقم [٤٧٧٧] ، مسلم فى « الإيمان » رقم [٥٧] ، المسند [٢٧/١ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٣١٩] — [١٠٧/٢ ، ٤٢٦] — [١٢٩/٤] .

وإن كان لغيره تأخر . فهذه مراقبة العبد في الطاعة ، وهو أن يكون مخلصاً فيها ، ومراقبته في المعصية تكون بالتوبة والندم والإقلاع ، ومراقبته في المباح تكون بمراعاة الأدب ، والشكر على النعم ، فإنه لا يخلو من نعمة لا بد له من الشكر عليها ، ولا يخلو من بلية لا بد من الصبر عليها ، وكل ذلك من المراقبة . وقال وهب بن منبه في حكمة آل داود : حق على العاقل أن لا يشغل عن أربع ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ، ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلى بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ولا يحرم ، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات ، وإجماع للقوة . وهذه الساعة التي هو مشغول فيها بالمطعم والمشرّب ، لا ينبغي أن تخلو عن عمل هو أفضل الأعمال ، وهو الذكر والفكر ، فإن الطعام الذي يتناوله ، فيه من العجائب ما لو تفكر فيه كان أفضل من كثير من أعمال الجوارح .

© المقام الثالث - المحاسبة بعد العمل :

قال الله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ، وَتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ ^(١) . وهذه إشارة إلى المحاسبة بعد مضى العمل ، ولذلك قال عمر - رضى الله عنه - : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا . وقال الحسن : المؤمن قوام على نفسه ، يحاسب نفسه . وقال : إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول : والله إنى لأشتهيك وإنك لمن حاجتى ، ولكن والله ما من حيلة إليك ، هيئات حيل بينى وبينك ، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردت إلى هذا ، ما لى ولهذا ؟ والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله . إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن ، وحال بينهم وبين هلكتهم ، إن المؤمن أسير في الدنيا ، يسعى في فكاك رقبته ، لا يأمن شيئاً حتى يلقي الله - عز وجل - ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه ، وفي بصره ، وفي لسانه ، وفي جوارحه ، مأخوذ عليه في ذلك كله .

واعلم : أن العبد كما ينبغي أن يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه ، كذلك ينبغي أن يكون له ساعة يطالب فيها نفسه في آخر النهار ، ويحاسبها على جميع ما كان منها ، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم . ومعنى المحاسبة أن ينظر في رأس المال ، وفي الربح ، وفي الخسائر لتبين له الزيادة من النقصان ، فرأس المال في دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصي ، وليحاسبها أولاً على الفرائض ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقابها ومعاقبتها ليستوفى منها ما فرط .

قيل : كان توبة بن الصمة بالرقّة ، وكان محاسباً لنفسه ، فحسب يوماً فإذا هو ابن ستين سنة ، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم ، فصرخ وقال : ياويلتنا ! ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب وخمسمائة ذنب ؟! كيف وفي كل يوم عشرة

آلاف ذنب !! ثم خر مغشياً عليه فإذا هو ميت ، فسمعوا قائلاً يقول : ياها ركضة إلى الفردوس الأعلى ! فهكذا ينبغي للعبد أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصية القلب والجوارح في كل ساعة ، فإن الإنسان لو رمى بكل معصية يفعلها حجراً في داره لامتلأت داره في مدة يسيرة ، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي وهي مثبتة ﴿ أحصاه الله ونسوه ﴾^(١) .

© المقام الرابع - معاقبة النفس على تقصيرها :

اعلم : أن المرید إذا حاسب نفسه فرأى منها تقصيراً ، أو فعلت شيئاً من المعاصي فلا ينبغي أن يهملها ، فإنه يسهل عليه حينئذ مقارفة الذنوب ويعسر عليه فطامها ، بل ينبغي أن يعاقبها عقوبة مباحة كما يعاقب أهله وولده . وكما روى عن عمر — رضى الله عنه — : أنه خرج إلى حائط^(*) له ، ثم رجع وقد صلى الناس العصر ، فقال : إنما خرجت إلى حائطى ، ورجعت وقد صلى الناس العصر ، حائطى صدقة على المساكين . قال الليث : إنما فاتته الجماعة ، وروينا عنه أنه شغله أمر عن المغرب حتى طلع نجمان ، فلما صلاها أعتق رقبتين . وحكى أن تميم الدارى — رضى الله عنه — نام ليلة لم يقم يتهدج فيها حتى أصبح ، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذى صنع . ومر حسان بن سنان بغرفة فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عما لا يعنيك ! لأعاقبك بصوم سنة ، فصامها . فأما العقوبات بغير ذلك مما لا يحل ، فيحرم عليه فعله . مثال ذلك : ما حكى أن رجلاً من بنى إسرائيل ، وضع يده على فخذ امرأة ، فوضعها في النار حتى شلت ، وأن آخر حوّل رجله لينزل إلى امرأة ، ففكر وقال : ماذا أردت أن أصنع ؟ فلما أراد أن يعيد رجله قال : هيئات رجل خرجت إلى معصية الله لا ترجع معى . فتركها حتى تقطعت بالمطر والرياح ، وأن آخر نظر إلى امرأة فقلع عينيه ، فهذا كله محرم ، وإنما كان جائزاً في شريعتهم . وقد سلك نحو ذلك خلق من أهل ملتنا ، حملهم على ذلك الجهل بالعلم ، كما حكى عن غزوان الزاهد : أنه نظر إلى امرأة ، فلطم عينه حتى نفرت . وروينا عن بعضهم : أنه أصابته جنابة وكان البرد شديداً ، وأنه وجد في نفسه توقفاً عن الغسل ، فألى ألا يغتسل إلا في مرقعته ، ألا ينزعها ولا يعصرها ، فكانت شديدة الكثافة تزيد على عشرين رطلاً ، وهذا من الجهل بالعلم ، فإنه ليس للإنسان أن يتصرف في نفسه بمثل هذا . وقد ذكرت كثيراً من هذا الفن الصادر عن المتعبدين على الجهل في كتابي^(٢) المسمى بـ « تلبیس إبلیس » .

(١) المجادلة : ٦ . (*) حائط : بستان .

(٢) لاحظ أن الكلام هنا للمصنف الأول ابن الجوزى ، وكتاب « تلبیس إبلیس » متداول ومطبوع ، وقد طبعه مكتبة القرآن بتحقيق محمد على أبو العباس .

© المقام الخامس - المجاهدة :

وهو أنه إذا حاسب نفسه ، فينبغي إذا رآها قد قارفت معصية أن يعاقبها كما سبق ، فإن رآها تتواني بحكم الكسل في شيء من الفضائل ، أو ورد من الأوراد ، فينبغي أن يؤديها بثقل الأوراد عليها ، كما ورد عن ابن عمر — رضى الله عنه — فاتته صلاة في جماعة ، فأحيا الليل كله تلك الليلة . وإذا لم تطاوعه نفسه على الأوراد ، فإنه يجاهدوا ويكرهها ما استطاع . وقال ابن المبارك : إن الصالحين كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفواً ، وإن أنفسهم لا تواتينا إلا كرهاً . ومما يستعان به عليها أن يسمعها أخبار المجتهدين ، وما ورد في فضلهم ، ويصحب من يقدر عليه منهم ، فيقتدى بأفعاله .

قال بعضهم : كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى وجه محمد بن واسع وإلى اجتهداه ؟ فعملت على ذلك أسبوعاً . وقد كان عامر بن عبد قيس يصلي كل يوم ألف ركعة . وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يخضر ويصفّر ، وحج مسروق فما نام إلا ساجداً . وكان داود الطائي يشرب الفتيت مكان الخبز ، ويقرأ بينهما خمسين آية . وكان كرز بن وبرة يختم كل يوم ثلاث ختمات ، وكان عمر بن عبد العزيز ، وفتح الموصلي يكيان الدم ، وصلى أربعون نفساً من القدماء الفجر بوضوء العتمة ، وجاور أبو محمد الحريري سنة فلم ينم ولم يتكلم ، ولم يستند إلى حائط ، ولم يمد رجله ، فقال له أبو بكر الكتاني : بم قدرت على هذا ؟ قال : علم صدق باطني فأعاني على ظاهري . ودخلوا على زحلة العابدة فكلموها بالرفق بنفسها فقالت : إنما هي أيام مبادرة ، فمن فاته اليوم شيء لم يدركه غداً والله يا إخواناه ! لأصلين لله ما أفلتني جوارحي ، ولأصومن له في أيام حياتي ، ولأبكين ما حملت الماء عيناى .

ومن أراد أن ينظر في سير القوم ، ويتفرج في بساتين مجاهداتهم ، فلينظر في كتابي المسمى بـ « صفة الصفة » فإنه يرى من أخبار القوم ما يعد نفسه بالإضافة إليهم من الموتى ، بل من أخبار المتعبدات من النسوة ما يحتقر نفسه عند سماعه .

© المقام السادس - في معاتبة النفس وتوبيخها :

قال أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — : من مقت نفسه في ذات الله آمنه الله من مقتته . وقال أنس — رضى الله عنه — : سمعت عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — ودخل حائطاً فسمعته يقول [بيني وبينه جدار] : عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، بخ بخ ، والله لتتقين الله يا بن الخطاب أو ليعذبنك . وقال البخترى بن حارثة : دخلت على عابد فإذا بين يديه نار قد أجهجا وهو يعاتب نفسه ، فلم يزل يعاتبها حتى مات . وكان بعضهم يقول إذا ذكر الصالحون : فأف لى وتف .

واعلم : أن أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك ، وقد خلقت أثارة بالسوء ، ميالة إلى الشر ، وقد أمرت بتقويمها وتزكيتها وفطامها عن مواردنا ، وأن تقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها ، فإن أهملتها جمحت وشردت ، ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لزمته بالتوبيخ رجونا أن تصير مطمئنة ، فلا تغفلن عن تذكيرها . وسبيلك أن تقبل عليها ، فتقرر عندها جهلها وغباوتها وتقول : يا نفس ، ما أعظم جهلك ، تدعين الذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقاً ، أما تعلمين أنك صائرة إلى الجنة أو النار ؟ فكيف يلهو من لا يدري إلى أيتهما يصير ؟! وربما اختطف في يومه أو في غده ! أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب ، وأن الموت يأتي بغتة من غير موعد ، ولا يتوقف على سن دون سن ، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة ، وإن لم يكن الموت فجأة كان المرض فجأة ، ثم يفضى إلى الموت . فمالك لا تستعدين للموت وهو قريب منك ؟! يا نفس ، إن كانت جراتك على معصية الله — تعالى — لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك ! وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك ، فما أشد رقاعتك ، وأقل حياءك ؟ ألك طاقة على عذابه ؟ جرنى ذلك بالقيود ساعة في الحمام ، أو قرى أصبعك من النار . يا نفس ! إن كان المانع لك من الاستقامة حب الشهوات ، فاطلبي الشهوات الباقية الصافية عن الكدر ، ورب أكلة منعت أكلات .

وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء ثلاثة أيام ليصح ويتها لشربه طول العمر ؟! فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة ؟ أبصير ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر ؟ أم يقضى شهوته في الحال ثم يلزمه الألم أبداً ؟ فجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر ، بل أقل من لحظة بالإضافة إلى عمر الدنيا . وليت شعري ! ألم الصبر عن الشهوات أشد وأطول ، أم النار في الدركات ؟ فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة ، كيف يطيق ألم العذاب في الآخرة ؟ أشغلك حب الجاه ؟ أما بعد ستين سنة أو نحوها ، لا تبقي أنت ولا من كان لك عنده جاه . هلا تركت الدنيا لخسة شركائها ، وكثرة عنايتها وخوفاً من سرعة فنائها ؟ أتستبدلين بحوار رب العالمين صف النعال في صحبة الحمقى ؟ قد ضاع أكثر البضاعة ، وقد بقيت من العمر صباية ، ولو استدركت ندمت على ما ضاع ، فكيف إذا أضفت الأخير إلى الأول ؟ اعمل في أيام قصار لأيام طوال ، وأعدى الجواب للسؤال . أخرجني من الدنيا خروج الأحرار قبل أن يكون خروج اضطرار . إنه من كانت مطيته الليل والنهار سر به وإن لم يسر . تفكرى في هذه الموعظة ، فإن عدمت تأثيرها ، فابكى على ما أصبت به فمستقى الدمع من بحر الرحمة .

● باب التفكير

قد أمر الله — سبحانه — بالتفكير والتدبر فى كتابه العزيز ، وأثنى على المتفكرين بقوله : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا ﴾ ^(١) . وقال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ^(٢) .

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله » ^(٣) . وقال أبو الدرداء — رضى الله عنه — : تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم ، وما فهم إلا علم ، وما علم إلا عمل . وقال بشر الحافي : لو تفكر الناس فى عظمة الله — تعالى — لما عصوه .

وقال الفريابي فى قوله — تعالى — : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ^(٤) . قال : أمنع قلوبهم من التفكير فى أمرى .

وكان داود الطائى على سطح فى ليلة قمرء ، فتفكر فى ملكوت السماوات والأرض ، فوقع فى دار جار له ، فوثب عريانا ويده السيف ، فلما رآه قال : ياداد ، ما الذى ألقاك ؟ قال : ما شعرت بذلك . وقال يوسف بن أسباط : إن الدنيا لم تخلق لينظر إليها ، بل لينظر بها إلى الآخرة . وكان سفيان من شدة تفكره يبول الدم .

وقال أبو بكر الكتانى : روعة عند انتباهة من غفلة ، وانقطاع عن حظ نفسانى ، وارتعاد من خوف قطعية ، أفضل من عبادة الثقلين .

● بيان مجارى الفكر وثمراته

واعلم : أن الفكر قد يجرى فى أمر يتعلق بالدين ، وقد يجرى فى أمر يتعلق بغيره ، وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين ، وشرح ذلك يطول . فليُنظر الإنسان فى أربعة أنواع : الطاعات ، والمعاصى ، والصفات المهلكات ، والصفات المنجيات . فلا تغفل عن نفسك ، ولا عن صفاتك المباعدة عن الله ، والمقربة إليه . وينبغى لكل مرید أن تكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات ، وجملة الصفات المنجيات ، وجملة المعاصى والطاعات ، ويعرض ذلك على نفسه كل يوم .

ويكفيه من المهلكات النظر فى عشرة ، فإنه إن سلم منها سلم من غيرها ، وهى : البخل ،

(١) آل عمران : ١٩١ . (٢) الرعد : ٣ ، الروم : ٢١ ، الزمر : ٤٢ ، الحاشية : ١٣ .

(٣) قال العراقى فى تخریج الإحياء [٤١٠/٤] أخرجه أبو نعيم فى الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف ، ورواه الأصبهانى فى الترهيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ، ورواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر وقال : هذا إسناد فيه نظر . قال العراقى : وفيه الوزع بن نافع (متروك الحديث) .

(٤) الأعراف : ١٤٦ .

والكبر ، والعجب ، والرياء ، والحسد ، وشدة الغضب ، وشره الطعام ، وشره الوقاع ، وحب المال ، وحب الجاه . ومن المنجيات عشرة : الندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والرضى بالقضاء والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء ، والزهد في الدنيا والإخلاص في الأعمال ، وحسن الخلق مع الخلق ، وحب الله — تعالى — ، والخشوع . فهذه عشرون خصلة : عشرة مذمومة ، وعشرة محمودة ، فمتى كفى من المذمومات واحدة خط عليها في جريدته ، وترك الفكر فيها ، وشكر الله — تعالى — على كفايته إياها . وليعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله — تعالى — وعونه ، ثم يقبل على التسعة الباقية ، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع ، وكذلك يطالب نفسه بالاتصاف بالصفات المنجيات ، فإذا اتصف بواحدة منها ، كالتوبة والندم مثلاً ، خط عليها واشتغل بالباقي ، وهذا يحتاج إليه المرید المشتمر . فأما أكثر الناس من المعدودين في الصالحين ، فينبغي أن يشتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة ، كأكل الشبهات ، وإطلاق اللسان بالغيبة والهمة ، والمراء ، والثناء على النفس ، والإفراط في موالاة الأولياء ، ومعاداة الأعداء ، والمداينة في ترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه ، وما لم تطهر الجوارح من الآثام ، لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره .

وكل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من هذه الأمور ، فينبغي أن يكون تفقدهم لها وتفكيرهم فيها . مثاله العالم الورع فإنه لا يخلو في غالب الأمر من إظهار نفسه بالعلم ، وطلب الشهرة ، وانتشار الصيت ، إما بالتدريس ، أو بالوعظ . ومن فعل ذلك ، فقد تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون . وربما ينتهي العلم بأهل العلم إلى أن يتغايروا كما يتغايرون النساء ، وكل ذلك من رسوخ الصفات المهلكات في سر القلب التي يظن العالم النجاة منها ، وهو مغرور فيها . ومن أحسن من نفسه هذه الصفات ، فالواجب عليه الانفراد والعزلة ، وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى ، فقد كان الصحابة يتدافعون الفتاوى ، وكل منهم يود لو أن أخاه كفاه . وعند هذا ينبغي أن يتقى شياطين الإنس ، فإنهم قد يقولون : هذا سبب لاندساس العلم ، فليقل لهم : دين الإسلام مستغن عنى ، ولو مت لم يهدم الإسلام ، وأنا غير مستغن عن إصلاح قلبي ، فليكن فكر العالم في التفطن لخطايا هذه الصفات من قلبه ، نسأل الله أن يصلح فساد قلوبنا وأن يوفقنا لما يرضاه عنا .

● فصل : التفكير في ذات الله ممنوع منه

قد تقدم أن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله »^(١) فالتفكر في ذاته سبحانه ممنوع منه ، وذلك أن العقول تتحير في ذلك ، فإنه

(١) تقدم تحريمه .

أعظم من أن تمثله العقول بالتفكير ، أو تتوهمه القلوب بالتصوير : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١) . فأمّا التفكير في مخلوقات الله — تعالى — ، فقد ورد القرآن بالحث على ذلك كقوله — تعالى — : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾^(٢) ... الآيات . وقوله : ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣) .

ومن آيات الله — تعالى — الإنسان المخلوق من نقطة ، فيتفكر الإنسان في نفسه ، فإن في خلقه من العجائب الدالة على عظمة الله — تعالى — ، ما تنقضى الأعمار في الوقوف على عشر عشرة وهو غافل عن ذلك . وقد أمره الله — تعالى — بالتدبر في نفسه ، فقال : ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٤) . وقد تقدم في كتاب الشكر الكلام على بعض خلق الإنسان فليطلب هناك .

ومن آياته الجواهر المودعة في الجبال ، والمعادن من الذهب والفضة والفيروزج . ونحوها ، وكذلك النفط والكبريت والقار وغيرها . ومن آياته البحار العظيمة العميقة المكتنفة لأقطار الأرض ، التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض . ولو جمع المكشوف من الأرض ، من البرارى ، والجبال ، لكان بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم ، وفي البحر عجائب أضعاف ما تشاهده في البر . وانظر كيف خلق اللؤلؤ ، ودوره في صدفة تحت الماء ، وانظر كيف أنبت المرجان في صم الصخور تحت الماء ، وكذلك ما عدها من العنبر وأصناف ما يقذفه البحر ، وانظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله — تعالى — على وجه الماء ، وسيرها في البحار تسوقها الرياح وأعجب من ذلك الماء ، فإنه حياة كل ما على الأرض من حيوان ونبات ، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ، ومنع منها لبذل جميع خزائن الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك ، ثم إذا شربها ومنع خروجها ، لبذل جميع خزائن الأرض في إخراجها ، فلا يغفل العبد عن هذه النعمة .

ومن آياته الهواء وهو جسم لطيف لا يرى بالعين ، ثم انظر إلى شدته وقوته ، وانظر إلى عجائب الجو ، وما يظهر فيه من الغيوم والرعد والبرق والمطر والثلج والبرد والشهب والصواعق ، وغير ذلك من العجائب . وانظر إلى الطير تسبح بأجنحتها بالهواء كما يسبح حيوان البحر في الماء ، ثم انظر إلى السماء وعظمتها وكواكبها وشمسها وقمرها ، وما فيها كوكب إلا والله فيه حكمة في لونه وشكله وموضعه ، وانظر إلى إيلاج الليل في النهار ، والنهار في الليل ، وانظر مسير الشمس ، كيف اختلف في الصيف والشتاء والربيع والخريف .

وقد قيل : إن الشمس مثل الأرض مائة ونيفاً وستين مرة ، وإن أصغر كوكب في السماء مثل الأرض ثمان مرات ، فإذا كان هذا قدر كوكب واحد ، فانظر إلى كثرة الكواكب ،

(١) الشورى : ١١ (٢) آل عمران : ١٩٠ . (٣) يونس : ١٠١ . (٤) الداريات : ٢١

وإلى السماء التي فيها الكواكب ، وإلى إحاطة عينك بذلك مع صغرها ، والعجب منك أنك تدخل بيت غنى مزخرف مموه بالذهب ، فلا ينقطع تعجبك منه ، ولا تزال تذكره وأنت تنظر إلى هذا البيت العظيم ، وإلى أرضه وسقفه وعجائبه وأمتعته وبدائع نقوشه ، ثم لا تلتفت إلى نحوه بقلبك ، ولا تتفكر في بناء خالقك ، فلقد نسيت نفسك وربك ، واشتغلت ببطونك وفرجك ، فما مثلك في غفلتك إلا كمثّل غلّة تخرج من بيتها الذي حفرته في حائط قصر الملك ، فتلقى أختها فتحدث معها في حديث بيتها ، وكيف بنته وما جمعت فيه ، ولا تذكر قصر الملك ولا من فيه . فهكذا أنت في غفلتك ، فما تعرف من السماء إلا ما تعرفه الغلّة من سقف بيتها .

فهذا بيان معاهد الجمل التي يجول فيها فكر المتفكرين ، والأعمار تقصر ، والعلوم تقل عن الإحاطة ببعض المخلوقات ، إلا أنك كلما استكثرت من معرفة عجائب المصنوعات ، كانت معرفتك بجلال الصانع أتم . فتفكر فيما أشرنا ههنا مع ما قدمناه من الإشارة في كتاب الشكر . فمن نظر في هذه الأشياء من حيث إنها فعل الله وصنعه ، استفاد المعرفة بجلال الله — تعالى — وعظمته ، ومن قصر النظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض ، لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب ، شقى . نعوذ بالله من مزلة أقدام الجهال ، ومن الركون إلى أسباب الضلال ، ولا وجه للتفكر فيما لا نراه من الملائكة والجن ، فلذلك عدلنا عنه إلى ما نراه والله أعلم .

● باب في ذكر الموت وما بعده وما يتعلق به

اعلم : أن المنهمك في الدنيا المكب في غرورها ، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره ، وإن ذكره كرهه ونفر منه ، ثم الناس إما منهمك ، أو تائب مبتدئ ، أو عارف متنبه . فأما المنهمك فلا يذكره ، وإن ذكره فيذكره لتأسف على دنياه ، ويشغل بدمه ، وهذا لا يزيد ذكر الموت من الله — تعالى — إلا بعداً . وأما التائب ، فإنه يكثر ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية ، فيفي بتمام التوبة ، وربما يكره الموت خيفة أن يختطفه قبل تمامها أو قبل إصلاح الزاد ، وهو معذور في كراهة الموت . ولا يدخل بهذا تحت قوله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « من كره لقاء الله كره الله لقاءه » ^(١) فإنه إنما يخاف لقاء الله لقصوره وتقصيره ، فهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشغولاً بالاستعداد للقاءه على وجه يرضاه ، فلا يعد كارهاً للقاءه ، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له ، لا شغل له سواه ، وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا .

(١) البخاري في الرقاق ، باب « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » ، رقم [٦٥٠٧] ، مسلم في الذكر ، برقم [١٤ — ١٨] ، المسند [٣٤٠/٢] — [١٠٧/٣] — [٢٥٩/٤] — [٣١٦/٥] — [٤٤/٦] ، [٥٥] .

وأما العارف ، فإنه يذكر الموت دائماً ، لأنه موعد لقاء الحبيب ، وهو لا ينسى موعد لقاء حبيبه . وهذا في غالب الأمر يستبطنه مجيء الموت ، ويحبه ليتخلص من دار العاصين ، وينتقل إلى جوار رب العالمين ، كما قال بعضهم : حبيب جاء على فاقة . فإذا التائب معذور في كراهة الموت ، وهذا معذور في حب الموت وتمنيه ، وأعلى منهما من فوض أمره إلى الله — تعالى — ، فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياة ، بل تكون الأشياء إليه أحبها إلى مولاه ، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضى ، وهو الغاية والمنتهى . وعلى كل حال ، ففي ذكر الموت ثواب وفضل ، فإن التمهك في الدنيا قد يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا ، لأن ذكره ينفض عليه نعيمه ويكدره .

● باب ما جاء في فضل ذكر الموت

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « أكثروا ذكر هادم اللذات : الموت »^(١) . وعن أنس — رضى الله عنه — : أن رجلاً ذكر عند النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — فأحسنوا عليه الثناء ، فقال النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — : « كيف كان ذكر صاحبكم للموت ؟ » قالوا : ما كنا نسمعه يذكر الموت . قال : « فإن صاحبكم ليس هناك »^(٢) .

وعن ابن عمر — رضى الله عنهما — : أن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — سئل : أى المؤمنين أكيس ، قال : « أكثرهم للموت ذكراً وأشدّهم استعداداً له أولئك هم الأكياس »^(٣) . وقال الحسن البصرى : فضح الموت الدنيا ، فلم يترك لذى لب فيها فرحاً ، وما ألزم عبد قلبه ذكر الموت إلا صغرت الدنيا عليه ، وهان عليه جميع ما فيها . وكان ابن عمر — رضى الله عنهما — إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير ، وكان يجمع كل ليلة الفقهاء ، فيندأكرون الموت والقيامة ثم يكون ، حتى كأن بين أيديهم جنازة .

وكان حامد القيصرى يقول : كلنا قد أيقن الموت ، وما نرى له مستعداً ، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً ، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفاً ، فعلام تفرحون ؟ وما عسى تتظنون ؟ الموت ، فهو أول وارد عليكم من أمر الله بغير ، أو بشر ، فيا إخوتاه ! سبروا إلى ربكم سراً جميلاً . وقال شميظ بن عجلان : من جعل الموت نصب عينيه ، لم يبال بضيق الدنيا ولا بسعتها .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک [٣٢١/٤] وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٢) في تخریج الإحیاء [٤٣٥/٤] عزاه العراقي لابن أبى الدنيا في الموت ، من حديث أنس بسند ضعيف ، ولابن المبارك في الزهد قال : أنبأنا مالك بن مغول فذكره بلاهاً بزيادة فيه . هـ .

(٣) عزاه العراقي في الإحیاء [١٣٥/٤] لابن أبى الدنيا وقال إسناده جيد ، ورواه ابن ماجه مختصراً رقم [٤٢٥٩] لكنه ضعيف .

واعلم : أن خطر الموت عظيم ، وإنما غفل الناس عنه لقلة فكرهم وذكرهم له ، ومن يذكره منهم إنما يذكره بقلب غافل ، فلهذا لا ينجع فيه ذكر الموت ، والطريق في ذلك أن يفرغ العبد قلبه لذكر الموت الذى هو بين يديه ، كالذى يريد أن يسافر إلى مفازة خطيرة ، أو يركب البحر ، فإنه لا يتفكر إلا في ذلك ، وأنفع طريق في ذلك ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله ، فيذكر موتهم ومصارعهم تحت الثرى .

قال ابن مسعود — رضى الله عنه — : السعيد من وعظ بغيره . وقال أبو الدرداء — رضى الله عنه — : إذا ذكر الموتى ، فعد نفسك كأحدهم . وينبغى أن يكثر دخول المقابر ، ومتى سكنت نفسه إلى شيء في الدنيا ، فليتفكر في الحال أنه لا بد من مفارقتها ، ويقصر أمله . وقد روى عن عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — قال : أخذ رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — بمنكبى فقال : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل »^(١) وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك^(٢) .

وفى حديث آخر : « إن أخوف ما أخاف على أمتي : الهوى وطول الأمل ، فأما الهوى فيضلك عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة »^(٣) . وعن الحسن قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — لأصحابه : « أكلكم يحب أن يدخل الجنة ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله ؟ قال : « قصرُوا الأمل ، وأثبتوا آجالكم بين أبصاركم ، واستحيوا من الله — عز وجل — حق حياته »^(٤) .

وعن أنى زكريا التيمى قال : بينا سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام ، إذ أتى بحجر منقوش ، فطلب من يقرأه ، فإذا فيه : ابن آدم ! لو رأيت قرب ما بقى من أجلك لزهدت في طول أملك ، ولرغبت في الزيادة من عملك ، ولقصرت من حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك ندمك لو قد زلت بك قدمك ، وأسلمك أهلك وحشمك ، فبان منك الولد والنسب ، فلا أنت إلى دنياك عائد ، ولا في حسناتك زائد ، فاعمل ليوم القيامة يوم الحسرة والندامة .

© سبب طول الأمل :

واعلم أن السبب في طول الأمل شيان : أحدهما : حب الدنيا ، والثانى : الجهل .

(١) ، (٢) صحيح البخارى ، كتاب « الرقاق » ، باب « قول النبى — ﷺ — كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » ، رقم [٦٤١٦] .

(٣) في تخرىج الإحياء [٤٣٧/٤] عزاه العراق لابن أبى الدنيا في كتاب « قصر الأمل » ، عن علي ، ورواه أيضا من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف ... ، وفي جمع الجوامع [٢٢٣/١] عزاه للحاكم في تاريخه ، والديلمى عن جابر .

(٤) في تخرىج الإحياء [٤٣٨/٤] قال العراق : رواه ابن أبى الدنيا في « قصر الأمل » ، من حديث الحسن مرسلاً .

أما حب الدنيا فإن الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ، ثقل على قلبه مفارقتها ، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه ، والإنسان مشغول بالأمانى الباطلة ، فيمنى نفسه أبداً بما يوافق مراده من البقاء في الدنيا ، وما يحتاج إليه من مال وأهل ومسكن وأصدقاء وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر ، فيلهو عن ذكر الموت ، ولا يقدر قرب . فإن خطر له الموت في بعض الأحوال والحاجة إلى الاستعداد له ، سوف بذلك ووعد نفسه ، وقال : الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب . وإذا كبر قال : إلى أن يصير شيخاً ، وإن صار شيخاً ، قال : إلى أن يفرغ من بناء هذه الدار ، وعمارة هذه الضيعة ، أو يرجع من هذه السفرة . فلا يزال يسوف ويؤخر ، ولا يحرص في إتمام شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال ، وهكذا على التدرج يؤخر يوماً بعد يوم ، ويشغل بشغل بعد شغل ، إلى أن تحتطفه المنية في وقت لا يحتسب ، فتطول عند ذلك حسرته .

وأكثر صياح أهل النار من « سوف » يقولون : واحسرتاه ! من « سوف » . وأصل هذه الأمانى كلها ، حب الدنيا والأنس بها ، والغفلة عن قول النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — : « أحب ما شئت فإنك مفارقه »^(١) .

السبب الثاني : الجهل ، وهو أن الإنسان يعول على شبابه ، ويستبعد قرب الموت مع الشباب ، أو ليس يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لو عدوا كانوا أقل من العشر ؟ وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر ، وإلى أن يموت شيخ قد يموت ألف صبي وشاب ، وقد يغتر بصحته ، ولا يدرى أن الموت يأتي فجأة ، وإن استبعد ذلك ، فإن المرض يأتي فجأة ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً ، ولو تفكر وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص ، من صيف وشتاء وربيع وخريف وليل ونهار ، ولا هو مقيد بسن مخصوص ، من شاب وشيخ أو كهل أو غيره ، لعظم ذلك عنده واستعد للموت .

● فصل : تفاوت الناس في طول الأمل

والناس متفاوتون في طول الأمل تفاوتاً كثيراً ، منهم من يأمل البقاء إلى زمان الهرم ، ومنهم من لا ينقطع أمله بحال ، ومنهم من هو قصير الأمل ، فروى عن أبي عثمان النهدي أنه قال : بلغت ثلاثين ومائة سنة ، وما من شيء إلا قد عرفت فيه النقصان إلا أملى فإنه كما هو . وحكى في قصر الأمل : أن امرأة حبيب أبي محمد قالت : كان يقول لي — يعني أبا محمد — إن مت اليوم فأرسلني إلى فلان يفسلني ويفعل كذا وكذا ، واصنعى كذا وكذا ، فقيل لها : أرى رؤيا ؟ قلت : هكذا يقول كل يوم .

(١) الحديث بلفظ : « إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحب من أحببت فإنك مفارقه ، وعش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به » . قال العراقي في تخرج الإجماع [٨٨/١] رواه الشيرازي في الألقاب من حديث سهر بن سعد نحوه ، والطبراني في الصغير والأوسط من حديث علي وكلاهما ضعف ١ . هـ .

وعن إبراهيم بن سبط قال : قال لى أبو زرعة : لأقولن لك قولاً ما قلته لأحد سواك : ما خرجت من المسجد منذ عشرين سنة ، فحدثتنى نفسى أن أرجع إليه . وقيل لبعضهم : ألا تغسل قميصك ؟ قال : الأمر أعجل من ذلك . وعن محمد بن أبى توبة قال : أقام معروف الصلاة ثم قال لى : تقدم ، فقلت : إنى إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها ، فقال معروف : أنت تحدث نفسك أنك تصلى صلاة أخرى ؟ نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع خير العمل .

فهذه أحوال الزهاد فى قصر الأمل ، وكلما قصر الأمل ، جاد العمل ، لأنه يقدر أن يموت اليوم ، فيستعد استعداد ميت ، فإذا أمسى شكر الله — تعالى — على السلامة ، وقدر أنه يموت تلك الليلة فيبادر إلى العمل . وقد ورد الشرع بالحث على العمل والمبادرة إليه ففى « صحيح البخارى » عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس ، الصحة والفراغ »^(١) .

وعنه : أن رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — قال لرجل وهو يعظه : « اغتسم خمساً قبل خمس : شبائك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك »^(٢) . وقال عمر — رضى الله عنه — : التؤدة فى كل شىء خير ، إلا ما كان من أمر الآخرة . وكان الحسن يقول : عجياً لقوم أُمروا بالزاد ، ونودى فيهم بالرحيل ، وحبس أولهم على آخرهم ، وهم يعود يلعبون .

وقال سحيم مولى بنى تميم : جلست إلى عبد الله بن عبد الله ، فأوجز فى صلاته ، ثم أقبل على وقال : أرحتى بحاجتك ، فأبى أبادر . فقلت : وما تبادر ؟ قال : ملك الموت . وكان يصلى كل يوم ألف ركعة . وكانوا يبادرون بالأعمال غاية ما يمكن ، فكان ابن عمر يقوم فى الليل فيتوضأ ويصلى ، ثم يغفى لإغفاء الطير ، ثم يقوم فيتوضأ ويصلى ، ثم يغفى لإغفاء الطير ، ثم يقوم يصلى ، يفعل ذلك مراراً . وكان عمر بن هانئ يسبح كل يوم مائة ألف تسبيحة ، وقال أبو بكر بن عباس : ختمت القرآن فى هذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة .

● فصل فى ذكر شدة الموت وما يستحب من الأحوال عند

اعلم : أنه لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ، ولا هول سوى الموت ، لكان جديراً أن يتنقص عليه عيشه ، ويتكدر عليه سروره ، وتطول فيه فكرته . والعجب أن

(١) الحديث فى صحيح البخارى كتاب الرقاق ، باب « ما جاء فى الرقاق وأن لا عيش إلا عيش الآخرة » رقم [٦٤١٢] عن ابن عباس . والحديث فى المستدرک [٣٠٦/٤] .

(٢) فى تخریج الإحیاء [٤٤٣/٤] عزاه العراق لابن أبى الدنيا فى « قصر الأمل » بإسناد حسن ، ورواه ابن المبارك فى الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدی مرسلأ . ١ . هـ . ورواه الحاكم فى مستدرکه [٣٠٦/٤] عن ابن عباس وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

الإنسان لو كان في أعظم اللذات ، فانتظر أن يدخل عليه جندي يضربه خمس ضربات ، لكدرت عليه عيشه ولذته ، وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزاع ، وهو غافل عن ذكر ذلك ، وليس لهذا سبب إلا الجهل والغرور .

اعلم : أن الموت أشد من ضرب السيف ، وإنما يصيح المضروب ، ويستغيث لبقاء قوته ، وأما الميت عند موته ، فإنه ينقطع صوته من شدة ألمه ، لأن الكرب قد بالغ فيه ، وغلب على قلبه وعلى كل موضع منه ، وضعفت كل جارحة فيه ، فلم يبق فيه قوة لاستغاثة ، ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ، وتجذب الروح من جميع العروق ، ويموت كل عضو من أعضائه تدريجاً ، فتبرد أولاً قدماه ، ثم ساقاه ، ثم فخذه ، حتى تبلغ الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره إلى الدنيا وأهلها ، ويغلق دونه باب التوبة ، قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « إن الله يقبل التوبة من العبد ما لم يغرغر »^(١) .

وقد روى أن الملكين الموكلين بالعبد يتراعيان له عند الموت ، فإن كان صالحاً أثنيا عليه ، وقالوا جزاك الله خيراً ، وإن كان صاحبهما بشر ، قالوا : لا جزاك الله خيراً . عن أنس بن مالك — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « إن الله — عز وجل — وكل بعبد المؤمن ملكين يكتبان عمله ، فإذا مات قالوا : قد مات ، أتأذن لنا أن نصعد إلى السماء ؟ قال : فيقول الله — تعالى — : إن سمائي مملوءة من ملائكتي يسبحوني . فيقولان : فتأذن لنا فقيم في الأرض ؟ فيقول الله — تعالى — : إن أرضي مملوءة من خلقي ، يسبحوني ، فيقولان : فأين نقيم ؟ فيقول : قوماً على قبر عبدي ، فسبحاني واحمداني وكبراني وهللاني ، واكبا ذلك لعبدى إلى يوم القيامة » .

وفي « الصحيحين » من حديث عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « إن المؤمن إذا حضره الموت ، بشر بروضان الله وكرامته ، فليس شيء أحب إليه مما أمامه ، وأما صاحب النار الذي ختم له بسوء فهو يشربها وهو في تلك الأهوال »^(٢) . وقد كان كثير من السلف يخافون سوء الخاتمة ، وقد ذكرنا ذلك في كتاب الخوف ، وهو لائق بهذا المكان ، نسأل الله أن يرحمنا برحمته التي وسعت كل شيء ، وأن يلفظ بنا ، وأن يختم لنا بخير إنه جواد كريم .

وأما ما يستحب من الأحوال عند المحتضر ، فأن يكون قلبه يحسن الظن بالله — تعالى — ، ولسانه ينطق بالشهادة ، والسكون من علامات اللطف ، وهو أمانة على أنه قد رأى الخير ، وقد روى أن روح المؤمن تخرج رشحاً . ويستحب تلقيته : لا إله إلا الله ، كما جاء في الحديث الصحيح من رواية مسلم : « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله »^(٣) وينبغي للملقن أن

(١) تقدم ترجمته في كتاب التوبة بأول الربع الرابع من هذا الكتاب .

(٢) رواه البخاري عن عائشة بنحوه : كتاب الرقاق باب من أحب لقاء الله .

(٣) كنز العمال [٤٢١٦٧/١٥] وعزاه أحمد ، مسلم ، والأربعة عن أبي سعيد ، مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة ، النسائي عن عائشة .

يرفق به ، ولا يلح عليه . وقد جاء في حديث آخر : « احضروا موتاكم ، ولقوهم لا إله إلا الله ، وبشروهم بالجنة » ، فإن الخليم العليم من الرجال والنساء يحير عند ذلك المصراع ، وإن إبليس عدو الله أقرب ما يكون من العبد في ذلك الموطن . وذكر الحديث إلى آخره .

وفي الحديث الصحيح : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله »^(١) . وروى أن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — دخل على رجل وهو يموت فقال : « كيف تجدك ؟ » قال : أرجو الله وأخاف ذنوبى . فقال : « ما اجتماعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذى يرجو ، وأمنه من الذى يخاف »^(٢) . والرجاء عند الموت أفضل ، لأن الخوف سوط يساق به ، وعند الموت يقف البصر ، فينبغى أن يتلطف به ، ولأن الشيطان يأتى حينئذ بسخط العبد على الله فيما يجرى عليه ، ويخوفه فيما بين يديه ، فحسن الظن أقوى سلاح يدفع به العدو . وقال سليمان التيمي لابنه عند الموت : يا بنى ! حدثنى بالرخص ، لعل ألقى الله — تعالى — وأنا أحسن الظن به .

باب نكر وفاة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

والخلفاء الراشدين - رضى الله عنهم -

اعلم : أن في رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — أسوة حسنة في كل أحواله ، ومعلوم أنه ليس في المخلوقين أحد أحب إلى الله — تعالى — منه ، ولم يؤخره الله — تعالى — حين انقضى أجله . وقد لقي — صلى الله عليه وآله وسلم — من الموت شدة ، فروى البخارى في « صحيحه » من حديث عائشة — رضى الله عنها — قالت : كان بين يدى رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — ركوة أو غلبه فيها ماء ، فجعل يدخل يده في الماء ، فيمسح بها وجهه ويقول : « لا إله إلا الله » ، إن للموت لسكرات^(٣) .

وفي « صحيح البخارى » من حديث أنس — رضى الله عنه — قال : لما ثقل النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — ، جعل يتغشاه الكرب ، فقالت فاطمة — رضى الله عنها — : واكرب أبتاه ! فقال لها : « ليس على أهلك كرب بعد اليوم »^(٤) . وروى ابن مسعود قال : اجتماعنا في بيت أمنا عائشة — رضى الله عنها — ، فنظر إلينا رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — فدمعت عيناه ، فعنى إلينا نفسه وقال : « مرحباً ، حياكم الله بالسلام ،

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفه نعيمها وأهلها برقم [٨١ ، ٨٢] .

(٢) رواه ابن ماجه في سننه كتاب « الزهد » ، باب « ذكر الموت » ، رقم [٤٢٦١] . ورواه الترمذى في كتاب « الجلائز » ، باب [١١] وقال : هذا حديث حسن غريب من حديث أنس ، قال النووى إسناده جيد ، انظر تخرىج العراق [١٤١/٤] .

(٣) صحيح البخارى كتاب « الرقاق » ، باب « سكرات الموت » ، رقم [٦٥١٠] .

(٤) البخارى في « المغازى » ، باب « وفاة النبي » ، رقم [٤٤٦٢] .

حفظكم الله ، رعاكم الله ، جمعكم الله ، نصركم الله وفقكم الله ، نفعكم الله ، رفعكم الله ، سلمكم الله ، أوصيكم بتقوى الله ، وأوصى الله بكم ، واستخلفه عليكم . قلنا : يا رسول الله : متى أجلك ؟ قال : « قد دنا الأجل ، والنقلب إلى الله ، وإلى سدرة المنتهى وجنة المأوى ، والفردوس الأعلى » . قلنا : يا رسول الله ؟ فمى نكفك ؟ قال : « فى ثيابى هذه إن شئتم ، أو عينية ، أو بياض » . فقلنا : يا رسول الله ! من يصلى عليك ؟ وبكىنا ، فقال : « مهلاً ، رحمكم الله ، وجزاكم عن نبيكم خيراً ، إذا غسلتمونى وكفتمونى ، فضعونى على سريرى هذا على شفير قبرى ، ثم أخرجوا عنى ساعة ، فإن أول من يصلى على خيلى وحيى جبريل ، ثم ميكائيل ، ثم إسرافيل ، ثم ملك الموت ، ثم ملائكة كثيرة ، ثم ادخلوا على فوجاً فوجاً ، فصلوا على وسلموا تسليماً ، ولا تؤذونى بتزكية ، ولا برنة ، ولا بصيحة ، وليبدأ بالصلاة على رجال أهل بيتى ، ثم نساؤهم ، ثم أنتم بعد ، وأقرؤوا السلام على من غاب عنى من أصحابى ، وعلى من تابعنى على دينى إلى يوم القيامة ، ألا وإنى أشهدكم أنى قد سلمت على كل من دخل فى الإسلام » (١) .

ولقد دخل عليه — جبريل — قبل موته بثلاثة أيام فقال : يا محمد ؟ إن الله أرسلنى إليك يسألك عما هو أعلم به منك ، يقول : كيف تحبك ؟ فقال : « أجدى يا جبريل مغموماً ، وأجدى مكروباً » ثم أتاه فى اليوم الثانى ، فأعاد الكلام ، وأعاد عليه الجواب ، ثم جاءه فى اليوم الثالث وأعاد عليه الكلام ، فأعاد عليه الجواب ، فإذا ملك الموت يستأذن ، فقال جبريل : يا أحمد : هذا ملك الموت يستأذن عليك ، ولم يستأذن على آدمى قبلك ، ولا يستأذن على آدمى بعدك ، فقال : « ائذن له » ، فدخل ، فوقف بين يديه وقال : « إن الله أرسلنى إليك : وأمرنى أن أطيعك ، فإن أمرتنى أن أقبض نفسك قبضتها ، وإن أمرتنى أن أتركها تركها ، قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « وتفضل يا ملك الموت ؟ » قال : كذلك أمرت أن أطيعك . فقال جبريل : يا أحمد ! إن الله قد اشتاق إليك . فقال : « فامض لما أمرت به يا ملك الموت » ، فقال جبريل — عليه السلام — : « السلام عليك يا رسول الله ، هذا آخر موطنى فى الأرض إنما كنت حاجتى من الدنيا » (٢) .

(١) قال الحافظ العراقي : رواه البزار . وقال : هذا الكلام روى عن مرة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدها متطابقة ، قال : وهذا الرجل الأصهبى — أحد رجال السند — لم يسمع هذا من مرة وإنما هو ممن أخبره عن مرة ، قال : ولا أعلم أحداً رواه عن عبد الله غير مرة . قلت : وقد روى من غير ما وجه ، رواه ابن سعد فى الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود ، ورواه فى مشيخة القاضي أبى بكر الأنصارى من رواية الحسن العرفى عن ابن مسعود ولكنهما منقطعان وضعيفان ، والحسن العرفى إنما يرويه عن مرة ، كما رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى فى الأوسط ١ . هـ . [٤٥٣/٤] .

(٢) أخرجه الطبرانى عن الحسن بن على بن سنده عبد الله بن ميمون القداح (معروك) [ترجمته فى المعروكين للسنائى رقم ٣٣٦ ، الميزان ٤١٥/٢ ، الكبير ٢٠٦/٥] .

فتوفى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مستنداً إلى صدر عائشة - رضى الله عنها - في كساء ملبد ، وإزار غليظ ، وقامت فاطمة - رضى الله عنها - تندب وتقول : ياأبتاه ! أجب رباً دعاه ، ياأبتاه ! جنة الفردوس مأواه ، ياأبتاه ! إلى جبريل نعاه ، ياأبتاه ! من ربه ما أدناه ، فلما دفن قالت: ياأنس أطابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -! وقال أبو بكر - رضى الله عنه -:

لما رأيت نبياً متجديلاً ضاقت على بعرضهن الدور
وارتعت روعة مستهام واليه والعظم منى واهن مكسور
أعنيك ويحك إن حبك قد ثوى وبقيت منفرداً وأنت حسير
ياليتي من قبل مهلك صاحبي غيبت في جدث على صخور

● وفاة أبي بكر الصديق - رضى الله عنه -

روى أبو المريح أن أبا بكر - رضى الله عنه - لما حضرته الوفاة أرسل إلى عمر - رضى الله عنه - فقال : إني أوصيك بوصية ، إن أنت قبلت عنى : إن الله - عز وجل - حقاً بالليل لا يقبله بالنهار وإن الله حقاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة ، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه فى الآخرة باتباعهم الحق فى الدنيا ، وثقلت ذلك عليهم ، وحق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه فى الآخرة باتباعهم الباطل ، وخفته عليهم فى الدنيا ، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً .

ألم تر أن الله أنزل آية الرجاء عند آية الشدة ، وآية الشدة عند آية الرجاء ، ليكون العبد راغباً راهباً لا يلقى يديه إلى التهلكة ، ولا يتمنى على الله - غير الحق - فإن أنت حفظت وصيتى هذه ، فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت ، ولا بد لك منه ، وإن أنت ضيعت وصيتى هذه فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت ، ولا بد لك منه ولست تعجزه وقيل : لما احتضر جاءت عائشة - رضى الله عنها - فتمثلت بهذا البيت :

لعمرك ما يُغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال : ليس كذلك ، ولكن قولى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ ^(١) . انظروا ثوبى هذين ، فاغسلوهما وكفنوني فيهما ، فإن الحى أحوج إلى الجديد من الميت .

● وفاة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -

وعن ابن عمر قال : كان رأس عمر فى حجرى بعد ما طعن ، وكان مرضه الذى توفى

فيه ، فقال : ضع خدى على الأرض ، فقلت : وما عليك إن كان فى حجرى أم على الأرض ؟ وظننت أن ذلك تبرم به ، فلم أفعل ، فقال : ضع خدى على الأرض لا أم لك ، ويلى ويل أمى إن لم يرحمنى ربى .

وروى أنه لما طعن وحمل إلى بيته ، وجاء الناس يشنون عليه ، جاء رجل شاب فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله — لك — صحبة من رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — وقدم فى الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة ، فقال : وددت أن ذلك كان كفافاً ، لا لى ولا على ، ثم قال : يا عبد الله بن عمر ، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل عمر يقرأ عليك السلام ولا تقل : أمير المؤمنين فإنى لست اليوم للمؤمنين أميراً ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن عند صاحبيه . فمضى وسلم واستأذن عليها ، ثم دخل فوجدها قاعدة تبكى ، فقال : عمر يقرأ عليك السلام ، ويستأذن أن يدفن عند صاحبيه ، فقالت : كنت أريده لنفسى ، ولأثرته اليوم على نفسى . فلما أقبل ، قيل : هذا عبد الله بن عمر قد جاء ، قال : ارفعونى ، فأسنده رجل إليه ، فقال : ما وراءك ؟ قال : الذى تحب يا أمير المؤمنين ، أذنت . قال : الحمد لله ، ما كان شئ أحب إلى من ذلك ، فإذا أنا مت فاحملونى ، ثم سلم ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فإن أذنت ، فأدخلونى ، وإن ردتنى ، فردونى إلى مقابر المسلمين .

وفى أفراد مسلم^(١) من حديث المسور بن مخرمة ، أن عمر قال : والله لو أن لى طلاع^(*) الأرض ذهباً ، لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه . وفى خبر آخر : والله لو أن لى ما طلعت عليه الشمس أو غربت ، لافتديت به من هول المطلع .

● وفاة عثمان بن عفان - رضى الله عنه -

عن نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان - رضى الله عنه - ، قالت : لما كان اليوم الذى قتل فيه عثمان ، ظل فى اليوم الذى قبله صائماً ، فلما كان عند إفطاره ، سألهم الماء العذب فلم يعطوه ، فنام ولم يفطر ، فلما كان وقت السحر أتيت جارات لى على أجاجير متصلة ، فسألتهن الماء العذب ، فأعطونى كوزاً من ماء ، فأتيته فحركته فاستيقظ ، فقلت : هذا ماء عذب ، فرفع رأسه فنظر إلى الفجر ، فقال : إني قد أصبحت صائماً ، وإن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - اطلع على من هذا السقف ومعه ماء عذب ، فقال : « اشرب يا عثمان » ! فشربت حتى رويت ، ثم قال : « ازدد » ، فشربت حتى نهلت ، ثم قال : « إن القوم سينكرون عليك ، فإن قاتلهم ظفرت ، وإن تركهم أفطرت عندنا » . قالت : فدخلوا عليه من يومه فقتلوه .

(١) قلت : لا والله بل هو فى صحيح البخارى كتاب فضائل الصحابة ، - فضائل عمر رقم [٣٦٩٢] .
(*) طلاع الأرض : ملء الأرض .

وعن العلاء بن الفضيل ، عن أبيه ، قال : لما قتل عثمان بن عفان — رضى الله عنه — فتشوا خزانته ، فوجدوا فيها صندوقاً مقفلاً ففتحوه ، فوجدوا فيه حقة فيها ورقة مكتوب فيها : هذه وصية عثمان ، بسم الله الرحمن الرحيم ، عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأن الله يبعث من فى القبور ليوم لا ريب فيه ، إن الله لا يخلف الميعاد ، عليها نجا ، وعليها نموت ، وعليها نبعث إن شاء الله — تعالى — .

● وفاة على بن أبى طالب - رضى الله عنه -

عن الشعبي ، قال : لما ضرب على — رضى الله عنه — تلك الضربة ، قال : ما فعل بضارىي ؟ قالوا : أخذناه ، قال : أطعموه من طعامى ، واسقوه من شرابى ، فإن أنا عشت رأيت فيه رأى ، وإن أنا مت فاضربوه ضربة واحدة لا تزيدوه عليها ، ثم أوصى الحسن أن يغسله وقال : لا تغالى فى الكفن ، فإنى سمعت رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — يقول : « لا تغالوا فى الكفن فإنه يسلب سلباً سريعاً » ، امشوا إلى المشيتين لا تسرعوا إلى ، ولا تبطلوا ، فإن كان خيراً عجلتموني إليه ، وإن كان شراً ألقيتموني عن أكتافكم . وروى أنه لما كانت الليلة التى أصيب فيها على — رضى الله عنه — أنه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متناقل ، فعاد الثانية وهو كذلك ، ثم عاد الثالثة فقام يمشى وهو يقول :

اشدد حيازيمك للموت فإن الموت لا يـقـيك^(١)

ولا تجزع من الموت وإن حل بـأـديك^(٢)

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه عبد الرحمن بن ملجم فضربه .

● نكر كلمات نقلت عن جماعة عند موتهم من الصحابة وغيرهم

وذكر زيارة القبور ونحو ذلك

لما نزل للموت بالحسن بن على — رضى الله عنهما — قال : أخرجوا فراشى إلى صحن الدار ، فأخرج فقال : اللهم إني أحسب نفسى عندك ، فإنى لم أصب بمثلها . وقد ذكرنا ما تقدم من كلام الخلفاء الأربعة — رضى الله عنهم — .

وروى أن معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة قال : انظروا هل أصبحنا ؟ فأنى فقيل : لم تصبح ، حتى أتى فى بعض ذلك ، فقيل له : لقد أصبحنا ، فقال : أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار ، ثم قال : مرحباً بالموت زائر مغيب ، وحبيب جاء على فاقة ، اللهم إني كنت

(١) فى إحياء علوم الدين [٤٦٤/٤] ما نصه : فإن الموت لا يـقـيك .

(٢) فى السابق : إذا حل بـأـديك .

أخافك وأنا اليوم أرجوك ، اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكبرى
الأنهار^(*) ولا لغرس الأشجار ، ولكن لطول ظمأ الهواجر ، وقيام ليل الشتاء ، ومكابدة
الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر .

وقال أبو مسلم : جئت أبا الدرداء وهو يجود بنفسه ويقول : ألا رجل يعمل مثل مصرعى
هذا ؟ ألا رجل يعمل مثل يومى هذا ؟ ألا رجل يعمل مثل ساعتى هذه ؟ قبض — رحمه
الله — وبكى سلمان الفارسي عند موته ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : عهد إلينا رسول
الله — صلى الله عليه وآله وسلم — أن يكون زاد أحدنا كزاد الراكب ، وحولى هذه الأزواد .
وقيل : إنما كان حوله إجابة وجفنة ومطهرة .

وروى للزنى قال : دخلت على الشافعي في مرضه الذى مات فيه ، فقلت له : كيف
أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلاً ، وللإخوان مفارقاً ، ولسوء عملي ملاقياً ،
ولكأس المنية شارباً ، وعلى الله وارداً ، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنتها ، أم إلى
النار فأعزيتها ، ثم أنشأ يقول :

ولما قسا قلبي وضائق مذاهبي جعلت الرجا منى بعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرئته بعفوك ربي كان عفوك أعظما
ومازلت ذا عفو عن الذنب لم تنزل تجود وتغفو منة وتكرما

قيل : كان أبو الدرداء — رضى الله عنه — يقعد إلى القبور ، فقيل له في ذلك ، فقال :
أجلس إلى قوم يذكروني معادى ، وإن غبت لم يفتابوني . وقال ميمون بن مهران : خرجت
مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة ، فلما نظر إلى القبور بكى ، ثم أقبل على فقال : ياميمون ،
هذه قبور آبائي بنى أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم ، أما تراهم صرعى
قد حلت بهم المثلات ، واستحكم فيهم البلاء ، وأصاب الهوام مقيلاً في أبدانهم ؟ ثم بكى
وقال : والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور ، وقد أمن من عذاب الله — تعالى — .

وئسحتب زيارة القبور ، فإن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « زوروا القبور
فإنها تذكركم الآخرة »^(١) ومن زار قبراً فليستقبل وجه الميت ، وليقرأ شيئاً من القرآن
ويهديه له ، ولتكن الزيارة يوم الجمعة . وقد روى أنه لما مات عاصم الجحدري رآه رجل
من أهله في المنام بعد موته بستين فقال له : ألسنت قدمت ؟ قال : بلى . قال : وأين أنت ؟
قال عاصم : أنا والله في روضة من رياض الجنة ، أنا ونفر من أصحابي ، نجتمع كل ليلة
جمعة وصبيحتها إلى أبى بكر بن عبد الله المزني نتلقى أخباركم ، قال : قلت له : أجسامكم
أم أرواحكم ؟ قال : هيات ! بليت الأجسام ، وإنما تتلقى الأرواح . قلت : فهل تعلمون

(*) كرى النهر : حفره .

(١) سنن ابن ماجه كتاب الجنائز ، باب « ما جاء في زيارة القبور » ، رقم [١٥٦٩] .

بزيارتنا إياكم قال : نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ، ويوم السبت إلى طلوع الشمس . قلت : وكيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال : لشرف يوم الجمعة وعظمته^(١) .

وحكى عثمان بن سواد الطفاوى وكانت أمه من العابدات ، وكان يقال لها : راهبة ، قال : لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء وقالت : يا ذخرى ويا ذخيرتى ومن عليه اعتادى فى حياتى وبعد مماتى ، لا تخذلنى عند الموت ، ولا توحشنى فى قبرى . قال : فماتت ، فكننت آتيا كل جمعة وأدعو لها ، واستغفر لها ولأهل القبور ، فرأيتها ليلة فى منامى فقلت لها : يا أماه ! كيف أنت ؟ قالت : يا بنى ! إن الموت لكرب شديد ، وأنا بحمد الله فى برزخ محمود ، يفترش فيه الرياح ، ويتوسد فيه السندس والاستبرق إلى يوم النشور . فقلت : ألك حاجة ؟ قالت : نعم ، لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا فأنى لأسر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك ، فيقال لى : ياراهبة ! هذا ابنك قد أقبل ، فأسر ويسر بذلك من حولى من الأموات^(٢) . وعن أنس بن منصور^(٣) قال : كان رجل يختلف إلى الجنائز فيشهد الصلاة عليها ، فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال : آنس الله وحشتكم ، ورحم غربتكم ، وتجاوز عن سيئاتكم ، وقبل حسناتكم ، لا يزيد على هؤلاء الكلمات ، قال ذلك الرجل : فأمسيت ذات ليلة ، ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، فبينما أنا نائم إذا أنا بخلق كثير قد جاءونى فقلت : من أنتم ؟ وما حاجتكم ؟ قالوا : نحن أهل المقابر ، إنك كنت عودتنا منك هدية . فقلت : وما هى ؟ قالوا : الدعوات التى كنت تدعو بها . قلت : فأنى أعود لذلك ، فما تركتها بعد^(٤) .

وقال بشر بن غالب : رأيت رابعة فى منامى ، وكنت كثير الدعاء لها ، فقالت لى : يا بشار هدايك تأتينا على أطباق من نور ، مخمرة بمناديل الحرير . قلت : وكيف ذلك ؟ قالت : هكذا دعاء الأحياء إذا دعوا للموتى واستجيب لهم ، جعل ذلك الدعاء على أطباق النور ، وخمر بمناديل الحرير ، ثم أتى به إلى الذى دعى له من الموتى ، فقيل له : هذه هدية فلان إليك .

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب « المنامات » رقم [٥٨ ص ٥٤ ، ٥٥] وإسناده ضعيف ، لأن فيه جهالة أحد الرواة .. وذكره ابن القيم فى كتاب « الروح » ص [٦] وفى سنده يحيى بن بسطام المصفر قال ابن حبان : لا تحمل الرواية عنه ، ونقل ابن القيم هذا الخبر عن كتاب القبور لابن أبى الدنيا .
(٢) الخبر فى كتاب « الروح » ، لابن القيم ص [٨] وقد نقله عن كتاب « القبور » ، لابن أبى الدنيا وفى سنده يحيى بن بسطام المصفر ، لا تحمل الرواية عنه كما تقدم .

(٣) فى كتاب « الروح » لابن القيم ص [٨] : عن بشر بن منصور .

(٤) الخبر نقله ابن القيم فى « الروح » ص [٨] عن كتاب « القبور » ، لابن أبى الدنيا ، وفى سنده محمد بن عبد العزيز لم أجده له ترجمة ، كما أن فيه جهالة أحد الرواة وهو راوى الخبر وإسناده ضعيف ، والقرآن الدعاء المذكور خلاف الأدعية الماثورة الثابتة عنه — ﷺ — ، ولذا يحجر بدعة .

● فصل فى حقيقة الموت

والذى تدل عليه الآيات والأخبار أن حقيقة الموت ، هو مفارقة الروح للجسد ، وإن الروح تكون بعد ذلك باقية ، إما معذبة أو منعمة ، فإن الروح قد تتألم بنفسها بأنواع الحزن والغم ، وتتنعم بأنواع الفرح والسرور من غير تعلق لها بالأعضاء فكل ما هو وصف للروح بنفسها ، يبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وكل ما هو لها بواسطة الأعضاء يتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ، ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد فى القبر ، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث ، والله — سبحانه — أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده . فمعنى الموت انقطاع تصرف الروح عن البدن ، وخروج البدن عن أن يكون آلة لها ، وسلب الإنسان عن أمواله وأهله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم . فإن كان له بالدنيا شىء يفرح به ، ويستريح إليه ، عظمت حسرته عليه بعد الموت ، وإن كان لا يفرح إلا بذكر الله — تعالى — والأنس به ، عظم نعيمه وتمت سعادته إذا خلى بينه وبين محبوبه ، وقطعت عنه العوائق والشواغل ، لأن جميع شواغل الدنيا شاغلة عن ذكر الله — تعالى — .

وينكشف للميت بالموت ما لم يكن مكشوفاً فى حال الحياة ، كما ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً له عند النوم ، والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا . وأول ما ينكشف له ما يضره وما ينفعه من حسناته وسيئاته ، قد كان ذاك مسطوراً فى كتاب مطوى فى سر قلبه ، وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا ، فلما انقطعت انكشفت له جميع أعماله ، فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة ، وكل ذلك ينكشف له عند الموت ، وهذه آلام تهجم على العاصي قبل الدفن ، نسأل الله العافية .

ومما يدل على أن الروح لا تنعدم بالموت ، قوله — تعالى — : ﴿ وَلَا تُحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ ^(١) . قال مسروق : سألنا عبد الله ابن مسعود — رضى الله عنه — عن هذه الآية فقال : أرواحهم فى جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، وذكر تمام الحديث . وجاء فى قوله — تعالى — : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ ^(٢) . أخبر أنهم يعذبون بعد الموت .

وفى « الصحيحين » عن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « إن أحدكم إذا مات ، عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا

(١) آل عمران — ١٦٩ . (٢) غافر : ٤٦ .

مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»^(١) . وقد تقدم أن الإنسان إذا انكشفت له سيئاته تحسر لها وتألّم تألماً عظيماً ، فأما المؤمن ، فقال عبد الله بن عمر : مثل المؤمن حين تخرج نفسه مثل رجل كان في سجن فأخرج منه ، فهو يتفسح في الأرض ، ويتقلب فيها . وهو صحيح ، فإن المؤمن ينكشف عليه عقيب الموت من فضل الله وكرامته ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن ، فيكون كمحبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكفاف ، فيه أنواع الأشجار ، فلا يسره الرجوع إلى الدنيا كما لا يسره العود إلى بطن أمه . وقال مجاهد : إن المؤمن ليبشر بصلاح ولده من بعد لتقر بذلك عينه .

● فصل في ذكر القبر

روى عن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — أنه قال : « القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار »^(٢) . وروى أيضاً عن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — أنه قال : « يقول القبر للميت حين يوضع فيه : ويحك يا بن آدم ! ما غرك ؟! ألم تعلم ألى بيت الظلمة ، وبيت الوحدة ، وبيت الدود ؟ »^(٣) .

وروى الترمذى عن أبي سعيد — رضى الله عنه — قال : دخل رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — مصلأه ، فرأى ناساً كأنهم يكثرُونَ ، فقال : « أما إنكم لو أكثرتم من ذكر هادم اللذات لشغلکم عما أرى ، فأكثرُوا ذكر هادم اللذات : الموت ، فإنه لم يأت على القبر يوم إلا يتكلم فيقول : أنا بيت العربة ، أنا بيت الوحدة ، أنا بيت التراب ، أنا بيت الدود . فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر : مرحباً وأهلاً ، أما إن كنت لأحب من يمشی على ظهري إلّی ، فإذا وليتک اليوم وصرت إلّی ، فستری صنيعی بك ، فيتسع له مد بصره ، ويفتح له باب إلى الجنة ، وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر : لا مرحباً ولا أهلاً ، أما إن كنت لأبغض من يمشی على ظهري إلّی ، فإذا وليتک اليوم وصرت إلّی ، فستری صنيعی بك ، قال : فليثم عليه حتى تختلف أضلعه » ، وقال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — بأصابه ، فأدخل بعضها في بعض قال : « ويقبض له سبعون تيناً ، لو أن واحداً منها نفخ في الأرض ما أنبتت شيئاً ما بقيت الدنيا ، فينهبه ويخدشه ، حتى يقضى به إلى الحساب ، قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار »^(٤) .

(١) البخارى في « الرقاق » ، باب « سكرات الموت » ، رقم [٦٥١٥] ، وسلم في كتاب « الجنة » ، رقم [٦٥] ، [٦٦] .

(٢) ذكره العجلوى في « كشف الالتباس » ، رقم [١٨٥٣] وقال : حديث ضعيف وعزاه للطبراني ، وجمع الزوائد [٤٦/٣] وعزاه للطبراني في الأوسط وقال : ضعيف لأن فيه محمد بن أيوب بن سويد .

(٣) في جمع الزوائد [٤٥/٣ — ٤٦] عزاه للطبراني في الأوسط وفيه محمد بن أيوب بن سويد وهو ضعيف .

(٤) تقدم تحريجه .

وقال كعب : إذا وضع الرجل الصالح في قبره ، احتوشته أعماله الصالحة : الصلاة ، والصيام ، والحج ، والجهاد ، والصدقة . وقال : وتجيء ملائكة العذاب من قبل رجله فتقول الصلاة : إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه ، فقد أطال في القيام لله — عز وجل — ، قال : فيأتونه من قبل رأسه ، فيقول الصيام : لا سبيل لكم عليه فقد أطال في الصيام . قال : فيأتونه من قبل جسده ، فيقول الحج والجهاد : إليكم عنه ، فقد أنصب نفسه ، وأتعب بدنه ، وحج وجهه لله — عز وجل — ، لا سبيل لكم عليه . فيأتونه من قبل يديه ، فتقول الصدقة : كم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وضعت في يد الله ابتغاء وجهه ، فلا سبيل لكم عليه . قال : فيقال له : هنيئاً طبت حياً ، وطبت ميتاً . قال : وتأتيه ملائكة الرحمة ، فتفرشه فراشاً في الجنة ودثاراً من الجنة ، فيفسح له في قبره مد بصره ، ويؤتى بقنديل من الجنة يستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره .

وعن أنس بن مالك أن نبي الله — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فيقعدانه ، فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل محمد — صلى الله عليه وآله وسلم — ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله . فيقولان : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله — عز وجل — به مقعداً في الجنة . قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : فيراهما جميعاً . وأما الفاجر أو المنافق فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال له : لا دريت ولا تليت ، ثم يضرب بمطارق من حديد ضربة بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين » أخرجه في « الصحيحين » (١) .

وفيهما من حديث أسماء بنت أبي بكر عن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — أنه قال : « أوحى إلي أنكم تفتنون في قبوركم مثل — أو قال قريباً من — فتنه المسيح الدجال ، يقال : ما علمك بهذا الرجل ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله .. » وذكر باقي الحديث (٢) . وعن ابن عباس قال : لما أخرجت جنازة سعد بن معاذ وسوينا عليها ، التفت إلينا رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — فقال : « ما من أحد من الناس إلا وله ضغطة في قبره ، ولو كان منفلتاً منها أحد لانفلت سعد بن معاذ » . وذكر باقي الحديث (٣) .

(١) صحيح البخارى كتاب الجنائز ، باب « الميت يسمع خفق النعال » رقم [١٣٣٨] ، المسند [٢٧٢/٢] .

(٢) رواه البخارى كتاب الجمعة ، باب [٢٩] رقم [٩٢٢] ، مسلم في الكسوف ، رقم [١١ ، ٨] .

(٣) ذكره المهيمن في مجمع الزوائد [٤٦/٣ — ٤٧] وقال : رواه الطبراني في الكبير والأوسط عن ابن عباس ورجاله موثقون .

وعن عبد الله الصنعاني قال : رأيت يزيد بن هارون في المنام بعد موته بأربع ليل ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : تقبل مني الحسنات ، وتجاوز عني السيئات . قلت : وما كان بعد ذلك ؟ قال : وهل يكون من الكريم إلا الكرم ، غفر لي ذنوبي وأدخلني الجنة ، قلت : بم نلت الذي نلت ؟ قال : بمجالس الذكر ، وقولي الحق ، وصدق في الحديث ، وطول قيامي في الصلاة ، وصبري على الفقر ، قلت : منكر ونكير حق ؟ قال : أي والله الذي لا إله إلا هو ، لقد أقعداني وسألاني : من ربك ؟ وما دينك ، ومن نبيك ؟ فجعلت أنفض لحيتي البيضاء من التراب ، وقلت : مثلي يسأل ؟! أنا يزيد بن هارون الواسطي ، كنت في دار الدنيا ستين سنة أعلم الناس ؟ فقال أحدهما : صدق ، هو يزيد بن هارون ، ثم نومة العروس ، فلا روعة عليك بعد اليوم .

وقال المروزي : رأيت أحمد بن حنبل في النوم في روضة ، وعليه حلتان خضراوان ، وعلى رأسه تاج من النور ، وإذا هو يمشي مشية لم أكن أعرفها له ، فقلت : يا أحمد ! ما هذه المشية التي لم أكن أعهدا لك ؟ فقال : هذه مشية الخدام في دار السلام . فقلت : وما هذا التاج الذي أراه على رأسك ؟ فقال : إن ربي — عز وجل — أوقفتني وحاسبني حساباً يسيراً ، وكساني وحباني وقربنى ، وأنا أنظر إليه ، وتوجني بهذا التاج وقال لي : يا أحمد ! هذا تاج الوقار توجتك به ، كما قلت : القرآن كلامي غير مخلوق .

● فصل في أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى حين الاستقرار في الجنة أو النار

قد أشرنا إلى أحوال القبر ، وأشد من ذلك نفخ الصور والبعث والحساب ونصب الميزان والصراط ، وهذه أحوال يجب الإيمان بها ، وينبغي تطويل الفكر فيها ، وجمهور الناس لم يتمكن من قلوبهم الإيمان بالآخرة ، ولو أن الإنسان لم يشاهد توالد الحيوانات ، ثم قيل له : إن صانعاً يصنع من هذه النطفة القذرة مثل هذا الآدمي المتصور العاقل المتكلم ، لاشتد نفور طبعه عن التصديق بذلك ، فخلقه على ما فيه من الأعاجيب ، يزيد على بعثه وإعادته . وكيف ينكر ذلك — من قدرة الله — تعالى — وحكمته — من يشاهد البداية ؟ فإن كان في إيمانك ضعف ، فقو الإيمان بالنظر في النشأة الأولى ، فإن الثانية مثلها وأسهل منها ، وإن كنت قوياً الإيمان بها ، فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار ، وأكثر فيها التفكير والاعتبار ، وليحثك ذلك على الجد والتشمير . وأول ما يقرع أسماع الموتى صوت إسرافيل حين ينفخ ذلك في الصور . فصور نفسك وقد قمت ذاهلاً مبهوئاً شاخصاً نحو النداء . قال الله — تعالى — : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ ^(١) .

وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « كيف

أنعم وصاحب الصور قد حنى جبهته ، وأصغى بسمعه ، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ في الصور فينفخ؟! قال المسلمون : كيف نقول يا رسول الله ؟ قال : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، وتوكلنا على الله »^(١). ثم انظر كيف يحشر الناس يوم القيامة ، فيساقون بعد البعث حفاة عراة إلى أرض المحشر ، وهى قاع ليس فيها ربوة يحتفى الإنسان بفنائها . وفى « الصحيحين » قال النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة الثقى »^(٢).

ثم تفكر فى ازدحام الناس ، وقرب الشمس من رؤوسهم ، وشدة العرق ، مع ما فى القلوب من القلق . وفى الحديث : « إن العرق يأخذ الناس على قدر أعمالهم »^(٣). وتفكر يامسكين فى سؤال ربك لك عن أعمالك بغير واسطة ، فقد روى عن النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — أنه قال : « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات : فأما عرضتان ، فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف ، فأخذ يمينه وأخذ بشماله »^(٤).

وعن أبى برزة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « لا تزول قدماً عبد حتى يسأل : عن عمره فيما أفناه ، وعن عمله فيما عمل فيه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه »^(٥). وعن صفوان بن محرز قال : كنت أخذاً بيد ابن عمر — رضى الله عنه — ، إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ فقال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — يقول : « إن الله — عز وجل — يدلى المؤمن ، فيضع عليه كفه ويستره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول : أتعرف ذنب كذا ! أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم : قال : ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون ، فيقول الأشهاد : ﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ »^(٦). أخرجاه فى « الصحيحين »^(٧).

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرک [٥٥٩/٤] ، وتعقبه الذهلبى بقوله : أبى يحيى وإه .

(٢) البخارى فى كتاب الرقاق ، باب يقبض الله الأرض رقم [٦٥٢١] ومسلم فى كتاب المناقب ، رقم [٣٨] .

(٣) جزء من حديث رواه مسلم فى صحيحه عن المقداد بن الأسود ، فى كتاب الجنة ، باب صفة يوم القيامة .

(٤) أخرجه الترمذى فى صحيحه [٢٥٧/٩] وقال : لا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبى هريرة ، وينحوه أخرجه الذهبى فى مسند الفردوس رقم [٨٨٢٧] وابن ماجه فى سننه رقم [٤٢٧٧] عن ابن مسعود .

(٥) أخرجه الترمذى فى صحيحه باب صفة القيامة وقال : هذا حديث حسن صحيح ، ورواه الذهبى فى مسند الفردوس من طريق معاذ ، وعزاه الهيثمى للطبرانى فى مجمع الزوائد [٣٤٦/١٠] ، انظر جمع الجوامع [٨٨٩/١] .

(٦) هود : ١٨ . (٧) المسند [١٠٥/٢] الحديث فى البخارى كتاب التوحيد رقم [٧٥١٠] .

وفى « الصحيحين » من حديث أبى سعيد ، عن النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — أنه قال : « يضرب جسر على جهنم فأكون أول من يجوز »^(١) . وفيهما أيضاً ، عن النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم ، قالوا : يارسول الله ! ما الجسر ؟ قال : مدحضة مزلة ، عليها خطاطيف وكلايب وحسك ، يمر المؤمنون عليه كالطرف ، وكالبرق الخاطف ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل والركاب ، فجاج مسلم ، وناج مخدوش ، حتى يمر آخرهم يسحب سحباً »^(٢)

● ذكر جهنم أعادنا الله منها^(٣)

عن أبى هريرة — رضى الله عنه — ، قال : كنا عند النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — يوماً : فسمعنا وجبة فقال النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — : « أتدرون ما هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا حجر أرسل فى جهنم منذ سبعين خريفاً ، فالآن انتهى إلى قعرها » رواه مسلم^(٤) . وفى « الصحيحين » عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « ناركم هذه التى يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، قالوا : والله إن كانت لكافية يارسول الله ، قال : فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً ، كلها مثل حرها »^(٥) .

وفى أفراد مسلم ، من حديث ابن مسعود — رضى الله عنه — ، عن النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — عليه وآله وسلم — قال : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها »^(٦) وعن أبى الدرداء — رضى الله عنه — قال : يلقى على أهل النار الجوع ، فيعدل عندهم ما فيه من العذاب ، فيستغيثون بالطعام ، فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذى غصة ، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصة بالشراب ، فيستغيثون بالشراب ، فيغاثون بالحميم ، ينالونه بكلايب من حديد ، فإذا دنا

(١) الحديث بطوله فى صحيح البخارى كتاب الرقاق باب الصراط جسر جهنم رقم [٦٥٧٣] ، صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، رقم [٣٠٢] .

(٢) هو نفس الحديث السابق .

(٣) انظر كتاب ، التخويف من النار والتعذيب من حال أهل البوار ، للحافظ ابن رجب الحنبلى ، من منشورات مكتبة القرآن بالقاهرة ، بتحقيق وتعليق محمد الشهاوى .

(٤) رواه مسلم فى صحيحه ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب فى شدة حر جهنم وبعد قعرها ، والبقية البعث رقم [٤٨٢] .

(٥) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب شدة حر جهنم ، رقم [٣٠] ، البخارى فى بدء الخلق باب صفة النار وأنها مخلوقة رقم [٣٢٦٥] .

(٦) صحيح مسلم كتاب ، الجنة وصفة نعيمها ، باب فى شدة حر جهنم ، انظر الدر المنثور [٣٥٠/٦] ، البدور السافرة باب [٢٧] ص [٨٤ — ٨٦] .

منهم شوى وجوههم ، وإذا دخل بطونهم قطع ما فى بطونهم ، فيطلبون إلى خزنة جهنم : **﴿ اذْعُوا رَبُّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴾** ^(١) فيجيبونهم : **﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾** ^(٢) .
 فيقولون : سلوا مالكمأ ، فيقولون : **﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾** ^(٣) فيقول : **﴿ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ ﴾** ^(٤) . فيقولون : **﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾** ^(٥) فيقول — عز وجل — : **﴿ اخْسَوْا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ ﴾** ^(٦) . فعند ذلك يأسون من كل خير ، ويأخذون فى الشهيق والويل والثبور .

وتفكر فى حياتها وعقاربها ، فى الحديث : **« إِنَّ حَيَاتَهَا أَمْثَالُ أَعْنَاقٍ لِلْبَخْتِ ، وَعِقَارِبَهَا كَالْبَغَالِ الْمُوكَفَةِ »** ^(٧) . وعن الحسن : أن النار تأكلهم كل يوم سبعين ألف مرة ثم يعودون كما كانوا .

واعلم : أن صفة جهنم تطول ، وأيسر اليسير من ذلك ينبغى أن يكفى فى التخويف ، فإن كنت مؤمناً بهذا فاتنبه لنفسك ، وخف ما بين يديك ، فإن الله لا يجمع على عبد خوفين ، ولسنا نعى بالخوف رقة النساء فتبكى ساعة ثم تترك العمل ، وإنما نريد خوفاً يمنع عن المعاصى ، ويحث على الطاعة . فأما خوف الحمقى الذين اقتصروا على سماع الأهوال ، وأن يقولوا : استعنا بالله ، نعوذ بالله ، يارب سلم ، وهم مع ذلك مصرون على القبائح ، والشيطان يسخر بهم كما يسخر من قصده سبع ضارٍ وهو إلى جانب حصن ، فيقول : أعود بالله من هذا ، وهو لا يدخل الحصن ولا يبرح مكانه .

● فصل فى محبة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم -

وكن فى الدنيا محباً لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، حريصاً على تعظيم سنته ، لعله يشفع فيك فى الآخرة ، فإن له شفاعته يتقدم فيها على الأنبياء كلهم ، ويسأل الله فى أهل الكبائر من أمته فينجيهم . واستكثر من الإخوان الصالحين ، فلكل مؤمن شفاعته ، ولا تحملنك الغرة على التوانى وتسمى ذلك رجاءً ، فإن من رجا شيئاً طلبه ، واحترز من المظالم ، فإن من كانت عليه مظالم ومات قبل ردها ، فإن غرماءه يحيطون به فى القيامة ، فهذا يقول : ظلمنى ، وهذا يقول : استهزأ بى ، وهذا يقول : أساء جوارى ،

(١) غافر : ٤٩ . (٢) غافر : ٥٠ . (٣) (٤) المؤمنون : ١٠٧ : ١٠٨ .

(٥) ، (٦) الزمخرف : ٧٧ .

(٧) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده [١٩١/٤] ، والبيهقى فى البعث والنشور ، باب « ما جاء فى حيات جهنم » ، والحاكم فى المستدرک [٥٩٣/٤] وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ، وابن حبان فى صحيحه [٢٧٨/٩ - ٢٧٩] ، ولى مجمع الزوائد [٣٩٠/١٠] عزاه للطبرانى فى الكبير ، وذكره السيوطى فى البدور السافرة باب [١١٦] رقم [٣] .

وهذا يقول : غشنى ، فلا خلاص لك من أيديهم . فإذا توهمت الخلاص قيل : لا ظلم اليوم .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « يخلص المؤمنون يوم القيامة من النار ، فيحبسون على قطرة بين الجنة والنار ، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة »^(١) . وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — ، أن النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « أتدرون ما المفلس » قالوا : المفلس فىنا من لا درهم له ولا متاع ، قال : « إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فبئ حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار »^(٢) .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « لقد كن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء »^(٣) . وهذه الأحاديث كلها فى الصحاح . فانظر وفقك الله إلى بُعد سلامة حسناتك لدخول ما يطلها من الرياء والغيبة ، فإن سلمت أخذها الخصوم ، فتبقيظ لنفسك ، ولا تفرط فى أوقاتك ، فإن المسكين من أثر لذة متقطعة ، واشترى بها عذاباً شديداً دائماً . نسأل الله السلامة والتوفيق ..^(٤)

● ذكر صفة الجنة نسأل الله العظيم من فضله

عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قلنا : يا رسول الله ! حدثنا عن الجنة ، ما بناؤها؟ قال : « لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ، وملاطها المسك الأذفر ، وحصاؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا يبأس ، ويخلد ولا يموت ، لا تبي لها به ، ولا يفنى شبابها »^(٥) .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب « الرقاق » ، باب « القصص يوم القيامة » ، رقم [٦٥٣٥] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب « البر » ، باب « تحريم الظلم » ، والترمذى فى صحيحه كتاب « الزهد » ، باب « ما جاء فى شأن الحساب والقصاص » ، وقال : حديث حسن .

(٣) أخرجه الترمذى فى صحيحه كتاب « الزهد » ، باب « ما جاء فى شأن الحساب والقصاص » ، وقال : حديث حسن صحيح .

(٤) للمزيد من صفة النار والجنة والبحث والحساب انظر « التصوف من النار » لابن رجب الحبل . تحقيق محمدى محمد الشهاوى ، البور السافرة للسيوطى تحقيق مصطفى عاشور ، طبعهما مكتبة القرآن .

(٥) المسند [٣٠٤/٢ — ٣٠٥] ، البيهقى فى كتاب « البعث » ، حديث [٢٥٨] ، الترمذى كتاب « صفة الجنة » ، باب « ما جاء فى صفة الجنة ونعيمها » .

وفي حديث أسامة بن زيد ، عن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — أنه قال يوماً وذكر الجنة : « ألا مشمر لها ؟ هي ورب الكعبة ريحانة تزهّر ، ونور يتلألأ ، ونهر مطرد ، وزوجة لا تموت ، في حبور ونعيم ، ومقام في أبد » ، فقالوا : نحن المشمرون لها يا رسول الله ، قال : « قولوا : إن شاء الله »^(١) . وفي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة — رضى الله عنه — أنه قال : « إن الله — عز وجل — قال : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »^(٢) . وفيهما أيضاً من حديثه عن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — أنه قال : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى في السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يتمخضون ، أمشاطهم الذهب ، وريحهم المسك ، وبجامرهم الألوة الأنجوج^(٣) ، أزواجهم الحور العين ، على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ، ستون ذراعاً في السماء »^(٤) ، وفي رواية أخرى : « لكل واحد منهم زوجتان ، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهما ولا تباض قلوبهم على قلب واحد ، يسبحون الله بكرة وعشياً »^(٥) .

وعن أبي موسى الأشعري — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » . أخرجه في « الصحيحين »^(٦) .

وفيهما من حديث أبي موسى أيضاً عن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — قال :

(١) أخرجه ابن ماجه [٤٣٣٢] ، ابن أبي الدنيا في صفة الجنة ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان [٢٦٤٠] ، وابن أبي داود ، وأبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه كلهم عن أسامة بن زيد ، [الدر المنثور ١/٣٦] ، وأخرجه البيهقي بنحوه في البحث رقم ٣٩١ عن أسامة .

(٢) البخاري في كتاب « التوحيد » رقم [٧٤٩٨] ، ورواه مسلم في « الجنة » برقم [٢ — ٥] .

(٣) أنواع من العشب يتغير بها (يخون) .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب « بدء الخلق » ، باب « ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة » ، ومسلم في صحيحه « كتاب صفة الجنة ونعيمها وأهلها » ، باب « ما جاء في صفة الجنة وأهلها » ، والبيهقي في البحث رقم [٢٩٩] .

(٥) أخرجه أحمد في المسند [١٦/٣] ، والترمذي في صحيحه كتاب « صفة الجنة » ، وقال حديث حسن [٩/١٠] والبيهقي في البحث رقم [٣٠٠] .

(٥) أخرجه البخاري عن عبد الله بن قيس في كتاب التوحيد باب قول الله ﷻ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ، وأخرجه مسلم عن عبد الله بن قيس أيضاً في كتاب الإيمان باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه — وتعالى — ، وبنحوه في المسند [٤١٦/٤] عنه ، وأخرجه الطيالسي في مسنده عن أبي موسى الأخرى رقم [٥٢٩] والبيهقي عن أبي موسى في البحث رقم ٢١٧ .

« إن في الجنة لحيمة من درة مجوفة ، عرضها ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخريين ، يطوف عليهم المؤمن »^(١) .

واعلم : أن الله — تعالى — ذكر نعيم الجنة مبسوطاً في مواضع القرآن ، ثم جمعه في آيات . منها قوله — تعالى — : ﴿ وَفِيهَا مَا تُشْتَهَى الْأَنْفُسُ وَلَكِنَّ الْأَغْنَى ﴾^(٢) . وقوله : ﴿ لَا يَنْهَوْنَ عَنْهَا حَوْلًا ﴾^(٣) ثم زاد على ذلك بقوله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾^(٤) صفات الجنة كثيرة اقتصرنا منها على هذا .

وأفضل ما ينال في الجنة رؤية الله — تعالى — . وفي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة — رضى الله عنه — أنه قيل : يارسول الله ! هل نرى ربنا ؟ فقال : « فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحب ؟ » قالوا : لا ، قال : « فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك »^(٥) .

● باب في ذكر سعة رحمة الله - تعالى -

نختم الكتاب بذكر سعة — رحمة الله — عز وجل ، نرجو بذلك فضله ، إذ ليس لنا أعمال نرجو بها العفو ، لكن نرجو ذلك من رحمته وكرمه ، قال الله — تعالى — : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾^(١) . وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : قل رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « لما قضى الله — عز وجل — الخلق ، كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي » أخرجاه في « الصحيحين »^(٢) .

وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — ، عن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « إن لله — عز وجل — مائة رحمة ، أنزل منها رحمة واحدة بين الإنس والجن والهوام والبهائم ، فيها يتعاطفون ، وبها يتراحون ، وبها تعطف الوحش على أولادها . وأخر تسعة وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة »^(٣) . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « إن ربكم — تبارك وتعالى — رحيم ، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، ومن

(١) رواه البخارى في « بدء الخلق » ، باب « صفات الجنة » ، رقم [٣٢٤٣] ، مسلم في « الجنة » ، رقم ٢٣ — ٢٥ .

(٢) الزمخرف : ٧١ (٣) الكهف : ١٠٨ . (٤) السجدة : ١٧ .

(٥) رواه البخارى في « الرقاق » ، رقم [٦٥٧٣] ، رواه مسلم في « الإيمان » ، رقم [٣٠٢] ، وقد تقدم تحريه .

(٦) الزمر : ٥٣ (٧) مسلم في « التوبة » ، برقم [١٤ — ١٦] ، البخارى في « التوحيد » ، رقم [٧٤٠٤] .

(٨) رواه مسلم في « كتاب التوبة » ، برقم [١٩ — ٢١] ، المسند [٣٤/٢] — [٤٣٩/٥] .

هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له سيئة واحدة أو يمحوها الله ، ولا يهلك على الله تعالى إلا هالك ^(١) .

وعن أبي ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يقول الله عز وجل : من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد ، ومن عمل سيئة ، فجزاء سيئة مثلها أو أعقر ، ومن اقترب إلى شبرا اقتربت إليه ذراعاً ، ومن اقترب إلى ذراعاً اقتربت إليه باعاً ، ومن أتانى يمشي أتيته هرولة ^(٢) » .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « أن رجلاً أذنب ذنباً فقال : أى رب ؟ أذنبت فاغفر لى ، فقال - تبارك وتعالى - : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدى ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً آخر فقال : أى رب عملت ذنباً فاغفره لى فقال : - عز وجل - علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدى . ثم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنباً آخر فقال : أى رب ! عملت ذنباً فاغفره لى ، فقال - عز وجل - : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ، أشهدكم أنى قد غفرت لعبدى ، فليعمل ما شاء ^(٣) . هذه الأحاديث كلها صحاح .

وفى «الصحيحين» من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسبى ، وإذا امرأة من السبى تسعى ، إذ وجدت صبياً فى السبى فأخذته ، فألصقته بطنها ، فأرضعته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «أترون هذا المرأة طارحة ولدها فى النار ؟» قلنا : لا والله . قال : «لله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها» ^(٤) . وفى «الصحيحين» من حديث أبي ذر رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال «ما من عبد قال : لا إله إلا الله ، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة» . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : «وإن زنى وإن سرق ، وإن زنى وإن سرق ، وإن زنى وإن سرق» ثم قال فى الرابعة : «على رغم أنف أبى ذر» ^(٥) . وفيهما من حديث عتب بن مالك رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : «إن الله حرم النار على من قال : لا إله إلا الله ، يتغنى بذلك وجه الله» ^(٦) .

(١) المسند [٢٧٩/١] .

(٢) البخارى فى كتاب «التوحيد» باب [٥٠] رقم [٧٥٣٦] بنحوه ، مسلم فى «الذكر» رقم [٣ - ٢] ، [٢٠ - ٢٢] ، «التوبة» : ١ .

(٣) رواه البخارى فى «التوحيد» باب ٣٥ رقم [٧٥٠٨] ، المسند [٢٩٦/٢] ، ٤٠٥ ، ٤٩٢ .

(٤) رواه مسلم فى كتاب «التوبة» رقم [٢٢] .

(٥) البخارى عن أبى ذر بنحوه فى كتاب «الجنائز» باب «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله» ، ومسلم فى «الإيمان» باب «مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة» ، واللفظ لمسلم .

(٦) أخرجه مسلم فى «المساجد ومواضع الصلاة» ، باب «الرخصة فى التغلف عن الجماعة بغير» .

وفيهما من حديث أنس بن مالك — رضى الله عنه —، عن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم —: أنه قال: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة» (١).

وعن أبي موسى — رضى الله عنه — قال: قال رسول الله — ﷺ —: «إذا كان يوم القيامة لم يبق مؤمن إلا أتى بيهودى أو نصرانى حتى يدفع إليه فيقال له هذا فكاكك من النار» (٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم —: «إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل منها مد البصر، ثم يقول: أتتكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتيبى الحافظون؟ قال: لا يارب، فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيبته الرجل، فيقول: لا يارب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول أحضره، فيقول: ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة. قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل شيء مع اسم الله — عز وجل —» (٣).

ونظر الفضيل بن عياض إلى تسبيح الناس وبكائهم يوم عرفة فقال: رأيتم لو أن هؤلاء صاروا إلى رجل يسألونه دائعاً (٤)، أكان يردهم؟ فقيل: لا، فقال: والله المغفرة عند الله — عز وجل — أهون من إجابة رجل لهم بدائع!

وعن إبراهيم بن أدهم قال: خلا لي الطواف في ليلة مظلمة شديدة المطر، فلم أزل أطوف إلى السُّحُر، ثم رفعت يدي إلى السماء. فقلت: اللهم إني أسألك أن تعصمني عن جميع ما تكره. فإذا قائل يقول في الهواء: أنت تسألنى العصمة، وكل خلقى يسألنى العصمة، فإذا عصمتك فعلى من أفضل؟

فهذه الأحاديث مع ما ذكرناه في كتاب الرجاء، تبشرنا بكرم الله — تعالى — وسعة رحمته وجوده. ونحن نرجو من الله سبحانه ألا يعاملنا بما نستحقه، وأن يتفضل علينا بما هو أهله. ونحن نستغفر الله — عز وجل — من أقوالنا التي تخالف أعمالنا، ومن كل

(١) البخارى في الصحيح رقم [٧٥١٠]، مسلم في الإيمان رقم [٣١٦]، ٣٢٥، ٣٢٦.

(٢) المسند [٤٠٢/٤]. (٣) المسند [٢١٣/٢]. (٤) اللاتي والدائق سدى الدرهم

تصنع تزينا به للناس ، وكل علم وعمل قصدناه ، ثم خالطه ما يكدره ، فبكرمه نستشفع إلى كرمه ، وبجوده نسأل من جوده ، إنه قريب مجيب .
والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ، وكما ينبغي لكريم وجهه — عز وجل — .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .
إلى هنا تمت ، وكان الفراغ من نسخه في اليوم المبارك في أربعة عشر من شهر جماد أول سنة أربعة وسبعين ومائة وألف ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، والعاقبة للمتقين .
كتبه الفقير إلى الله تعالى المعترف بالعجز والتقصير حسن بن علي بن أحمد — غفر الله له — ، ولمن دعا له بالمغفرة ، والسلام .

إن تجد عيباً فسد الحلالا تبقى عند الناس في عين الملا
لا تهاير من به عيب وقُل جل من لا فيه عيب وعلا

